القسم الثانى

جنرالات هتلر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الحادى عشر

سادة الحرب الأرستقراطيون

هم أولئك القادة العسكريون من الضباط الألمان العظام الذين صنعوا جيش ألمانيا النازية ، وتولوا قيادته ، سواء فى انتصاراته أو فى هزائمه ، والذين سواء كانوا يؤيدون أو يحبون الدكتاتور النازى أو هم عكس ذلك ، وظلوا فى خدمته حتى النهاية ، وضحوا بتاريخهم وأحياناً بحياتهم من أجله .

وهم كذلك انعكاس لنطابع الجرمانى الذى تفوق فى فنون الحروب ، وما تتطلبه هذه الفنون من دهاء فى الاستراتيجية ، وذكاء فى التكتيك ، وشجاعة قلب تصل إلى حد الاستخفاف بالحياة ، وإنكار للذات يبلغ درجات التضحية بها ، وهى من الصفات التى اقترنت منذ أزمان بعيدة بالأذهان عن الجندى الألمانى .

ثم هم سادة الحرب الأرستقراطيون الذين اختاروا أقدارهم بأنفسهم ، وتبعاً لما فرضته عليهم تربيتهم أولاً وعقلياتهم من بعد ذلك ، وهى أقدار لا ترتبط إلا بأمر واحد هو القتال . ولقد خاضوا القتال فى كل مرة لا يصبح أمامهم مفر من ذلك ، وكانت ميزتهم أنهم يطيعون الحاكم الذى يكون على رأس ألمانيا دون مناقشة للدوافع التى تجعله يقرر خوض الحرب ، وبغير أدنى حساب .

وقد أطاعوا جميعاً أدولف هتلر طاعة عمياء نتيجة لعوامل شتى ، فى مقدمتها بكل تأكيد تلك الجاذبية السحرية التى كانت تكمن فيه ، وهى جاذبية بلغت فى تأثيرها حدًّا عجيباً ليس عليهم فحسب ، بل على الشعب الألمانى على بكرة أبيه . ومن الأمثلة التى تذكر فى هذا الصدد أن قائداً عظيماً مثل (بلومبرج) كانت عيناه تفيضان بالدمع لمجرد كلمة إشادة بسيطة يوجهها هتلر إليه .

وكان طبيعيًّا ، نتيجة لهذه التربية وهذه العقلية ، أن يصبح الجنرالات الألمان يعيدين كل

البعد عن السياسة ، لا يعرفون شيئاً عن مدلولها ولا هدفها . إنهم تخلوا عنها بمحض اختيارهم ، وتركوها لسيد ألمانيا يعالجها كيفما شاء ، وبالأسلوب الذى يراه مناسباً . ثم انصرفوا هم لشىء آخر هو الحرب والتخطيط لها وخوض القتال . وقد ظلوا يفعلون ذلك ، حتى عندما أدركوا أن الجولة خاسرة ، ولو أن واحداً منهم أو أكثر حاول الخروج عن هذه القاعدة لكانت نهايته دامية .

إن الصورة التى تتجسد فى الذهن لدى استعادة سيرة أولئك الرجال الذين احتكروا الحرب وجعلوها كل دنياهم ، ومنتهى آمالهم ، هى أنهم انغلقوا داخلها كما ينغلق الإنسان على فكرة تتملك حواسه ، أو الذى يعيش منقطعاً لمثل أعلى خاص به . ولقد كانوا فى سلوكهم هذا مثل فرسان القرون الوسطى الذين كانوا يضعون أنفسهم داخل الدروع الحديدية ، فلا يستطيعون أن يروا سوى العدو الذى أمامهم ، أو الطبقة الخاصة التى ينتمون إليها . كأنما مهنة الجندية تحول بين الرجل وبين كل شىء آخر فى الحياة .

* * *

ويجدر بنا ، قبل أن نسوق بالتفصيل قصة أولئك الجنرالات ، ونتعرض لسيرتهم العسكرية والإنسانية ، أو ما ابتكروه من نظريات فى الاستراتيجية ، وأسس فى التكتيك ، أو نتصدى لما حققوه من انتصارات فى معارك النازية الأولى ، وما انتهى إليه أمرهم من هزيمة – أن نلقى نظرة سريعة على الجيش الألمانى الذى خاض الحرب عام ١٩٣٩ فى مواجهة أوربا كلها ، فسحق جيوشها جميعاً كما لو كانت لعبا من الورق !

والواقع أن هذا الجيش لم ينشأ فى العهد النازى أساساً ، ولا هو من صنع هتلر أو غرس يديه ، ولكنه تكون أصلاً فى بروسيا منذ القرن الماضى ، ثم أعيد تكوينه خلال الأعوام التى أعقبت الهزيمة الألمانية فى الحرب العالمية الأولى مباشرة .

وفى خلال عقدين من الزمن تحول هذا الجيش إلى قوة هائلة مروعة تبعث الرعب فى النفوس ، وأصبح (أرمادا) حقيقية يخاف بأسها العدو والصديق ، وكان ذلك منذ أيام حكومة جمهورية (فيمار) . التى ماكادت تسقط حتى تحول هذا الجيش ، ليصبح الأداة الفعالة فى أيدى النظام النازى .

وعندما يتأمل المؤرخون فى الكوارث التى تعرضت لها البشرية بصفة عامة ، والشعب الألمانى والأوربى بصفة خاصة نتيجة لنشوء المذهب النازى فى ألمانيا ، فإنهم لا يسعهم إلا أن

يذرفوا الدموع أسفاً على مصير تلك الجمهورية التى لم تساعدها أى دولة فى أوربا ، وكذلك الظروف التى أحاطت بها ، فلم تبق فى الحكم فترة أطول .

على أنه ينبغى ألا ننسى أنه إذا كانت جمهورية فيمار قد قامت أصلاً فى ألمانيا ، ثم استطاعت الاستمرار ثلاثة عشر عاما ، فإن ذلك إنما يرجع قطعاً إلى التأييد الذى لقيته منذ يومها الأول من جانب جماعة ضباط أركان الحرب الألمانية التى كانت حتى فى ذلك الوقت قوة لا تنكر ، وإليها يعود الفضل فى أن ألمانيا لم تتحول فى الفترة الحرجة التى مرت عليها فيما بين عامى ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، لكى تصبح واحدة من الجمهوريات الشيوعية .

* * *

والحق أن قدراً كبيراً من مصير أوربا قد تحدد فى تلك الأيام الحالكة التى أعقبت الهدنة التى وقعت يوم ١١ من نوفمبر ١٩١٨ : فقد اعتقدت الدول التى خرجت منتصرة فى الحرب العالمية الأولى أن فى إمكانها أن تعثر فى هذا النصر على ما يعوضها عن تضحياتها ، فلم تلق بالاً إلى المنهزمين الألمان الذين عاشوا فى أدنى درجات الجحيم . لقد رأوا أن كل شىء قد انهار حولهم ، وأنه لا أمل لهم فى أى مستقبل ، برغم المليونين من القتلى الذين سقطوا منهم فى الخنادق الباردة . وفى تلك الفترة اختفت كل القيم ، وضاع كل شىء ، وبدا المستقبل أكثر ظلاماً من الحاضر ، وهو ما استقر فى أعماق الزعماء الألمان من أبناء القرن التاسع عشر .

ولقد فات المنتصرين والمنهزمين على السواء أن هذا الواقع الذى يدعو إلى اليأس لا يمكن أن يدوم ، وأن الزمن الذى كان يمكن فيه إنزال هزيمة كاملة شاملة ونهائية بأمة من الأمم عن طريق تحطيم إرادتها ، أو إبادة أهلها والقضاء على كل مقوماتها ، قد ولى وانتهى . ولذلك فإن الذى حدث بعد عام ١٩١٨ لم يكن مجرد مناقشة احتمال أن ألمانيا قد هزمت حقيقة وانتهى الأمر ، وإنما المناقشة كانت حول احتمال أن هذه الهزيمة لها معنى فى العلاقات المقبلة بين الأمم .

وربما كان السؤال الذى يجول فى الأذهان هو : كيف أمكن لألمانيا هذه التى تحطمت وذهب ريحها ، أن تنهض ثانية من كبوتها القاتلة عقب هزيمة ١٩١٨ ؟ أو كيف توالت الأحداث وتلاحقت بحيث أدى بعضها إلى بعضها الآخر ، ثم انتهت إلى قيام نظام قوى وخطير فيها ، هو الحكم النازى ؟

إننا سنكتفى هنا بالإشارة إلى أهم الأحداث التى كان لها تأثير مباشر فى تحديد مصير الشعب الألمانى ابتداء من عام الهزيمة وعبر الأعوام التالية له ، حتى عام الهزيمة (الثانية) فى الحرب

العالمية الثانية عام ١٩٤٥ .

فى عام ١٩١٨ كان تمرد رجال البحرية الألمانية فى ميناء (كيل) ، وهو التمرد الذى لم يلبث أن تحول إلى ثورة انتشرت ووصلت إلى الموانى الأخرى مثل بريمن وهمبورج وهانوفر ، ثم إلى ميونيخ وغير هامن المدن . وإزاء هذه الثورة لم يجد الإمبراطور غليوم الثانى إلا أن يتنزل عن العرش ، فجاء الاشتراكى (شايدمان) وأعلن الجمهورية فى برلين .

وفى عام ١٩١٩ وقع الإضراب العام الذى عرف فى التاريخ باسم (أسبوع الدماء) . فاجتمعت عقب ذلك جمعية تأسيسية فى مدينة فيمار ، ومن ثم قامت جمهورية فيدرالية برلمانية عرفت بهذا الاسم .

وقد تميز عام ١٩٢٠ بأن الحكومة الألمانية قد أصدرت فيه أوامرها للجيش ، لكى يخمد حركات التمرد التى نظمها الشيوعيون فى منطقة الرور . وفى هذا العام بالذات تأسس فى مدينة ميونيخ الحزب الوطنى الاشتراكى الألمانى للعمال الذى تولى أدولف هتلر زعامته فى العام التالى .

فلما كان عام ١٩٢٣ حدث أن تأخرت ألمانيا فى سداد أقساط تعويضات الحرب ، وإذا بفرنسا تبعث بجيوشها لاحتلال إقليم الرور الألمانى ، وفى هذا العام وقعت محاولة الانقلاب الفاشلة التى قام بها هتلر .

وفى عام ١٩٢٥ انتخب (هندنبورج) رئيساً للجمهورية الألمانية ، ثم سارت الأمور حثيثة بعد ذلك إلى أن كان عام ١٩٣٠ الذى جرت فيه انتخابات أحرز فيها الحزب الوطنى الاشتراكى نصراً لم يسبق له مثيل ، إذ قفز عدد نوابه من ١٢ إلى ١٠٧ نواب !

وفى عام ١٩٣٢ أجريت الانتخابات الرياسية ، فحصل أدولف هتلر على ثلاثة عشر مليون صوت . غير أنه هزم أمام هندنبورج الذى أعيد انتخابه رئيساً للجمهورية ، وكان ذلك بمساعدة فون بابن . فعينه هندنبورج مستشاراً جديداً خلفا لبرونينج .

وفى عام ١٩٣٣ استدعى الرئيس هندنبورج أدولف هتلر ، ثم عينه يوم ٣٠ من يناير مستشاراً للبلاد . وفى يوم ٢٧ من الشهر التالى كان الحدث التاريخى المعروف ، ألا وهو حريق الرايخستاج .

* * *

كان حريق البرلمان الألمانى فرصة استغلها هتلر جيداً ، إذ جمع بين يديه جميع السلطات فى ألمانيا ، فسارع إلى حل الحزب الشيوعى وإلغاء النقابات العمالية ، وأعلن الحزب الوطنى

الاشتراكى حزباً وحيداً .

وفى عام ١٩٣٤ كانت المذبحة التاريخية الكبرى التى اشتهرت باسم «ليلة السكاكين الطويلة» . وفيها تم الإجهاز على خصوم نظام الحكم الجديد ، فلما توفى الرئيس هندنبورج يوم ١٩ من أغسطس من العام نفسه جمع هتلر بين منصبى رئاسة الجمهورية ومستشارية الرايخ .

وجاء عام ١٩٣٦ الذى تميز بقرار إعادة تسليح إقليم رينانيا ، ثم انضمام ألمانيا إلى تحالف مع إيطاليا الفاشية . فنشأ تبعاً لذلك ما عرف باسم محور روما - برلين الذى لم تلبث اليابان أن انضمت إليه .

وفى عام ١٩٣٨ تولى هتلر القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة ، فعمل على إجبار المستشار النمسوى (شوشينج) على الاستقالة من منصبه ، ثم لم يلبث أن احتل النمسا باعتبار أنها أرض ألمانية .

وفى يومى ٢٩ و ٣٠ من سبتمبر من العام نفسه عقد مؤتمر ميونيخ الذى كان موضوع البحث الوحيد فيه مشكلة السوديت التى طالبت بها برلين .

وفى شهر مارس عام ١٩٣٩ ضمت ألمانيا إقليم السوديت الذى كان تابعاً لتشيكوسلوفاكيا ، وفى يوم ٢٣ من أغسطس تم التوقيع على الميثاق الألمانى السوفييتى ، وبعد ذلك بأسبوع - أى فى يوم الأول من سبتمبر - اجتاحت القوات النازية الأراضى البولندية .

فلما كان يوم ٣ من سبتمبر سنة ١٩٣٩ اندلعت الحرب العالمية الثانية بدخول كل من بريطانيا وفرنسا الحرب ضد ألمانيا .

وتوالت الأحداث بعد ذلك : فغزت القوات الألمانية يوم ٩ من أبريل عام ١٩٤٠ كلاً من الدانمرك والنرويج ، وفى يوم ١٠ من مايو شنت هجومها الكبير على الجبهة الغربية ، وفى خلاله احتلت هولندا وبلجيكا وفرنسا . ومع مطلع يوم ١٣ من أغسطس ١٩٤٠ الذى أسماه هتلر (يوم النسر) - بدأت المعركة ضد بريطانيا .

وفى يوم ٢٨ من أكتوبر من هذا العام نفسه دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا ، وبدأت على الفور هجومها على اليونان . وفى يوم ٢٢ من يونية ١٩٤١ بدأت القوات الألمانية عملية (ذو اللحية الحمراء) بالشروع فى غزو الأراضى الروسية ، وذلك عقب فراغها من احتلال يوغوسلافيا .

ثم دخلت اليابان الحرب إلى جانب ألمانيا وإيطاليا عقب غارتها الجوية البحرية الكبرى

والمفاجئة على قاعدة بيرل هاربر الأمريكية ، وتلا ذلك دخول الولايات المتحدة الحرب ضد دول المحور . فلما كان عام ١٩٤٢ بلغت معركة المحيط الأطلنطى ذروتها ، وفيه وقع الهجوم الألمانى الكبير الثانى على الجبهة الروسية ، وتم غزو شبه جزيرة القرم .

وفى يوم ٣٠ من يونية شرع الفيلق الأفريقى بقيادة المارشال الألمانى (روميل) فى الزحف على العلمين ، وفى يوم ٨ من سبتمبر نزلت قوات الحلفاء فى أفريقيا ، وقام الجنرال مونتجومرى بهجوم عام بالقوات البريطانية من مصر بعد انتصاره على الألمان والإيطاليين فى موقعة (العلمين) .

وكانت هذه هى أولى هزائم النازية ، ثم أعقبها فى نوفمبر من العام نفسه الهجوم الروسى المضاد على نهر الفولجا إلى الشمال والجنوب من مدينة ستالنجراد . فتراجع عنها الألمان يوم ٢ من فبراير ١٩٤٣ .

وفى ٨ من سبتمبر وقعت الهدنة بين الحلفاء الغربيين وحكومة الجنرال بادوليو الإيطالى . فما كان من هتلر إلا أن أمر القوات الألمانية باحتلال إيطاليا .

وجاء ربيع عام ١٩٤٤ ومعه هجوم روسى جديد كاسح على نهر الدنيبر .

وفى يوم ٦ من يونية كان نزول القوات الأمريكية والبريطانية المشتركة على سواحل نورماندى الفرنسية إلى أن وقعت معركة (الأردين) فى الفترة من ١٦ إلى ٢٨ من ديسمبر . وفيها تمكنت القوات الأمريكية من صد الهجوم الألمانى المضاد .

وفى يناير ١٩٤٥ قام الروس بآخر هجوم لهم على الجبهة الشرقية . وفى يوم ٦ من أبريل اجتازت القوات الأمريكية نهر الراين عند (ريمانجن) . ثم توغلت فى الأراضى الألمانية دائما .

وفى الساعة الثالثة والنصف من فجر يوم ٣٠ من إبريل ١٩٤٥ انتحر أدولف هتلر فى كهف المستشارية ببرلين عندما أطلق رصاصة من مسدسه داخل فمه . وفى يوم ٧ من مايو . وقع الجنرال الألمانى (جودل) وثيقة استسلام الرايخ الثالث .

* * *

وبرغم أن هناك اعتقاداً سائداً بأن المؤسسة العسكرية الألمانية هى التى فتحت الأبواب على مصاريعها أمام هتلر فإن الحقيقة فى الواقع شىء آخر مختلف تماماً :

ذلك أن الدكتاتور النازى لم يحرز عند بداية ظهوره فى مشارب البيرة فى ميونيخ إعجاب طبقة الضباط الألمان الذين كانوا منصرفين إلى التفكير فى صرامة فى بنود وأحكام معاهدة

الصلح التى فرضها الحلفاء على ألمانيا عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، وحرمت عليها صنع أى شىء له صفة عسكرية . وقد فات الحلفاء وقتها أن يسدوا مصدراً آخر للتسليح كان يمكن أن تطرقه ألمانيا المتعطشة إلى السلاح ، فلم تجدبداً من أن تطرقه بالفعل . وكان هذا المصدر هو روسيا السوفيتية ؛ فقد اتجه إليها الجنرال الألمانى (فون سيكت) ، فحصل على ما يكفى تزويد الجيش الوطنى الذى كان حينئذ فى دور التكوين .

ثم شرعت بعض الشركات بعد ذلك - وخاصة شركة (فوكر) - فى بناء قاذفات قنابل فى المدن الروسية مثل موسكو ولننجراد وكييف ؛ كما أخذت بعض المصانع الروسية تنتج لحساب الجيش الألمانى الجديد الغازات السامة والقنابل الحارقة . وكانت السفن الروسية تحمل هذه الأسلحة ، وتنقلها سرًّا إلى الموانى الألمانية على أمل فى أن تستخدم فى إشعال الثورة العالمية .

ولقد كان فى ألمانيا خلال الفترة التى بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٢ - أربعة جيوش قوية تتجابه فيما بينها ، وقد تزود كل منها بعتاد رهيب ، وكان لكل منها زيه الخاص ، وأعلامه الخاصة ، وخططه السرية والمعلنة : فهناك ذوو القمصان البنية وهم جيش هتلر ، وقد بلغ تعداده عام ١٩٣٢ حوالى نصف مليون رجل ، وإلى جانبه الجيش الأحمر الذى لم يقل عن مائتى ألف متطوع شيوعى ، ثم الجيش الأسود الاشتراكى الذى كان قادراً على تعبئة مليون ونصف المليون من أنصاره المتطرفين ، وأخيرا الجيش الرمادى الذى ضم جميع الضباط وصف الضباط والجنود المخلصين للرئيس هندنبورج ولفكرة قيام ألمانيا العظمى .

* * *

وفى هذه الفترة من تاريخ ألمانيا عادت الدماء لتجرى أنهاراً فى جميع أرجاء البلاد ، على حين راح جيش الرايخ يتفرج على ذلك ، ويتطلع فى عجز إلى صراع هذه القوى التى كان ضعفه العددى يجعل من المستحيل عليه أن يسيطر عليها . وعندما حاول الجنرال (جروين) الذى عين وزيراً للجيش عام ١٩٢٨ حل هذه التنظيمات العسكرية - وبصفة خاصة فرق العاصفة الهتلرية والجيش الأحمر - إذا به يصطدم بمعارضة برلمانية عنيفة كانت تقوم بلعبة سياسية يزداد عقمها يوما بعد يوم .

عند ذلك ازداد امتعاض طبقة الضباط من أدولف هتلر ؛ كما أنه لم يصادف ارتياحاً للوهلة الأولى لدى الرئيس هندنبورج الذى اجتهد ومعه الجنرال (جروينر) للحيولة دون وصول هتلر إلى وضع قدمه فى دار المستشارية ، ولكنه عاد فقبل ذلك بعد فشل جميع الصيغ التى

وضعت لحل الأزمة الألمانية .

والواقع أن نجاح هتلر فى الانتخابات قد فتح له بطريقة مشروعة الأبواب ؛ ليعبر منها إلى السلطة التى بدأ بأن استخدمها بصورة غير مشروعة . إلا أن ماله معناه فيما يتعلق بموقف الضباط الألمان من النظام النازى فى بداية عهده ، أنهم طالبوا بأن يتولى وزارة الجيش فى حكومة هتلر التى شكلها فى مارس ١٩٣٣ جنرال غير نازىٍّ هو فون بلومبرج .

وبعد عام كامل من سيطرة هتلر على السلطة ، وبعد انتهائه من إزاحة العقبات كافة من طريقه بما فى ذلك جميع الأشكال الديمقراطية فى الجمهورية ، فإنه اضطر أن يعين جنرالاً آخر غير نازىٍّ فى منصب القائد العام للجيش الألمانى هو فون فريتش ، الذى يعتبر من أذكى الضباط الذين تخرجوا على أيدى القائد العظيم (فون سيكت) ، كما كان وراءه تاريخ طويل فى القيادة ، وتميز بصفة خاصة بأنه رجل شريف .

* * *

وقد قام الجنرال فون فريتش بدوره بإلحاق عدد من الضباط فى المراكز الرئيسية فى القوات المسلحة لهم مثل أفكاره وصلابته وخلقه . وكان هؤلاء يقفون معه وراء المحاولات التى بُذلت لإقصاء هتلر عن المغامرة بمقدرات ألمانيا ، وآخرها تلك المحاولة التى وقعت يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ، وأعدموا بعد فشلها .

يمكن القول إذن بأن الضباط الألمان القدامى ليسوا هم الذين مكنوا لهتلر من التسلط على ألمانيا ، ولكن اليد الطولى فى ذلك ترجع إلى جمهورية فيمار التى كانت تعرف أنها تحتضر . ولكنها تعجز عن ترجمة المشاعر العميقة والآمال التى تعتمل فى الشعب الألمانى برفضها الانتفاض على الهزيمة ؛ كما أنها لم تستطع أن تدرك أن المشكلة الحقيقية للأمة الجرمانية – إنما تتعلق بالوجود ذاته ، وبالمستقبل مباشرة .

على أى حال فإنه برغم إخلاص جمهورية فيمار بوصفها نظام حكم ديمقراطى فإنها انتهجت سياسة تنويم الشعب ، وتحذيره ومماطلته بغير أن تضع لنفسها برنامجاً ولاخطة . والأدهى من ذلك أنها تركت الجيش القديم فى عزلته المتباعدة المتعالية ، واستمرت هى فى تكرار واجترار شعاراتها البالية ، وهى الشعارات المناهضة للنزعة العسكرية ، والغارقة فى أوهام السلام .

وربما كان الجيش الألمانى قد بدأ فى هذه الحقبة بالذات يشعر بشىء من التعاطف نحو النازية الصاعدة ، ولا سيما ذوو الرتب الصغيرة فيه ، ولكن ذلك لم يحل دون واحد من قادة

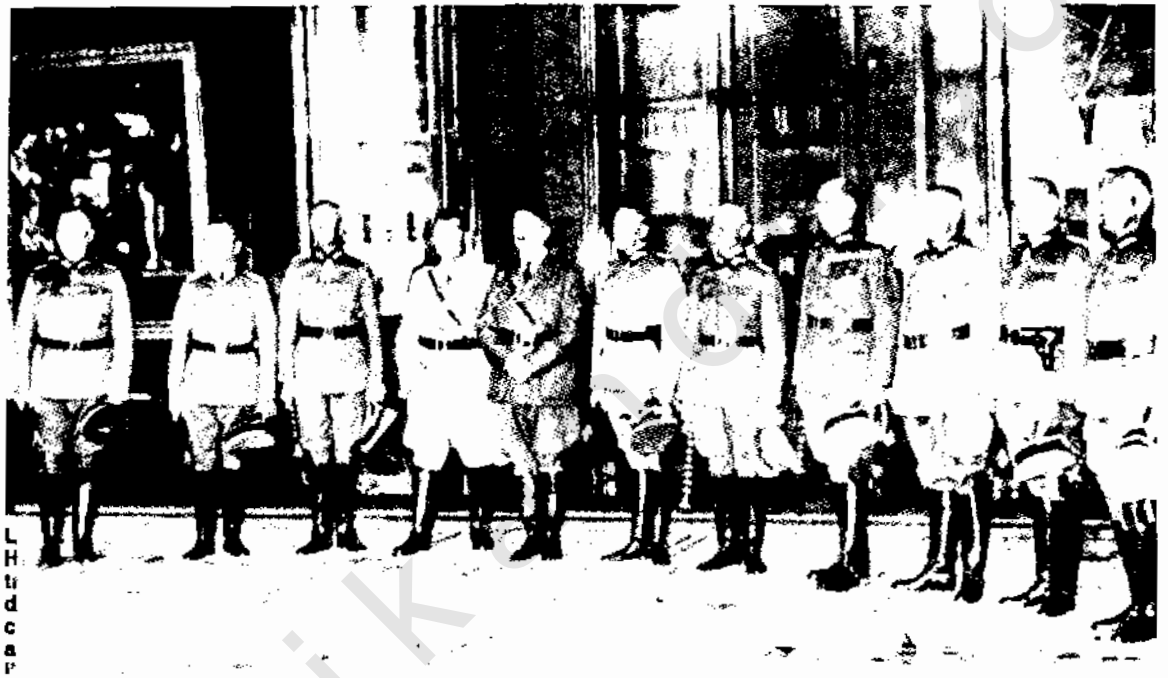

أدولف هتلر يتوسط كبار جنرالاته بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وهنا يبدون من حوله بمناسبة ترقيتهم إلى رتبة الماريشال ، وهم (من اليسار إلى اليمين) كيتل وفون رونشت وجورنج وفون براوشيتش وفون ليب وفون ليست وفون كلوجه وفون فيتر لين وفون رايشناو .

هذا الجيش ، هو الجنرال (جروينر) وليس أى برلمانى فى الجمهورية ، ومن المطالبة بصدور مرسوم بحل الحزب النازى ، وقد صدر هذا المرسوم بالفعل فى ١٥ من أبريل ١٩٣٢ .

وقد سار كل من فون شتاين وفون فريتش على الدرب نفسه ، فنظم الأول ضد هتلر محاولة انقلاب (بوتسدام) ؛ وذلك فى الأسبوع الذى سبق صعوده إلى الحكم ؛ كما أن فون فريتش عارض باستمرار أى تدخل لهتلر فى شئون الجيش ، وظل يفعل ذلك حتى شهر فبراير ١٩٣٨ ، عندما وجه هتلر ضربته الحاسمة إلى (القلعة) العسكرية التى ظلت مغلقة إلى ذلك اليوم فى وجهه

والواقع أن هتلر كان دائما شديد الكراهية لطبقة الضباط العظام ، غير أنه كان حريصاً على عدم التعرض لها إلا بعد أن يبث فيها روح الفرقة والانقسام . ومن سوء حظ ألمانيا أن لعبته هذه قد نجحت فى النهاية بعد أربع سنوات كاملة قضاها فى وضع الخطط والمؤامرات ، حتى الدنيء منها وما يتصل بالأخلاق .

وإذا كانت هيئة الضباط العظام قد عجزت عن مواجهة هذه المؤامرات ، فإن ذلك يرجع إلى تمسكها بأهداب الشرف العسكرى أكثر مما يرجع إلى ضعفها . فلقد كانت مضطرة أن تقاتل فوق أرض ليست معتادة عليها ، واستخدام أسلحة تأبى عليها كرامتها أن تلجأ إليها

وهكذا انهارت هذه الطبقة أمام عقبة لم تكن هى أو أى أحد آخر يتوقعها أو يستطيع معرفة أبعادها ، هى العقبة التى تمثلت فى الانعدام المطلق للقيم الأخلاقية والإنسانية فى الديكتاتورية النازية .

وفى يوم ٤ من فبراير ١٩٣٨ – وفى هذا التاريخ فقط – انفرط فجأة عقد جنرالات ألمانيا العظام ، لكى تحل محلهم جماعة الجنرالات السياسيين ، الذين كانوا بمثابة الخدم تحت إمرة هتلر .

الفصل الثانى عشر

فون رايشناو

نامت العدالة فانتصرت النازية !

من بين الضباط العظام فى الجيش الألمانى القديم الذين أيدوا السلطة النازية التى كانت لا تزال ناشئة فى مطلع الثلاثينيات – ثم ناصروها منذ ذلك الوقت – يبرز على الفور اسم ضابط من هذه الطبقة ، لم يكن قد وضع حينئذ على كتفيه بعد رتبة الجنرال . هو فالتر فون رايشناو .

وقد ولد لأب دبلوماسى فى كارلسروه عام ١٨٨٤ ، وعمل ضابطاً فى سلاح المدفعية فى الجيوش الألمانية فى عهد غليوم ، فلما كانت هزيمة بلاده فى الحرب العالمية الأولى ظل فترة طويلة واقعاً فى حيرة : أيظل يعمل فى الجيش ، أم يتخلى عن بزته العسكرية ؟

والواقع أن البدائل المحتملة لم تكن قليلة أمام فالتر فون رايشناو : ذلك أن أسرته كانت لها فى ذلك الوقت علاقات واسعة بالطبقات العليا فى ألمانيا ؛ كما أنه قضى مع والده عندما كان غلاماً وقتاً طويلاً فى أمريكا الجنوبية ، وعاش فى الولايات المتحدة ، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة كبيرة .

واختار أن يظل فى الجيش ؛ فهى مهنة يمكن أن ترضى تطلعاته المغامرة التى جبل عليها للظروف الخاصة التى كانت تجتازها ألمانيا فى فترة ما بعد الحرب .

وسرعان ما تكشف أن رايشناو ضابط حصيف مطبوع بحاسة سياسيه ؛ مما جعله يتنبأ مقدماً بأن جمهورية فيمار عمرها قصير . غير أنه كان يعرف كذلك أن طبقة الضباط المغلقة على نفسها ، والتى هى من حيث الواقع الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية الحاملة ألقاب النبلاء الألمان ، ليس فى استطاعتها وحدها أن توجه الضربة القاضية التى ينهار على إثرها نظام الحكم

الديمقراطى ؛ وإنما هى فى حاجة إلى حليف يكون من جانبه قادراً على إثارة حركة جماهيرية عريضة تتجه نحو الديكتاتورية . .

* * *

ولقد سارع فون رايشناو إلى إقامة علاقات مع الحزب الوطنى الاشتراكى الذى يتزعمه أدولف هتلر بمجرد أن تبين أنه شىء أكبر من زعيم غوغائى يخطب فى حانات البيرة فى مدينة ميونيخ ، ولو أن هذه العلاقات قد شابها الكثير من الغموض .

وقد اتضح ذلك عندما تشكلت الحكومة الألمانية الأولى التى أصبح أدولف هتلر مستشاراً لها ؛ إذ ظهر رايشناو كأنه الذراع اليمنى لوزير الحربية الجديد فون بلومبرج .

وعلى عكس الجنرال بلومبرج الذى كان مسحوراً بما يقال عن (عبقرية) هتلر ، فإن رايشناو قد اعتاد أن يتأمل الأمور ويضع حساباته بعقل بالغ الهدوء ، وعلى أساسه يضع قراراته . وقد أسر إلى زوجته يوماً بملاحظة قال فيها : «إننى أمقت هؤلاء الدهماء الذين يرتدون القمصان البنية وصلبانهم المعقوفة ! » .

إنه يمقت إذن هتلر ورجاله ، ولكنه يعرف أن الجيش الألمانى فى حاجة إليهم ، مثل حاجة هؤلاء الرجال إلى الجيش . والواقع أن النازيين كانوا أمام أحد طريقين : فلقد كان إرنست روهم قائد فرق الهجوم يصرخ بأعلى صوته : بأنه يتعين القيام بانقلاب كامل فى ألمانيا ، والقضاء تماماً على التقاليد ! وبمعنى آخر فإن روهم يريد أن ينتزع القوات المسلحة من سيطرة أولئك الجنرالات القدامى الذين وصفهم بالأكياس الفارغة ! والذين لا يزالون متأثرين بالطابع البروسى الجامد ، وتحويل فرق الهجوم التى تخصصت حتى ذلك الوقت فى عمليات المدن ، بحيث تندمج تماماً فى مجموع القوات المسلحة ، ويجعل الجيش يتدفق فيها . ومعنى ذلك أن تمتص الميليشيا الوطنية الاشتراكية الجيش الألمانى التقليدى القديم .

غير أن هتلر كان له رأى آخر مختلف تماما : لقد كان تأييد الجيش له ، أو على الأقل موقف الحياد المرحب الذى يتخذه الجيش منه أمراً لا غنى عنه ، ثم إن هندنبورج برغم أنه فى آخر مراحل الشيخوخة ويعانى فى بعض الأحيان تبلد الذهن ، فإنه مازال رئيساً للدولة بوصفه رئيساً لجمهورية فيمار . وفى الإمكان خلال لحظة إشعاع ذهنى أن يصدر أمراً إلى الجيش الألمانى للاعتراض بحزم على المشروع الذى يلوح به روهم وأعوانه . وقد شارك أغلب الزعماء هتلر فى موقفه الحذر من الجيش . وفضلاً عن ذلك فإن روهم لم يكن لديه برنامج عمل

محدد ، وإنما مجرد أفكار نظرية غامضة ، لكنها تشكل تهديداً يسعى الجيش الألمانى لإبعاده بصفة نهائية .

وكانت التصفية الجسدية للجنرال روهم ومعه عدد غير محدد من كبار أتباعه فى تلك المذبحة التى عرفت باسم «ليلة السكاكين الطويلة» التى وقعت يوم ٣٠ من يونية ١٩٣٤ ، وعمليات التطهير التى أعقبتها ، ومكنت النازيين من اغتيال اثنين من الجنرالات هما فون شلايشر وفون بريدوف ، وعدد كبير من معارضيهم ، وكل ذلك كان من الأعمال التى دبرها رايشناو . فلقد كان بارعاً بصورة شيطانية فى تصويره لما وقع على أنه «خلاف» بين هتلر وروهم ، فجعل الجيش الألمانى يقف مكتوف الأيدى إزاء هذه التسوية الدموية للحسابات داخل الحزب الوطنى الاشتراكى .

* * *

والواقع أنه لو كانت العدالة قد تحركت فى تلك الفترة فى ألمانيا لوضعت يدها على أدولف هتلر نفسه لتورطه فى المذبحة : فلقد شوهد يدخل وهو ممسك بمسدس ضخم إلى غرفة الجنرال روهم فى فندق (بادفيسى) ، وسمعه البعض وهو يصرخ فيه قائلاً : «روهم . . إنك معتقل ! » .

وقد قيل كذلك : إنه أطلق بنفسه الرصاص فى الهواء فوق رأس الجنرال ، ثم أصدر أمره بنقله إلى (ليشتر فيلد) حيث أعدم رميا بالرصاص وكذلك لو أن الجيش الألمانى قد ثار دفاعاً عن الشرعية ، لكانت جميع التنظيمات النازية قد انهارت .

غير أن رايشناو هو الذى أسهم أكثر من غيره فى جعل الجيش يقف على الحياد فى هذه الموقعة الدموية : فقد كتب جواقيم فست فى ترجمته لحياة هتلر يقول : «لقد لجأ كل من رايشناو وهيملر إلى التزييف والكذب والتدليس ؛ لكى يحولا دون قيام أى شك فى مصير أولئك «المتآمرين» ؛ كما أنهما ساعدا فى نشر جوّ من الخوف على إثر ترويج شائعة تقول : إن قوات العاصفة هددت بذبح الضباط العظام فى القوات المسلحة ! » .

وهكذا تغاضت القيادة العليا عن المذبحة ، وأعلن رايشناو وهو لا يخفى سروره ، أنه لم يكن من اليسير بالتأكيد العمل على أن تمضى الأمور كما لو أن ما حدث كان مجرد تسوية للحسابات داخل الحزب .

ومن سخرية القدر أن هذا التصرف من رايشناو جعل هتلر يأمر تشكيلاته الخاصة بالتدخل

فى الاستقلال الذاتى الذى كان يتمتع به حتى ذلك الوقت الجيش الألمانى . وفضلا عن ذلك فإن رايشناو لم يحصل على الثمرة التى كان يرجوها : فلقد رقى إلى رتبة الفيلد مارشال بعد ذلك بكثير : أى بعد معركة فرنسا فى يوليو ١٩٤٠ مع أحد عشر جنرالاً آخرين .

لقد كان يتوقع أكثر من ذلك من هتلر بعد أن عاونه بكل هذا الإخلاص فى التخلص من روهم : كأن يعينه على الأقل رئيساً لأركان حرب الجيش ، وهو أعلى منصب عسكرى . وقد أيده فى مطلبه هذا فون بلومبرج ، لكن الذى اعترض على هذا التعيين كان الرئيس هندنبورج الذى كان برغم شيخوخته التى قربته من القبر لا يزال يتمتع بنفوذ من شأنه الحيلولة دون مثل هذه القفزات ، كما أن هتلر لم يكن راغباً فى قرارة نفسه فى الاستجابة لطلب رايشناو .

وعند ذلك قنع رايشناو بالبقاء فى الوزارة ؛ إذْ لم تكن تطلعاته تلقى معارضة رئيس الجمهورية وحده ، وإنما كانت تلقى كذلك عداء الكثيرين من الجنرالات .

* * *

وتوفى الرئيس هندنبورج يوم٢ من أغسطس ١٩٣٤ ، ودفن فى احتفال رسمى ضخم فى (تاننبرج) ، حيث انتصر فى معركة كبرى على الروس فى الحرب العالمية الأولى ، وباختفائه طرحت مسألة خلافته على رأس الدولة . وقد حل هتلر هذه المشكلة حلاً جذريًا ، فقرر بوصفه الفوهرر ، أن يصبح من الآن فصاعداً رئيساً للدولة ومستشارها معاً .

غير أن هتلر تجاوز بكثير اختصاصات هندنبرج فى رياسة الدولة : فقد ألغى الجمهورية فعلاً لا اسماً فقط ، ولكن سرعان ما نشأت عقب ذلك مشكلة هى : لمن يُقسم رجال القوات الألمانية المسلحة يمين الولاء ؟

لقد كانت الصيغة السارية فى الجيش قبل وفاة هندنبورج كما يلى :

« أقسم أمام الله أن أخدم شعبى ووطنى فى كل وقت بولاء وشرف ، وبشجاعة الجندى وطاعته ، وأن أكون مستعدًا دائمًا لمنحه حياتى » . وفى استخزاء مزر عكف رايشناو فى مكتبه الفخم على وضع صيغة القسم الجديد ، فجاء كما يلى :

« أقسم أمام الله أن أطيع فوهرر الرايخ بدون قيد ولا شرط بوصفه زعيماً للشعب الجرمانى وقائد جيشه ، وأن أضحى فى سبيله بحياتى » .

وكان أول من أدى هذا القسم فون بلومبرج نفسه ، فلم يسع الجنرالات الآخرين إلا أن

يحنوا رءوسهم . وهكذا اختفى اسم جيش الرايخ ، وحل محله اسم القوات المسلحة ، التى يرأسها رايشناو

وهنا لم يعد هتلر فى حاجة إلى رايشناو فى الميدان السياسى ، فرقاه إلى رتبة الجنرال عام ١٩٣٦ ، وفتح أمامه المجال العسكرى ؛ ليلمع فيه .

والواقع أن رايشناو قد أثبت أنه قائد بارع : فبرغم أنه جاء من سلاح المدفعية تبين فى ميدان المعارك أنه رجل تكتيك من الدرجة الأولى ، واستوعب إلى أقصى حد فنون الحرب الميكانيكية . حقاً إن اسم رايشناو لم يصبح فى مثل شهرة اسم روميل أو جودريان أو فون رونشت ، لكنه ساواهم فى فعالية عمليات المفاجأة والاقتحام .

واشترك الجنرال رايشناو عام ١٩٣٨ فى احتلال إقليم السوديت ، وشارك فى شهر مارس التالى فى معركة بوهيميا وموراڤيا التى لم تكن فى الحقيقة سوى نزهة عسكرية . وخلال معركة بولندا التى اندلعت يوم الأول من سبتمبر ١٩٣٩ كان رايشناو على رأس قيادة الجيش العاشر الذى يتبع مجموعة جيوش الجنوب التى يرأسها الجنرال فون بوك ، فقام فى هذه المعركة بدور حاسم : فقد هاجم من سيليزيا العليا فى اتجاه (شتوشوفا) مدينتين هامتين هما رادوم ووارسو . فحقق انتصارات باهرة ، وكان أبرز ما قام به فى هذا الصدد أنه عبر على رأس قواته نهر الفستولا سباحة ، وفى ربيع العام التالى كان غزو هولندا وبلجيكا ، ثم سحقت قواته جيوش فرنسا كلها عندما حطمت خط (ماجينو) .

والواقع ان هذه المعارك جاءت تكرارا لخطة عسكرية أخرى وضعت فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وعرفت باسم «مشروع شليفن» مع إضافة بسيطة .

وفى هذه المعارك كان رايشناو يقود الجيش الألمانى السادس الذى كان يشكل مع الجيش الثانى عشر بقيادة فون كوشلر جزءاً من قوات فون بوك ، وكانت منطقة عمله هى الجبهة البلجيكية . وقد تجلت عبقرية رايشناو عندما حرك قواته على الجبهة ؛ لكى يجتذب إليها أنظار القيادة العليا الفرنسية ، فكانت هذه التحركات هى التى أسهمت بصورة غير مباشرة فى نجاح العملية الألمانية فى (الأردين) التى كان من شأن تكتيكه فيها أن انفرط عقد القوات المعادية .

وفى خلال هذه المناورات نفسها تمكن رايشناو يوم ٢٤ من مايو ١٩٤٠ من فتح ثغرة فى القوات البريطانية البلجيكية المشتركة فى قطاع (كونترای) ، ثم اندفع فى عمقها لكى يفصل

الحملة الإنجليزية عن جيوش بلجيكا التى لم تلبث أن طلبت يوم ٢٨ من مايو وقف إطلاق النار .

ولم تنقض على ذلك سوى أسابيع قليلة ، حتى استسلمت فرنسا تماماً ، الأمر الذى لم يصدقه هتلر نفسه ، الذى كان قد سبق له أن قاتل برتبة أومباشى فى خنادق الحرب العالمية الأولى ، وعرف فيها بأس الجندى الفرنسى .

وفى خمى السعادة الغامرة التى أحس بها الفوهرر بعد هذا النجاح العظيم أجرى واحدة من حركات الترقيات الكبرى ، رفع فيها رتب عدد كبير من الجنرالات إلى رتبة فيلد مارشال : ومن بين هؤلاء فالترفون رايشنآو الذى لم يجد فيها الترضية التى كان ينشدها ، إذ قلل من شأنها حصول عدد كبير من زملائه عليها .

* * *

وجاء أخيراً دور بريطانيا التى قررت القيادة الألمانية العليا أن الوقت قد حان من أجل « تأديبها » وحملها على التعقل لكن الأمر لم يسر هنا كما حدث فى المعارك السابقة التى خاضتها قوات هتلر ، إنما اتخذ الاتجاه الآخر الذى نعرفه .

لقد كان الاسم الرمزى لمعركة بريطانيا هو (سبع البحر) ، وفى نطاق هذه المعركة ظل رايشنآو قائداً للجيش الألمانى السادس الذى عهد إليه بأن ينزل من السفن بالقرب من ميناء (بور تسموث) الذى كان قاعدة بحرية بريطانية منيعة .

غير أن الشروع فى عملية الغزو بأكملها لم يتم نظراً لفشل جورنج فى السيطرة على أجواء بريطانيا بسلاحه الجوى . فكان فى هذا الفشل التحول التاريخى الذى غير مجرى النتائج التى أسفرت عنها هذه الحرب : ذلك أن هتلر بدأ يفكر فى الاتجاه إلى الشرق ، لكى يقضى على الاتحاد السوفييتى ، فقرر مهاجمة الأراضى الروسية بغتة برغم وجود ميثاق عدم الاعتداء المعقود بين الدولتين عام ١٩٣٩ .

ومن أجل ذلك نقلت القوات الألمانية التى كانت رابضة على سواحل بحر المانش ، واتجهت ناحية الشرق ، ومن بينها الجيش السادس الذى يقوده رايشنآو ، بعد أن انضم إلى مجموعة جيوش فون رونشتت .

وفى بداية معركة روسيا بدا أن كل شىء قد عاد إلى سيرته الأولى سهلاً هيناً : فقد قام الجيش السادس يوم ٩ من يوليو ١٩٤١ بفتح ثغرة عريضة فى الحشود التى تقف على حدود

الاتحاد السوفييتى ، فبدد صفوفها .

وانطلق رايشناو يسابق الريح فى مطاردة القوات السوفيتية ، فوصل يوم ٢ من أغسطس من ذلك العام نفسه إلى قرب مدينة (درفيمسك) على نهر بوج ، وهنا قام بحركة كماشة بارعة جعلت قواته تتحد هى والجيش الألمانى السابع عشر ، فحاصر الجيشان فى منطقة (أومان) ثلاثة جيوش سوفيتية دمرت دماراً نهائيًا .

وفى أواخر أغسطس التف رايشناو التفافاً سريعاً حول القوات الروسية المرابطة فى الشرق ، وراح يضغط عليها ضغطاً شديداً ، مما مكن المدرعات التى يقودها جودريان وفون كليست من احتلال القرم وحوض الدونيز ، وباتت هزيمة الاتحاد السوفييتى قاب قوسين أو أدنى . . .

* * *

غير أنه ما كاد يحل شهر ديسمبر حتى كانت مصاير الحرب التى تخوضها ألمانيا النازية فى الأراضى الروسية قد أخذت تنقلب رأساً على عقب : ذلك أن السوفييت قاموا بهجومهم المضاد العنيف الذى التزمت القوات الألمانية بعده باستراتيجية دفاعية ، وضع خطتها أدولف هتلر نفسه ، لكن فون رونشتت لم يوافق على هذه الخطة ، واعترض أساساً على استراتيجية الدفاع حتى النهاية التى فرضها الفوهرر ، فترتب على ذلك خلاف فى التيارات انتهى بأن قدم رونشتت استقالته .

وهنا لاح كأن الفرصة الذهبية قد حانت لفون رايشناو ، وقد تحققت هذه الفرصة بالفعل عندما عهد هتلر إليه بتولى قيادة مجموعة الجيوش الألمانية العاملة فى الجنوب فى المركز الذى كان يحتله رونشتت . غير أن القدر لم يتح الوقت الكافى الذى يلزم المارشال فالترفون رايشناو ، ليكشف عن مدى قدراته فى قيادة هذه المجموعة من الجيوش الألمانية : ذلك أنه لم يكد ينقضى وقت كاف على تعيينه فى المنصب الكبير الذى طالما تطلع إليه فى أحلامه ، حتى أصيب فى شهر يناير ١٩٤٢ وهو فى مقر قيادته فى (بولتافا) بذبحة صدرية شديدة .

وبينما كانت الآلام تمزق صدره ، راح يحتضن بناظريه مجموعة الخرائط الحربية التى كان يدرسها ، ويودّ لو أنهم لم يحولوا بينه وبينها ، وهم ينقلونه بالطائرة إلى ألمانيا لمحاولة إنقاذه . وقبل أن تهبط الطائرة على الأرض الألمانية لفظ فون رايشناو أنفاسه الأخيرة ، تاركاً وراء ظهره مصير جيوشه للمجهول .

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

هرمان جورنج : قائد الأوهام !

لقد احتلت أسطورة هرمان جورنج مكاناً خاصًا بين جنرالات ألمانيا العظام وقياداتها العليا ، لما عرف عنه من جسارة فى بداية الأمر ، وما تبين فيه من سذاجة فى النهاية .

فلقد كان نازيًا منذ الدقائق الأولى لقيام هذا النظام الذى عينه رئيساً للبوندستاج ، وبعدها وزيراً للطيران فور استيلاء هتلر على الحكم . فاستخدم السبل كافة لبناء الأسطول الجوى الألمانى الجديد فى سرعة مذهلة . والواقع أن هذا الأسطول بالذات هو الذى أتاح له ذلك المجد القصير الأجل التى تمتع به فترة من الزمن ، كما جعل منه الخليفة المنتظر للفوهرر الألمانى .

وبرغم أنه عرف بالإخلاص والفناء فى سبيل هتلر ، فإنهم قد وصموه فى النهاية بالخيانة على حين كان يحاول المستحيل لكى ينقذ ألمانيا ، ومن قبلها إنقاذ نفسه .

وليس هناك من جدال فى أن هرمان جورنج الذى كان يتلئ كراهية وحقداً على معاهدة فرساى هو الذى وضع منذ عام ١٩٢٩ الدعائم الأولى للسلاح الجوى الألمانى ، عن طريق حث الآلاف من الشباب على الانضمام إلى «نوادى» الطيران ، التى كان يصرح لها رسميًا بالقيام على أنها نواد خاصة .

وقد دعم بعد ذلك مكانته كرجل قادر على التنظيم الدقيق ، مما مكن له من الحصول على مساعدات مالية كبيرة خصصها للنهضة بالطيران . بل إنه استخدم كل أموال زوجته الثرية ، وهى البارونة كارين فون فوش التى تزوجها بعد مغامرة غرامية قام بها فى شبابه المبكر فى السويد ، لكى يقيم مصانع للطائرات .

وإلى جانب ذلك ، فإنه كان شريكاً أو منفذاً لعمليات التطهير الرهيبة التى دبرها هتلر ، وتخلص بها من خصومه ، وتولى رياسة مشروع السنوات الأربع الذى تدعمت به الصناعات الألمانية الأولى لإنتاج طائرات القتال .

ولم يعرف قط عن جورنج أنه حاول الاعتراض على الأعمال الجنونية التى قام بها هتلر ، بالرغم من أنه كان يستطيع إبداء هذا الاعتراض . وفى عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية أصبح جورنج رجلاً بالغ الثراء . غير أنه فقد تلك الشجاعة التى عرفت عنه فى الحرب العالمية الأولى التى سجل خلالها أعمالاً بطولية ، وأسقط وحده ٣٦ طائرة للأعداء فى مبارزات اتسمت بالفروسية .

لقد تربع فترة فوق القمة . وهو يحمل جسده الضخم الذى يبلغ ١٣٠ كيلو جرام ، وغطى صدر سترته العريض بأوسمة ونياشين لامعة ، استحق منها ولا شك واحدا هو وسام « الصليب الأزرق » الذى جعل أعوانه المقربين ابتداء من « أبطال الجو » — وفى مقدمتهم الطيار جالاند الشهير — يقدرون عبقريته فى التكتيك والاستراتيجية ، ثم إنه كان يستمد الثقة من عقيدة استقرت فى الأذهان مؤداها أن من المستحيل هزيمة التكنولوجيا الألمانية . وبعد ذلك أصبح يؤمن بأنه ليس هناك أى خصم يتيق للوقوف أمام السلاح الجوى الألمانى !

وشهدت ألمانيا الأيام الزاهية مع الهجمات الخاطفة التى سقطت فى إثرها بولندا وفرنسا ، نتيجة للانقلاب التام الذى أدخلته طائرات « شتوكا » التى أطلقوا عليها اسم الدبابة الطائرة على المعارك الحربية ، ومعها طائرات الانقضاض من طراز « يونكرز ٨٧ » التى كانت تدك خطوط الأعداء الأولى وما وراءها .

على أن هذين النوعين من الطائرات ذات القدرة المظهرية غير الحقيقية لم تكن لها سوى قدرة ذاتية ضئيلة ، ولم تلبث أن اتضحت فيها عيوب جسيمة ، لكن الانتصارات المدوية التى أحرزتاها فى بداية الحرب جعلت قائد السلاح الجوى الألمانى العتيد يسكر بخمرة النصر ، كما جعل هتلر يمنحه لقباً عسكريًا ابتدعه خصيصاً ، هو لقب « مارشال الرايخ » .

ويبدو أن الترف المبالغ فيه يقتل همم الرجال : ذلك أن جورنج الذى ماكادت زوجته تتوفى حتى سارع بالزواج من إحدى الممثلات . وأصبح يمتلك مزرعة واسعة ، ويقتنى التحف والآثار ، ويهوى الصيد والقنص ، وينصرف إلى سماع الموسيقى ، ويتعاطى المخدرات . . . لم يلبث أن أصبح شخصاً آخر غير ذلك الرجل الشجاع المحارب ، وتحول إلى سراب أنكره أصدقاؤه القليلون ، ونددت به رجال الرايخ الأقوياء .

ولقد أعمته السلطات التى يتمتع بها ، فأقسم للفوهرر أن يجعل بريطانيا تركع أمامه على ركبتيها ، وذلك بأن يفرض عليها حصاراً جويًا رهيباً ، يمهد للهجوم على الجزيرة ، وبه تنتهى

الحرب ، غير أنه لم يُدخل فى اعتباره مصادر العدو الفنية والبشرية ، وكذلك الحدود التى يعجز عن تخطيها سلاح الجو الألمانى الذى تصور جورنج خطأ أنه لا يهزم .

ولقد بدا أن الخطط التى راح يدرسها مع هتلر مباشرة خطط كاملة ، وأن معركة بريطانيا سوف تنتهى حتماً بفوز ألمانيا بها ، لكن الذى حدث أنها انتهت بأول كارثة تنزل بالرايخ الثالث .

والواقع أن المعركة بدأت يوم ١٣ من أغسطس ١٩٤٠ ، فزج فيها السلاح الجوى الألمانى على الفور بألفين وأربعمائة طائرة ، قسمت إلى عدة أساطيل ، تولى قيادتها الجنرال ستومف والمارشالان كيسلرنج وسبرلى .

وكانت قواعد انطلاق الأساطيل الجوية الألمانية فى النرويج والدانمراك وبلجيكا وهولندا وفرنسا ، وتتكون من قاذفات قنابل بعيدة المدى ، وطائرات انقضاض من طراز «شتوكا» ، ومقاتلات « مسرشميت ١٠٩ » وطائرات التدمير طراز « مسرشميت ١١٠ » .

أما الأهداف فكانت المدن الصناعية البريطانية وبعدها لندن .

وفى الأيام الأولى كانت فى انتظار الألمان مفاجأة مؤلمة : فلقد أسقط الإنجليز لهم عدداً كبيراً من الطائرات ، وسرعان ما تبينوا أنه على طول السواحل البريطانيه الشرقية والجنوبية شبكة هائلة من الرادار ، كما تبينوا أن الطائرات الإنجليزية التى تقل عدداً عن الطائرات الألمانية أسرع منها وأكثر كفاية ، ولا سيما طائرات « هاريكان » و « سبيتفاير » .

وهكذا لم تستطع الحسارة التى كانت يتحلى بها الطيارون الألمان وحدها أن تعوض النقص الفنى الذى لم يحسب جورنج حسابه جيداً ، وفضلاً عن ذلك فإن الإنجليز راحوا يدافعون عن أراضيهم ببسالة مذهلة ، فكان رجال أطقم الطائرات المقاتلة ما يكادون ينتهون من عملية دفاعية ، حتى يعودوا فوراً إلى عملية جديدة ، مما جعلهم يواجهون بجدارة العدو الألمانى برغم أنهم لم يكونوا يمتلكون من الطيارين سوى ١٢٠٠ .

والواقع أن هذه الروح التى لا تعرف اليأس كان وراءها قائد بريطانى هو سير هيو دوادننج الذى تولى قيادة طائرات المطاردة ، والذى بلغ من الجرأة أنه بعث بقاذفاته لكى تغير على برلين نفسها ، الأمر الذى جعل من جورنج موضعاً دسماً للسخرية ، لأنه كان قد أقسم على عدم السماح لطائرة معادية واحدة بالتحليق فى الأجواء الألمانية .

وثار هتلر غضباً ، وعند ذلك وقع فى غلطة فاحشة ، إذ استدعى جورنج ، وأقنعه بأن

يعدل عن الهجوم على المواقع العسكرية والصناعية البريطانية لتدميرها ، وأن يقوم بدلاً من ذلك بغارات إرهابية على السكان المدنيين وخاصة فى العاصمة لندن . وهكذا تعرضت المدينة طوال ٥٧ ليلة متتالية لعمليات دك لا تنقطع ، ولكن قيادات طائرات القتال البريطانية استطاعت أن تضيق مجال دفاعها . ومن ثم أعادت تنظيم نفسها ، وأدخلت فى المعركة قوات جديدة . وأخذت التشكيلات الألمانية تتحطم الواحدة بعد الأخرى ، ليس فقط من ضربات المدفعية المضادة للطائرات . وإنما فوق بحر المانش ، بمهاجمتها خلال مجيئها وعودتها ، عندما لا تكون تحت الحراسة .

وفى نهاية شهر أكتوبر . وبعد سلسة من الغارات التى محت أحياء كاملة من لندن ، ودمرت مدناً مثل كوفنترى ، اضطر الألمان إلى تخفيض معدل هجماتهم ، فقد كانت خسائرهم جسيمة . يصعب تعويضها سواء فى الرجال أو فى الطائرات التى قدر عدد ما سقط منها فوق الجزيرة البريطانية بحوالى ١٧٣٥ طائرة فى مقابل ٩٥٥ طائرة بريطانية . وهنا فقط اقتنع الفوهرر بأن غزو بريطانيا أمر مستحيل ، ومع أنه يعتبر بدوره مسئولاً عن ذلك فإنه أبدى خيبة أمله فى جورنج لهذه الإستراتيجية الخاطئة ، غير أن جورنج أصر على وجهة نظره ، وقال إنه لابد من ضرب بريطانيا فى مطاراتها وصناعاتها ، وأنه ينبغى القضاء على سلاح الجو الملكى البريطانى ، قبل أن يصبح قادراً على استعادة زمام المبادرة .

ورُئِىَ أخيراً أن تلقى المسئولية لفشل غزو بريطانى على قائد آخر هو الجنرال إرنست أوديت رفيق جورنج فى الحرب العالمية الأولى ، ثم أصبح معاونه المخلص ، فلم يجد الرجل بدًّا من أن يضع حداً لحياته بالانتحار .

على أن هذه النهاية لم يكن من شأنها إلا أن تركت ظلالا قاتمة على كفاية مارشال الرايخ هرمان جورنج .

* * *

بيد أن نجم جورنج لم ينبث أن عاد لكى يلمع مرة أخرى ، ولو أنه كان لمعاناً وهميًّا ، وذلك عندما قرر هتلر يوم ٢٢ من يونيو ١٩٤١ الهجوم على الاتحاد السوفيتى .

ولقد فوجئ الروس بهذا الهجوم الذى أوقع بهم خسارة فادحة . وحقق السلاح الجوى لألمانى نتائج ذات أبعاد هائلة : فى الأيام الأربعة الأولى من الحرب استطاع أن يدمر ستين مطارا سوفيتيًا تدميراً كاملا ، وأن يحطم للروس ثلاثة آلاف طائرة . وقد بدا على الفور أنها

كارثة لا يمكن الاتحاد السوفيتى أن يقوم من بعدها ؛ إذ أعقبها تدفق جحافل الألمان على الأراضى الروسية ، التى أخذت فى الزحف صوب لننجراد والقرم وموسكو نفسها .

وتناسى العالم معركة بريطانيا ، وعاد هتلر ؛ ليرى فى جورنج أعظم بطل فى الدولة الاشتراكية الوطنية ، وأعلن أنه اختاره ليكون خليفته إذا هو مات ، ووصل الماريشال إلى قمة القمم مقتلعاً فى طريقه كلاً من جو بلز ومارتن بورمان ، وأصبح بعد الفوهرر أقوى رجل فى ألمانيا النازية .

غير أن القدر حال دون انهيار الاتحاد السوفيتى الذى عثر على المجد عند مدينة ستالنجراد ، ومعه عودة الروح الحاسمة : ذلك أنه سرعان ما تغير الجو ، واكفهرت السماء ، وانهمرت الثلوج وحدث نقص خطير فى العتاد والمهمات والوقود ، وأطل الشتاء برمهريره على الأسطول الجوى الألمانى فشل حركته ، واضطرت معه القوات الزاحفة إلى التوقف ، طلباً للدفء فى مواقع ثابتة .

وفى هذا الشتاء بالذات كانت بداية النهاية للرايخ الثالث : ففى نوفمبر عام ١٩٤٢ كان ثلثمائة ألف جندى ألمانى تحت قيادة الجنرال (فردريش فون باولوس) محاصرين فى ستالنجراد . ولقد كان يمكن إنقاذهم لو لم يكن هتلر قد اعترض اساساً على انسحابهم ، وتعين عند ذلك مساعدتهم . وهنا طلب الفوهرر من جورنج أن يفعل المستحيل لإنقاذهم ، وأن يقيم جسراً جويا لتموين هذه القوات المحاصرة بأطنان من الوقود والذخائر والطعام . وجمع جورنج رجاله ومساعديه ، لكى يصدر إليهم الأوامر اللازمة ، غير أن الصدمة كانت عنيفة عليه عندما فوجئ بأن ألفا ومائتين من طائراته التى كان يعتمد عليها غير صالحة للطيران .

وأخذ رجال فون باولوس يتساقطون بالمئات كل ساعة ضحايا للجوع والصقيع والأمراض واليأس . وسجلت ستالنجراد والهزيمة فى الاتحاد السوفيتى أفول نجم جورنج الذى أصبح كمّا مهملاً ، وتعرض للنقد الشديد حتى من جانب جنرالاته ، على حين ظل هو يجتر أمجاده الماضية .

* * *

لكن ذلك لم يمنع أنه ظل قائداً للسلاح الجوى الألمانى الذى ما برحت المصانع تمده بطائرات لاحصرلها . إلا أن اتساع رقعة الحرب ، والعون المتزايد الذى قدمته الولايات المتحدة للحلفاء كان من شأنها أن اقتصر دور السلاح الجوى الألمانى على عمليات الدفاع . وهو دور لم

يكن أساساً مؤهلاً له . فلقد انهزم فى سماء أفريقيا . وبات عاجزاً فى الجبهة الروسية . وغير موجود تقريباً عندما أنزل الحلفاء قواتهم فى نورماندى . ولم يعد ما كان يعتقد أنه أقوى أرمادا جوية فى العالم قادراً لا على لتصدى لأعمال هزيلة . ولم يستطع جورنج الذى أصبح يلقى الازدراء والمعارضة من جميع المحيطين به أن يحصل من هتلر على ما يدعم هذا السلاح .

ولقد سبق لجورنج أن قطع على نفسه عهداً بألا يسمح لأى طائرة بأن تتخطى الحدود الألمانية . ولكن ها هى ذى ألمانيا كلها تشهد برلين وهى تدمر . ومعها أهم المدن ، فتحترق فيها المصانع والمبانى ، التى تنصب عليها أطنان القنابل منهمرة من السماء . حقاً إن المطاردات الألمانية قد عهد بها إلى رجال شجعان استمروا فى القتال إلى أن أصبحت أسرابهم غير قادرة على الارتفاع فى الجو ، أو مواجهة التشكيلات البريطانية والأمريكية الضخمة التى بلغت نسبتها ١٠ إلى واحد . غير أن هؤلاء الطيارين لم يكونوا يحاربون فى ذلك الوقت بالتأكيد باسم جورنج الذى لم يعد أحد يثق فيه أو يؤمن به .

فلما اقتربت نهاية الرايخ الثالث عمد إلى مخبئه الجبلى فى (أوبر سالزبرج) ، حيث ذهب إليه الجنرال كارل كولبر لكى يبلغه ما اعتزمه هتلر من أن ينهى حياته فى قبو برلين ، وهنا تصور جورنج أن من واجبه أن يحل محل الفوهرر ، ولكن هذا لم يلبث أن وجه إليه بإيعاز من جوبلز وهيملر تهمة الخيانة العظمى ، ناسبين إليه أنه حاول عقد صلح منفرد مع الحلفاء .

وترتيباً على ذلك ألغى قرار تعيينه خليفة للفوهرر . وهو القرار الذى كان قد صدر فى إبان مجده . ومرة أخرى حتى المارشال رأسه استخذاء . وبعث رسالة إلى فون ريبنتروب يؤكد فيها ولاءه لزعيم . إلا أنه فعل ذلك متأخر . إذ فوجئ بكتيبة من جنود العاصفة تقتحم عليه مخبأه . ومعها أمر باعتقاله !

ونقل جورنج مقبوضاً عليه إلى قرية (ماوتندورف) النمسوية ومعه زوجته (إيمى) . ولكن عدد من ضباط السلاح الجوى تمكنوا من إطلاق سراحه . إذ كانت قوات العاصفة قد بدأت تسرح نفسها بنفسها . بعد أن أذيع نبأ انتحار أدولف هتلر يوم الأول من مايو ١٩٤٥ .

ومرة أخرى توهم المارشال الجوى الذى عاوده شعور التعالى أن فى استطاعته الدخول فى مفاوضات مباشرة مع الجنرال آيزنهور الأمريكى . ولكن الأمر انتهى به إلى أن سلم نفسه إلى أصغر قائد فى قوات الحلفاء .

وخلال نظر قضية (نورمبرج) ، كان جورنج يجلس مستسلماً فى مقاعد المتهمين ، ولا يلقى أى اتهام يوجه إليه . ولكنه حاول بكل الطرق تبرير الأعمال التى قام بها بغير أن يلقى بأى لوم على ذلك الرجل الذى سيطر عليه وعلى ألمانيا كلها ، والذى كان قد نفخ فيه حتى أبلغه عنان السماء ، ثم حطمه بكلمة واحدة .

والذين شاهدوا هرمان جورنج أيام تلك المحاكمة لابد أن يكون قد راعهم ذلك الهزال الذى أصابه بعد امتلاء ، وتلك الشفافية التى ظهرت عليه بعد أن حرموه تناول ما اعتاد عليه من المخدرات . وكذلك السخرية المريرة التى كان يعلق بها على الأسئلة التى تطرح عليه خلال الاستجواب .

والعجيب أنه استعاد – وهو فى ذلك الوضع الذليل – اعتزازه القديم بنفسه ، وهو الاعتزاز الذى أبى عليه السماح لهؤلاء الحلفاء أن يتحكموا فى مصيره ، وأن ينهوا حياته معلقاً من عنقه فى عود إحدى المشانق . ولذلك فإنه استخدم للمرة الأخيرة دهاءه فى الوقت المناسب ، فابتلع محتويات زجاجة صغيرة من السيانور ، أخفاها ببراعة فى فمه طوال المحاكمة .

وقد مات هرمان جورنج يوم ١٥ من أكتوبر ١٩٤٦ ، ولم يكد يبلغ الثالثة والخمسين .

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر

فيلهلم كيتل

الرجل الذى يقول (نعم) دائماً !

كانت هناك عدة تسميات تطلق على فيلهلم كيتل ، أشهرها الجنرال (حاضر يا سيدى) أو (تابع هتلر) ، وذلك لأنه اعتاد أن يطيع الفوهرر طاعة عمياء ، ولا يعارض أية رغبة له . ولقد كان من الناحية النظرية هو الرجل الثانى فى القوات الألمانية المسلحة ، والقائد الذى كان فى استطاعته أن يكون له تأثير على هتلر ، وواحداً من أعضاء (لجنة الثلاثة) التى تكونت منه ، ومن مارتن بورمان ، وهانز لا مبرز الذين كان على ثلاثتهم ابتداء من شتاء عام ١٩٤٢ أن يرفعوا إلى الزعيم الأوامر التى كان عليه أن يوقعها .

وقد كان ذلك تنفيذاً لقرار أصدره الفوهرر ، لكى يضع به حدًا لتلك الفوضى التى نشأت عن قرارات لا ضابط لها ولا رابط ، ولكى تكون له الكلمة الأخيرة .

* * *

كان ذلك أيام أحداث ستالينجراد عندما كان الوضع بالغ الخطورة على المانيا ، التى لم يعد أمامها أى مسلك للخروج من المأزق . ولقد بدا أن القرار الخاص بأنشاء (لجنة الثلاثة) تحول وانحراف عن مبدأ القيادة الموحدة ، ولكنه كان فى الواقع مجرد مصفاة جديدة على القرارات ، قبل أن تصل إلى الفوهرر ؛ لكن هذا القرار ما كاد يصدر حتى وجد الجنرال كيتل نفسه يواجه المتاعب ؛ إذ إنه لا قائد البحرية ولا قائد الجيش – أى الأميرال رايدر أولاً ومن بعده الأميرال دوينيتس والمارشال جورنج – أذعنا لقبول سلطة أخرى عليهما .

وحتى (لا مبرز) فإنه انضوى بدوره إلى جانب بورمان الذى كان له من النفوذ ما يفوق كيتل لدى الديكتاتور الألمانى

والواقع أنه بينما كان بورمان رجلاً ذكيًا بالغ النشاط ، وممثلاً للحزب ، كان كيتل حذرا ،

ممتلئاً بالشكوك والمخاوف ، متعلقاً – كما يقال اليوم –بالمقعد الذى يجلس عليه .

وعندما كان يسمع صوت هتلر كان وجهه يشحب ، ولسانه يتلعثم ، ثم يضرب كعبيه بعضهما فى بعض وهو يهمس قائلاً : (حاضر يا سيدى الفوهرر) ، وهى العبارة التى أصبحت عنواناً له ، وإن كان يحمل لقب المارشالية !

أما الدوائر العسكرية التى لم تكن تسمح لنفسها بأن يتولى قيادتها (الأومباشى) القادم من بوهيمياء – كما كانوا يسمون هتلر – فإنها كانت تنظر فى امتعاض إلى أن كيتل يتربع على رياسة القيادة العامة للقوات المسلحة . حقًّا إنه ضابط مدفعية جسور ظل يرتدى زيه العسكرى منذ عام ١٩٠١ ولم يخلعه قط ؛ كما أنه أحد الذين أنشئوا الجيش الألمانى الحديث ، وخلقوا القوة العسكرية الألمانية ، ولكنه أيضاً الرجل الذى كان فى استطاعته أن يقول لهتلر (لا) ولكنه لم يقلها قط .

إنه يقول (نعم) دائماً . ولا شىء غيرها . وعندما كان الحلفاء يحاكمونه فى قضية نورمبرج كان الجنرال «حاضر يا سيدى» – يتخذ وضع الانتباه فى كل مرة يوجه إليه أحد القضاة الكلام ، وكان يردد دائماً القول بأنه «مذنب» ، ويحمل نفسه بكل المسئولية !

* * *

وقد سأله المحامى الذى كان يتولى الدفاع عنه : لماذا يفعل ذلك ؟ فأجاب كيتل قائلا : «وبماذا كنت أجيب ؟ إن شرفى العسكرى يمنعنى من أن أكذب . لقد سئلت : هل كنت قد نقلت أوامر تخضع للتجريم ؟ فأجبت بنعم ، وإلا فبماذا كنت أجيب ؟ فليحاكمونى كما يريدون ، ولكن الحقيقة هى هذه» .

هكذا كان كيتل : فهل مثل هذه المحاكمة التى لن تأخذ منه سوى الحياة يمكن أن تجعله يخرج عن الخط الذى رسمه هتلر ، أو أن يتنكر لذلك المبدأ الذى ورد فى كتاب «كفاحى» الذى كتبه الزعيم عندما كان سجيناً عام ١٩٢٤ فى سجن لندسبرج ، وقطع فيه بأن القرارات يجب ألا يتخذها سوى رجل واحد ، هو الفوهرر ؟

وهل كان فى استطاعة كيتل أن يرفض مبدأ الطاعة ؟ كلا ، إن هذا مستحيل . ولعل ذلك يذكرنا بتلك العبارة المشهورة التى قالها (ميرابو) زعيم الثورة الفرنسية : «إن بروسيا ليست دولة لها جيش ، ولكنها جيش له دولة ! » ، وهذه الدولة التى قامت نتيجة للجهود التى لا تعرف الكلل من جانب المؤسسة الصناعية الألمانية – إنما هى فى الحقيقة كل شىء ، وما الكائنات

البشرية فيها سوى أجزاء تتحرك فى هذه الآلة الضخمة العجيبة !

أما الفرد فإنه يتعلم ليس فقط من الملوك أو الأومباشية المدربين ، وإنما من الفلاسفة ، أن مهمته هى أن يطيع ، وأن يعمل ، وأن يضحى بنفسه أمام "الواجب . وحتى (كانط) فإنه كان يرى أن الواجب يتطلب إلغاء المشاعر الإنسانية .

وخلال الاجتماعات الشهيرة للحزب فى نورمبرج كانت تباع بطاقات صغيرة عليها صور لكل من فردريك الأكبر ، وبيسمارك ، وهند نبورج ، وهتلر ، وفوق تلك الصور كتبت عبارة تقول : « إن ذلك الشىء الذى انتزعة الملك ، والذى كونه الأمير ، ودافع عنه الفيلدمارشال ، قد أنقذه الجندى وحده ! » وهتلر هو الجندى الذى أقام ألمانيا من عثرتها ، بعد طعنة الخنجر التى أصابتها عام ١٩١٨ ، وتتعين إطاعته مهما كان الثمن فى نضال ألمانيا من أجل « مجالها الحيوى » .

* * *

هذا هو السبب الذى جعل كيتل يقول : « حاضر يا سيدى » ، لرجل تسوى تجنس بالجنسية الألمانية فى فبراير عام ١٩٣٢ فقط ، على حين كان يجب عليه هو الذى ينتمى إلى الجنس السيد فى ساكسونيا – أن يحتقره . فلقد ولد فيلهلم كيتل فى (هنمشرور) بالقرب من جندر شايم ، يوم ٢٢ من سبتمبر ١٨٨٢ ، والتحق بالجيش عام ١٩٠١ ، وظل يترقى فيه حتى وصل إلى أركان الحرب . وفى الجبهة الغربية تولى القيادة فى إحدى بطاريات المدفعية ، وأصيب عام ١٩١٦ فى معركة (فردان) وبعدها حصل على وسام الجدارة .

وانضم كيتل فى عام ١٩٢٢ إلى جيش الرايخ ، وهو الجيش الذى ضم مائة ألف رجل هم الذين سمحت بهم معاهدة الصلح لألمانيا ، والذى أصبح بمثابة مدرسة للحرب ، وجيش للقيادات : فقد كان كل رجل فيه يدرب على أن يكون قائداً ، على طول المدرج الرياسى ، حتى إن جندى المشاة فيه كان يعد ليكون مدرباً بدرجة جاويش .

وقد ظهرت كفاية كيتل فى جيش الرايخ ، فأعير عام ١٩٢٩ لوزارة الحربية ، ليكون مسئولا عن إدارة إعادة تنظيم الجيش الذى كانت المؤسسة الصناعية الألمانية تموله سرًّا والذى تشبع بالنظريات النازية ، إذ رأى جميع أولئك الرجال الذين خابت آمالهم أن الوطنيين الاشتراكيين هم الذين سوف ينقذون الوطن الذى تعرض للخيانة .

* * *

ولقد كان على جيش الرايخ الذى يضم مائة ألف رجل بعد أن أصبح يسمى الجيش الألمانى أن يتوسع بحيث يشمل ثلثمائة ألف جندى فى فترة تنتهى فى الأول من أكتوبر عام ١٩٣٤ . إلا أنه فى آخر عام ١٩٣٢ ، توقف نشر أى معلومات فى النشرة العسكرية التى كانت تسرد ترقيات الضباط . وكان الغرض من ذلك هو منع إدارات المخابرات الأجنبية من الوقوف على أنباء زيادة أعداد الجيش الألمانى .

ولقد أصبح كيتل قائد فرقة فى عام ١٩٣٣ ، ورئيساً للجنة العمل فى مجلس الدفاع فى الرايخ ، فراح يحذر معاونيه من ترك أية وثيقة تتسرب ، من شأنها إعطاء أى معلومات تفيد العالم الخارجى عما يجرى فى الجيش الألمانى . وكانت البحرية الألمانية بدورها تعمل فى ذلك الوقت على التخلص من القيود التى فرضت عليها ، بموجب معاهدة فرساى : فأخذت تبنى سفناً جديدة حمولة ٢٦ ألف طن ، وتزعم أنها لا تتعدى الحمولة المسموح بها ، وهى عشرة آلاف طن فقط .

وتعلم كيتل فى تلك الأعوام ، أن يقول : (نعم) لهتلر بحماس شديد ، وكان ذلك سهلاً ومريحاً له : فقد عين عام ١٩٣٥ مديراً لإدارة القوات المسلحة بوزارة الحربية ، ثم أصبح قائد جيش عام ١٩٣٦ ، ثم رقى فى العام التالى إلى رتبة الجنرال .

وفى عام ١٩٣٨ كان كيتل مع ألفريد جودل الذى سيصبح رئيسه فى هيئة أركان الحرب واحداً من الذين دبروا المؤامرة التى أدت إلى أن قدم المارشال فرنرفون بلومبرج استقالته من رياسة أركان الحرب فى الجيش الألمانى الجديد .

ولقد كان لهذه المؤامرة التى استهدفت إزاحة هذين الرجلين من المسرح السياسى أصداء يمكن وصفها بأنها (أوبرا) صغيرة ، لولا أنها قامت على أساس مأساوى .

ذلك أن بلومبرج توفيت زوجته عام ١٩٣٢ ، وتزوجت إحدى بناته الابن الأكبر للجنرال كيتل ، وهو رجل تعهده المارشال العجوز كما لو كان شقيقاً صغيراً ، وظل يضفى عليه حمايته طوال حياته . وقد حدث أن الماريشال بعد أن بلغ الستين من عمره وقع فى غرام سكرتيرته الشابة (إرنا جروهون) ، وأعلن أنه سيتزوجها . ولذلك فإنه طلب النصيحة من جورنج الذى كان يعلم أنه صديق لهتلر ، إذ لم يكن مألوفاً فى ألمانيا أن يتزوج ضابط عظيم برتبة الفيلد مارشال إحدى السكرتيرات . لكن جورنج طمأنه . . . ألم يتزوج هو بعد أن ترمل مثله ممثلة مطلقة ؟

رونشتت ، وفون بوك ، وليب ، وليست ، وفون كلوجه ، وفون فيتزليبن ، وفون رايشناو .

أما جورنج فقد منح لقب الماريشال الأعلى ، وأهدى له هتلر الصليب الحديدى الأكبر ، وهو الوسام الوحيد من هذه الطبقة الذى لم ينله سواه فى هذه الحرب .

ولقد كان من شأن توزيع «عصا الماريشالية» أن جعل الدوائر العليا فى الجيش الألمانى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهتلر . غير أن بريطانيا أعلنت أنها لم تهزم بعد فى الحرب ، بل أنها ستستمر فى خوضها ، والعالم يعرف كيف انتهت . وهنا قام كيتل بوضع خطة لإنزال القوات الألمانية فى الجزيرة البريطانية ، وهو ما لم يسبق له مثيل فى العصر الحديث ، فإن هذه الخطة لم يقدر لها قط أن توضع موضع التنفيذ ، إذ كلفه هتلر بتوسيع خططه حتى تصبح غزواً شاملاً للاتحاد السوفيتى .

* * *

ولقد كان هتلر يتحرق شوقاً لبدء الهجوم على الروس فى خريف عام ١٩٤٠ ؛ لأنهم فى هذه الفترة لم يكونوا يتوقعون ذلك . وبذل كيتل . مجهوداً جباراً لإقناع الفوهرر بأن عملية من هذا الطراز تعتبر أمراً مستحيلاً ، ليس فقط بسبب الظروف الجوية السيئة ؛ وإنما أيضا بسبب المشاكل التى تستتبع الانتقال المفاجئ من الجبهة التى على السواحل الفرنسية إلى بولندا .

ويقول الجنرال (فالريمونت) نائب رئيس أركان حرب القيادة الألمانية العليا فى ذلك الوقت : إن موعد بدء الهجوم على روسيا قد تغير من خريف ١٩٤٠ إلى ربيع ١٩٤١ ، كما أن خطة (ذو اللحية الحمراء) عهد بها إلى قواد آخرين .

وراح كيتل يوافق بحماس شديد على كل عبارة يدلى بها زعيمه ، وقد فعل ذلك طوال الحملة على روسيا فيما عدا معركة ستالينجراد عندما وعد بعض الجنرالات بأن يصر على ضرورة انسحاب الجيش الألمانى السادس الذى وقع فى شرك الحصار . غير أنه عندما جاءت لحظة عرض التقرير الأخير للخطط العسكرية فى هذا الشأن ، إذا به ينهض ويشير إلى دائرة حمراء فى الخريطة الجغرافية للمنطقة ، ويعلن بكل حزم : «وهنا ينبغى أن تقاوم حتى آخر رجل ! » .

لقد كان ذلك قرار هتلر ، ونتيجةً له تمَّ القضاء على ذلك الجيش ، فلم يأخذ الفوهرر بأية كلمة مما قال به كيتل الذى خضع على الفور لرأيه

وهكذا أصبح يعرف باسم «الجنرال جافوهل» : أى الرجل الذى يقول : نعم لمن له

وهكذا فإن هتلر وجورنج كانا شاهدين على قران فرنر فون بلومبرج ، من إرنا جروهون . إلا أنه بينما ذهب العروسان لقضاء شهر العسل فى جزيرة كابرى إذا بحقيقة رهيبة تتكشف ، وهى أن العروس لها ملف فى بوليس آداب مدينة برلين ! فقد كانت (المارشالة) الجديدة لها نشاط قديم فى أحد صالونات التدليك فى العاصمة الألمانية ، وانتشرت هذه الشائعة ، وكانت فضيحة أكبر . وطلب هتلر من المارشال أن يطلقها ، ولكنه رفض . وعند ذلك أجبروه على الاستقالة من منصبه ، وظل يعيش فى بافاريا بعيداً عن أى عمل فى الجيش ، إلى أن انتهت الحرب .

ولقد كان متوقعاً أن يحتل منصبه فون فريتش ، وهو واحد من المدرسة العسكرية القديمة ، غير أن هتلر لم يوافق عليه ؛ لأنه لم يكن نازيًّا ، ولا يحب جنود العاصفة ، ولذلك فإنه أوصى به هيملر للتخلص منه ، فدبر له هذا فضيحة أخلاقية ، لم يلبث أن استقال بدوره فى إثرها .

* * *

وهكذا أصبح الجيش الألمانى خالياً من أى رجل قادر على أن يعترض رغبات الفوهرر ، وخاصة بعد أن اضطر ستة عشر جنرالاً آخرون إلى الاستقالة ، ونُقِلَ أربعة وأربعون من الرتب الصغرى إلى مراكز بعيدة .

وفى يوم ٤ من فبراير ١٩٣٨ قرر هتلر أن يتولى شخصيًّا القيادة العليا للقوات المسلحة ، وأعلن إنشاء ما أسماه بالقيادة العامة التى عهد برياستها إلى كيتل ، بعد أن أزاح من طريقه كذلك وزير الدفاع .

وعن طريق كيتل ضمن الفوهرر ولاء الجيش ، ذلك الجيش الذى لم يكن ينظر بعين الرضا إلى وجود جنود العاصفة والجستابو . وبدأ بالنسبة لكيتل العهد الذهبى ؛ إذ عين قائداً للجيش ، وأخذ يضع بنفسه الخطط لما أسماه « معارك الزهور » التى دخل بها النمسا والترويج .

لكن المعارك التى تلت ذلك لم تكن كلها « زهوراً » ؛ لأن كيتل أدرك أن الهجوم على بولندا سوف يترتب عليه تدخل بريطانيا وفرنسا ؛ مما جعله يبدى شيئاً من المعارضة لرأى هتلر الذى قال له : إن هاتين الدولتين لن تتدخلا .

وبعد ذلك جاء احتلال الدانمارك عام ١٩٤٠ ، وبعدها بلجيكا وهولندا . ومنهما تم غزو فرنسا . فلما سقطت هذه رقى كيتل إلى رتبة الفيلد مارشال ، ومعه كل من فون براوشيتش وفون

صوت مرتفع يصرخ به ، وقد انتهى إلى هذه النهاية نفسها قواد ألمان آخرون : منهم الجنرال باولوس ، والجنرال سيدليتز بعد معركة ستالينجراد ؛ فقد قالوا : نعم للسوفيت الذين كانوا يصرخون أعلى من صراخهم ، ثم عادوا إلى ألمانيا بعد أن أصبحوا شيوعيين عتاة

* * *

ويعتبر كيتل مسئولاً كذلك عن توقيعه أمراً مخزياً ، هو الذى قضى بإعدام ما بين ٥٠ و ١٠٠ من الروس فى مقابل كل جندى ألمانى يقتل غدراً فى الأراضى السوفيتية .

ومن يراجع (يوميات) الحرب التى سجلها الجنرال جودل يجد فيها عبارة لها مغزاها تقول : «لقد ألح كيتل على هتلر ؛ لكى يسمح بسحب القوات التى كانت مرابطة أمام موسكو فى شهر ديسمبر ١٩٤١ ، غير أن الفوهرر قاطعه ، وصرخ فى وجهه رافضاً ذلك ، ثم طرده من مكتبه ! » .

ويروى جودل أنه دخل على كيتل ، فوجده جالساً إلى مكتبه يكتب خطاب استقالته ، وقد وضع مسدساً محشوًّا بالرصاص أمامه ، فأخذ جودل المسدس ، وانصرف لشأنه بعد أن أقنع كيتل بسهولة بأن يظل فى منصبه مهما كانت الإهانات التى يوجهها إليه الفوهرر .

وهكذا استمر فى عمله إلى اللحظة التى أصدر فيها هتلر أوامره بأن يخرج من مقر المستشارية ؛ لكى يتولى القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة ، على حين احتفظ هتلر بقيادة القوات التى أصبح عليها أن تدافع عن برلين ، لكن الذى حدث بعد ذلك أن هتلر قد انتحر هو وإيفا براون .

ووقع كيتل يوم ٩ من مايو ١٩٤٥ وثيقة استسلام الجيش الألمانى فى (كارلسروه) ، ثم ظل متمسكاً فى محاكمة نورمبرج بموقفه وسلوكه اللذين اعتادهما ، إذ كان يقول : «وماذا كان فى استطاعتى أن أفعل سوى إطاعة الفوهرر ؟» لقد كان من رأيه أن الضابط الحق هو الذى لا يقف فى مواجهة رئيسه وقائده ، بل الذى يطيعه طاعة عمياء !

* * *

والواقع أنه فى أنظمة الحكم الدكتاتورية يمكن للقائد الذى يتلقى أمراً لتنفيذه ولا يكون مقتنعاً به ، أن يختار بحرية كاملة شيئاً بين ثلاثة : فهو إما أن يرفض تنفيذ الأمر ، وهذا معناه الموت له ، وإما أن يستقيل لكى يصبح مطارداً طوال حياته ، وإما أن ينتحر .

وقد اعترف كيتل بأنه فكر فى الاستقالة ثلاث مرات ، ولكن هتلر أفهمه أن الاستقالة فى

زمن الحرب تعتبر فراراً من الجندية ، وعقوبة ذلك الإعدام . ويقول : «فما الذى كنت أستطيع عمله ؟» .

إن كيتل أقر بأنه مذنب فى كل الاتهامات التى وجهت إليه ، ولم يكن يتطلع إلا إلى شىء واحد ، هو أن يموت كجندى : أى رمياً بالرصاص . غير أن هذا الأمل لم يتحقق له ؛ إذ حكموا عليه بالإعدام شنقاً ، الأمر الذى حز فى نفسه كثيراً ، وجعله يموت من داخله قبل أن يصعد إلى حيث الحبل الذى لفوه على عنقه .

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

كارل دوينيتس

من البحرية إلى قصر المستشارية

فى يوم ١٣ من أكتوبر ١٩١٨ وقع فى أسر القوات البريطانية العاملة فى البحر الأبيض المتوسط ضابط ألمانى شاب لا يزيد عمره على ستة وعشرين عاماً كان يتولى قيادة إحدى الغواصات الألمانية . وكانت الحرب العالمية الأولى توشك أن تضع أوزارها ، غير أن ذلك الضابط الألمانى الشاب الذى وقع فى الأسر لم يكن يشعر بالمرارة للهزيمة التى تنتظر بلاده ، وإنما كان يفكر فى المغامرة البحرية التى قام بها فى تلك الليلة ، ولم تأت كما كان يريد ، وكان اسم ذلك الضابط هو كارل دونيتس .

والواقع أنه كان قد اتفق مع قائد غواصة ألمانية أخرى على اللقاء فى عرض البحر أمام سواحل جزيرة صقلية ، لكى تهاجم الغواصتان قافلة بحرية ضخمة للحلفاء لإغراقها . غير أن عطباً أصاب الغواصة الأخرى ، فلم تجئ فى الموعد ، وعند ذلك قام كارل دونيتس بالهجوم بمفرده ، فطفا بغواصته ودخل بها وسط القافلة البريطانية ، ونسف سفينة منها ، ثم عاد وغطس تجنباً للمطاردة التى بدأتها سفن الحراسة .

ومرة أخرى طفا بغواصته على السطح ، ووجه طوربيداً إلى سفينة بريطانية ثانية ، ولكن غواصته أصيبت إصابة خطيرة ، فأصدر أمره بإغراقها حتى لا تقع فى أيدى العدو ، وقرر الاستسلام مع رجاله للإنجليز .

وقد تعلم فى تلك الليلة شيئين . الأول تلك الفعالية الرائعة للهجوم البحرى الليلى ، والآخر أن الغواصة يمكنها أن تعمل وهى طافية على سطح الماء ، لأنه يصعب رؤيتها ، وفضلاً عن ذلك لم يساوره أى شك فى أنه إذا كانت الغواصات المهاجمة اثنتين أو أكثر فإن النتيجة التى ستترتب على ذلك تكون أفضل .

وعاد كارل دوينيتس إلى وطنه بعد هزيمة ألمانيا ، ولكنه لم يهجر البحرية : ذلك أن الفكرة التى سيطرت عليه من أن الغواصات إذا استخدمت بالطريقة الصحيحة كانت الأدوات البحرية المثلى التى تنزل بالعدو خسائر فادحة ، ظلت هى الحلم الذى يريد أن يحققه .

ولم تكن معاهدة فرساى تسمح لألمانيا بأن تمتلك أى سفن تعمل تحت الماء ، ومع ذلك فإن دوينيتس استمر فى مهنته ، وظل عاملاً على السفن العائمة . فلما كان عام ١٩٣٥ استطاعت ألمانيا بالاتفاقية البريطانية الألمانية الخاصة بالبحرية أن تدخل على أسطولها عدداً من الغواصات . إلا أنه حتى قبل توقيع الاتفاقية كانت البحرية الألمانية قد بدأت بالفعل فى وضع الخطط لبناء غواصات صغيرة طراز (يو بوت) حمولة ٢٥٠ طنًّا لأغراض التدريب أو القيام بعمليات ساحلية ، وقد عهد إلى كارل دوينتيس بمهمة إعادة بناء أسطول الغواصات .

ولم يكن الوقت ملائماً . ففيما عدا البحرية الإيطالية والبحرية السوفيتية اللتين كانتا تمتلكان عدداً من الغواصات ، فإن أساطيل الدول الأخرى لم تنظر بعين الاعتبار إلى السفن التى تسير تحت الماء . وكانت بريطانيا ترى أن عهد الغواصات قد انتهى ، وخاصة بعد اكتشاف أجهزة التعرف على أماكن الأجسام الغاطسة فى البحار من على بعد كبير ، ثم إن طريقة تشكيل السفن فى قوافل حولها حراسة قوية كما كان يجرى خلال الحرب العالمية الأولى ، بدا لأركان الحرب أنه يصعب مهاجمتها . وقد انتشرت هذه الآراء حتى فى الدوائر البحرية الألمانية .

ومن هنا كانت المهمة التى اضطلع بها كارل دوينتيس الذى كان لايزال ضابطاً مجهولاً فى البحرية الألمانية بالغة الصعوبة : فقد كان عليه أول كل شىء أن يمحو من رجاله الشعور بعدم الثقة فى أنفسهم ، ويعمل على تثبيت فكرته من أن الغواصة سلاح هجومى بالغ الفعالية فى الحرب البحرية ، وأنها أفضل أداة يمكن تصورها لإطلاق الطوربيد . وكان عليه بعد ذلك أن يمضى إلى الأمام بأفكاره ، لكى يطور التكتيك الجديد فى الهجوم البحرى ، وهى الأفكار التى أنضجتها الأعوام الماضية التى قضاها فى التأمل ، بعد تجاربه فى تلك الليلة المشهودة من عام ١٩١٨ .

* * *

ومن بين ضباط الغواصات فى البحرية الإمبراطورية الألمانية القديمة الذين اشتركوا فى الحرب العالمية الأولى – غير كارل دونيتس – مهندس يدعى تيدش ، ضمه دوينيتس إليه ، وبدأ الإثنان معا فى تدريب القيادات القادمة فى «معركة الأطلنطى» .

وكان الإنجليز قد بالغوا فى نتائج الاكتشاف الجديد ، فقالوا إنه يتعرف على مكان أية غواصة وهى على بعد عدة آلاف من الأمتار . وقد أدرك كارل دوينيتس أنهم يقصدون بإذاعة هذه الأنباء تخويف الأعداء . ولذلك فإنه قرر أن تكون المسافة القصوى التى تطلق منها غواصاته قذائفها على السفن المعادية ٦٠٠ متر فقط .

ولقد كانت لدى قائد الغواصات الألمانية الجديد أفكار محددة تماماً : فهو يرى أن الغواصة لها هيكل صغير ، مما يجعل من الصعوبة بمكان رؤيتها وهى طافية بين الأمواج .

ومن ناحية أخرى فإن عدم ارتفاعها كثيراً فوق سطح الماء لا يتيح لها إلا مجالاً صغيراً للمراقبة والاستطلاع ، فضلاً عن أنها بطيئة . وترتيباً على ذلك ، فإنها لا تصلح لعمليات المراقبة والاستصلاح ، فى حين أن هذه بصفة عامة واحدة من المهام التى يعهد بها إلى الغواصات . إنها قد تصلح لبث الألغام ، لأنها يمكن أن تقترب من سواحل الأعداء بغير أن يتمكن أحد من اكتشافها ، ولاسيما أنه فى تلك الآونة لم تكن الطائرات قد تطورت إلى الصورة التى أصبحت عليها فى الأربعينيات ، كما أن الرادار لم يكن قد اكتشف بعد .

* * *

كانت مهمة الغواصة إذن هى الهجوم على البواخر التجارية ، والقوافل البحرية التى تضم أكثر من سفينة . وهكذا نشأ فى ألمانيا حوالى عام ١٩٣٥ ذلك التكتيك الذى عرف باسم « قطيع الذئاب » : أى مجموعة الغواصات التى تلتهم السفن التى تكون سائرة معاً . وفى خريف عام ١٩٣٧ ، طور كارل دوينتيس بعد تدريبات كثيرة هذا التكتل ، فأصبح هجوماً تقوم به الغواصات على شكل دائرى ، مما أسفر عن نتائج رائعة .

على أن دوينتيس قد قابل صعاباً جمة فى جعل الدوائر العليا فى البحرية الألمانية تتقبل أفكاره الجديدة ، إذ كانت لاتزال مقيدة بمفاهيمها التقليدية . وكانت تخشى أن تتعرف القوافل على أماكن الغواصات المهاجمة قبل الأوان ، ومن ثم تتمكن من ضربها .

وكان هناك سبب آخر للخلاف ، هو نوع الغواصة الذى يقوم عليه سلاح الغواصات الألمانى الجديد . ووفقاً للأفكار البحرية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت لدى القيادة العامة الألمانية ، فإن السفينة الكبيرة التى تحمل عدداً كبيراً من المدافع والطوربيدات ، والتى لها القدرة على العمل فى مجال واسع ، هى الأفضل .

أما كارل دوينتيس فإنه كان يرى أن القيمة البحرية والحربية للغواصة لا ترتفع بزيادة

حجمها ، بل على العكس بتقليل هذا الحجم : ذلك أنه كلما كبر حجمها كانت فى حاجة إلى وقت أكبر لكى تغوص فى الماء ، كما أن كبر الحجم يجعل درجة الميل فيها كبيرة إلى درجة خطيرة ، ولا يمكن معه وضعها فى أعالى البحار بحيث تتخذ موقع المراقبة بالبيروسكوب .

وكان رأى دوينتيس أن الحجم المثالى للغواصة يجب ألا يتعدى ٥٠٠ طن ، لتصبح ٧٠٠ طن فى كامل حمولتها .

على أنه لم يستطع أن يفرض هذا الرأى على رؤسائه الكبار الذين تجلت معارضتهم له فى المعدل المنخفض لبناء القطع الجديدة . والواقع أن المصانع الألمانية لبناء السفن لم تسلم له سوى ١٤ غواصة فى عام ١٩٣٥ ، وواحدة وعشرين فى عام ١٩٣٦ ، وغواصةواحدة عام ١٩٣٧ ، وتسع فى عام ١٩٣٨ ، وثمان عشرة فى عام ١٩٣٩ .

ورأى دوينتيس بثاقب نظره أن الحرب مع بريطانيا تقترب ، ولم يكن موافقاً على ذلك ، ولكنه كرجل عسكرى ملتزم بمهنته ، راح يستعد لهذه الحرب . لقد نقل ميدان تدريبات غواصاته إلى المحيط الأطلنطى ، ولكنه عندما أراد القيام بعدد من المناورات الكبرى فى هذا المحيط فى أواخر عام ١٩٣٧ لم تصرح له القيادة العليا بذلك ، حتى لا يزداد ثقل الموقف السياسى الذى نشأ بعد الحرب الإسبانية .

وفضلاً عن ذلك فإنه حينما طلب بناء سفينة قيادة تزود بأجهزة اتصال – لكى ينسق منها أسطول الغواصات – رفضوا فى البداية هذا الطلب ، ومع ذلك ظل يعمل ، حتى انتهى فى شتاء ٣٨– ١٩٣٩ من وضع تكتيك الهجوم على قوافل الأطلنطى ، وأدخل عليه التحسينات النهائية .

ولو أن خبراء البحرية عادوا اليوم بعد مرور أربعين عاماً إلى هذا التكتيك ودرسوه وحللوه ، لوجدوا أن نظريات دوينتيس كانت كلها سليمة : فلقد أقرت القيادة الألمانية العليا برنامجاً واسع النطاق لإعادة بناء البحرية يقضى بأن يصبح لألمانيا أسطول ضخم من السفن العائمة و٢٣٣ غواصة فقط .

وكان الأميرال رايدار قائد البحرية يقول : إن الغرض من هذا الأسطول هو مهاجمة خطوط المواصلات البريطانية فى المحيط الأطلنطى ، باعتبارها الشرايين الحقيقية والحيوية لإنجلترا . أما قائد الغواصات دوينتيس فلم يكن يرى ضرورة لبناء عدد كبير من السفن

العائمة ، إذ إنها مضيعة للكثير من الأموال التى يجب أن تخصص للغواصات .

ومن تقديراته الإستراتيجية أن الوضع لا يختلف فى المجال البحرى وما كان عليه فى الحرب العالمية الأولى عندما كان الأسطول الألمانى الكبير فى أعالى البحار عاجزاً عن الحركة : فلقد كانت السفن الألمانية فعلاً واقفة فى قواعد يسهل على العدو السيطرة عليها ومراقبتها ، ولم تستطع الخروج إلى الأطلنطى إلا بصعوبة ، ثم إنه من غير الممكن من ناحية أخرى فرض المعركة البحرية الحاسمة على بريطانيا فى بحار أخرى ، وبغير تعريض خطوط الأطلنطى ؛ كما تبين من الأحداث التى وقعت بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨ :

فالغواصات وحدها إذن هى التى تستطيع الخروج إلى المحيط بسهولة أكبر ، فتقطع خطوط هذه المواصلات ، لقد فطن الألمان إلى ذلك فى وقت متأخر من الحرب العالمية الأولى ، والآن ها هو ذا كارل دونيتس يحاول استرعاء أنظار المسئولين إليه فى وقت مبكر ، فلكى ينجح فى مهمته ، تلزمه ٣٠٠ غواصة منها : مائة مشتركة فى العمليات ، ومائة تحت الإصلاح ، ومائة قادمة فى الطريق أو ذاهبة إلى الورش .

* * *

وبعث دونيتس فى شهر يونية ١٩٣٩ بمذكرة إلى القائد العام للبحرية ، وهو أمر غير عادى من ضابط لم يبلغ بعد رتبة الأميرال ، يبلغه فيها الأسباب التى تحمله هو ورجاله على الاعتقاد بقرب وقوع الحرب مع بريطانيا ، ويطلب منه أن يرفع ذلك إلى هتلر . ولكن القيادة العامة ردت عليه فى يوم ٢٢ من يوليو وأكدت فى ردها أنه ليس هناك أى احتمال لنشوب هذه الحرب ، وأن فى أستطاعته أن يقوم بإجازة . إلا أنها عادت فى يوم ١٥ من أغسطس ، واستدعته على عجل ، وأصدرت إليه أوامرها بتعبئة أسطول الغواصات .

وقد دخلت ألمانيا الحرب ولديها ٥٦ غواصة ، منها ٢٢ فقط فى حالة تجعلها قادرة على الاشتراك فى عمليات الأطلنطى . وإذ بدأت الحرب تشتعل تقررت خطة لبناء الغواصات تقضى بالانتهاء من ٧ وحدات فى عام ١٩٣٩ ، و ٤٥ وحدة عام ١٩٤٠ ، و ١٢٠ وحدة عام ١٩٤١ .

أما دونيتس فقد كان لا يزال مصرا على أن تكون تحت إمرته ٣٠٠ غواصة لا تنقص واحدة ، وقد ظل حتى النهاية مقتنعاً بأنه لو أن ألمانيا دخلت الحرب وفى حيازتها مثل هذا العدد – لتغير وجه التاريخ .

والواقع أنه لم يكن واهماً . فقد ثبت أنه من الرجال القلائل الذين توقعوا أن تكون الحرب العالمية الثانية طويلة ، وكان يشك فى أنها ستنتهى بالنصر لألمانيا ، ومن أجل ذلك كان واضعو الإستراتيجية فى الحزب النازى لا يميلون إليه .

وفى هذه الأثناء بدأت غواصات دوينتيس عملها فى مهاجمة القوافل التجارية ، وفى الوقت نفسه التعرض للأسطول البريطانى .

وقد أصيب العالم كله بذهول عميق عندما دخل ضابط ألمانى برتبة قائد تشكيل بلة ١٣ من أكتوبر ١٩٣٩ بغواصته التى تحمل رقم (ى ٤٧) إلى قاعدة (سكابافلو) التى كانت تعتبر قلعة منيعة ، فضرب بطوربيداته المدمرة البريطانية الضخمة (رويال – أوك) ، وأغرقها ، وهى العملية التى وضع جميع تفاصيلها كارل دوينتس .

وحصل دوينتيس فى مقابل هذا النصر على رتبة نائب الأميرال .

ولقد مرت المعركة التى شنتها الغواصات الألمانية فى الأطلنطى بأحداث مختلفة ، وحقق فيها الألمان نتائج أكبر عامى ١٩٤٠ ، و١٩٤١ ، وقد أتاح احتلال جانب من الأراضى الفرنسية أن استخدم الألمان قواعد مريحة على المحيط ، مما أعطى ميزة ضخمة لقيادة الغواصات التابعة لكارل دوينتيس . الذى كانت خطته أن يغرق من سفن الأعداء أكثر مما تخرجه مصانعهم منها .

والواقع أن هذا التكتيك كان بالغ الفاعلية : فقد دمر لبريطانيا يوم ١٧ من سبتمبر ١٩٣٩ حاملة الطائرات «كوراجيوس» وأغرقها ، كما أغرق يوم ١٤ من أكتوبر من العام نفسه المدمرة (رويال أوك) ، وفى يوم ٨ من يونية أغرق طرادين بريطانيين فى المياه النرويجية ، ومعها حاملة الطائرات (جلوريوس) ، فضلاً عن قطعتين من سفن الطوربيد .

وفى منتصف شهر أكتوبر هاجمت الغواصات الألمانية قافلة من ٧٩ سفينة ، فأغرقت ٣٢ منها ، وفى يوم ٢٤ من مايو ١٩٤١ اشتركت قطعتان بحريتان ألمانيتان هما المدمرة (بسمارك) والبارجة (الأمير يوجين) فى إغراق البارجة البريطانية (هود) وإعطاب المدمرة (برنس أوف ويلز) .

وفى المحيط الهندى أغرقت الغواصات الألمانية يوم ١٩ من نوفمبر ١٩٤١ البارجة البريطانية (سيدنى) كما أن الغواصة (ى ٨١) أغرقت فى البحر الأبيض المتوسط حاملة الطائرات (آرك رويال) ، وبعدها المدمرة (بارهام) .

الأميرال دونيتس الذى عينه هتلر يوم ٣٠ أبريل ١٩٤٥ ليخلفه فى رئاسة ألمانيا . ويبدو هنا مع ألبرت سبير والجنرال جودل بعد اعتقالهم

كان الماريشال روميل يتمنى لو أن مدرعات القطاع الأوسط سارعت بالانتشار على السواحل الفرنسية قبل يوم هبوط قوات الحلفاء

أما فون رونشتت فإنه عمد إلى حشدها بعيدا عن الساحل ، لكى تجئ بعد ذلك عند وقوع الهجوم

وبلغ مجموع السفن التى أغرقتها الغواصات التى قادها كارل دونيتيس ضد بريطانيا ما حمولته ٧٤٣٣٢١ طنا ، وعددها ١١٨ سفينة .

* * *

ولكن الأمور تغيرت مع مطلع عام ١٩٤٢ ، ذلك أن التحسينات المستمرة التى دخلت على أساليب الدفاع البحرى ، والعدد الكبير من السفن الذى كانت تخرجه المصانع لتحلفاء ، والتقدم الذى أحرزته الطائرات ، كل ذلك كان من شأنه أفول نجم حرب الغواصات .

ولم يفلح فى بعث الحياة إليها من جديد أن دونيتيس الذى كان نائباً للأميرال قد رقى عام ١٩٤٣ إلى رتبة الأميرال البحرى ، ثم عين قائداً أعلى البحرية ، بدلاً من رايدر الذى دخل فى صدام مع هتلر .

لقد ظل دونيتيس عبقرية إستراتيجية ، ولكن الزمن قد تغير ، كما أن ألمانيا كانت فى طريقها إلى الهزيمة . والواقع أنه كان قد تنبأ بها علناً منذ عام ١٩٣٩ ، عندما قال فى خطاب له : إن كل ذلك سوف يعاد عمله مرة أخرى .

ولقد كان هتلر يأمل – عندما عينه قائداً أعلى للبحرية – أن يستطيع أن يحقق معجزة ، كما كان يعترف بكفاية ذلك الأميرال الذى لم يكن الزعماء الآخرون يحبونه . ومن المؤكد أنه لم يكن من قبيل المصادفات أن عينه فى آخر أيامه ، لكى يخلفه فى رياسة الدولة .

* * *

إن رجال كارل دونيتيس كانوا ومازالوا يتفانون حبًّا فيه ، وكانوا يسمونه (بابا دونيتيس) . فضلاً عن أن جميع البحريين فى أساطيل العالم يحترمونه ، ويعجبون بالأساليب التى أدخلها على الحرب فى البحار .

ومن أجل ذلك فإنهم شهدوا لمصلحته فى محاكمات نورمبرج برغم أنه قد أصبح رئيساً للرايخ الألمانى بعد موت هتلر وهزيمة ألمانيا .

وفى شهر أكتوبر ١٩٤٦ لم تجد المحكمة أنه ارتكب أية جرائم أخلاقية ، فاكتفت بأن حكمت عليه بالسجن عشر سنوات .

الفصل السادس عشر

فرانتس هالدر

الرجل الذى قال : (لا) لهتلر !

فى أواخر شهر أغسطس ١٩٣٨ ، صعد ذلك الضابط القادم من بافاريا ، وهو فرانتس هالدر ، ليصبح شخصية عظمى فى الأتون العسكرى فى الرايخ الثالث : فلقد حدث أن خلا قبل ذلك ببضعة أيام ، منصب رئيس الأركان العامة للجيش الألمانى ، بعد أن أرغم الجنرال لودفيج بيك الذى كان يشغله على الاستقالة ، لأنه تجرأ واعترض على نظريات هتلر فى السياسة الخارجية .

وهكذا استدعى فون براوتشتس القائد العام للجيش يوم الأول من سبتمبر من ذلك العام – بعد فترة صمت يدعو إلى الحرج – الضابط هالدر إلى مكتبه ، وأبلغه أنه بناء على رغبة الفوهرر يعهد إليه بهذا المنصب .

وبهذا التعيين صعد هالدر إلى قمة مهنته العسكرية ، غير أنه كان يعرف تماماً أن المقعد الذى يجلس عليه متعب إلى أقصى الحدود : فلقد كانت هناك مؤامرة تحاك داخل الأركان العامة تستهدف انتزاع سيطرة هتلر عليها ، وكان هو نفسه ، فرانتس هالدر الذى أصبح الرجل رقم اثنين فى الجيش ، ضالعاً فى هذه المؤامرة .

* * *

كان هتلر فى تلك الأيام يقامر فى برلين على مصير أوربا ، ويوشك أن يجر ألمانيا إلى دوامة الحرب : ذلك أن الفرهرر بدا مصمماً أكثر من أى وقت آخر على أن يحقق « مشروعاته الكبرى التى أوردها فى كتاب « كفاحى » الواحد إثر الآخر ، بعد أن جعل من هذا الكتاب إنجيلا للحركة النازية . وكان أول هذه المشروعات استكمال خطته لتوحيد جميع الشعوب التى تنتمى إلى العنصر الجرمانى .

وبعد أن قام بضم النمسا فى صيف ١٩٣٨ قرر أن يغزو تشيكوسلوفاكيا ، وأن يحتل بالقوة إقليم السوديت بحجة أن ثلاثة ملايين ألمانى يعيشون فيه ، وفى الوقت نفسه حاول إنجاز مخطط سياسى ظل يفكر فيه السنين الطوال ، ألا وهو السيطرة الكاملة على الضباط العظام الذين يحتلون قمة الجهاز العسكرى الألمانى .

ولقد كان جانب كبير من الجنرالات قد حنّوْا رءوسهم أمام رغباته ، إلا أنه كانت لاتزال هناك بعض الدوائر التى مازال الفوهرر يلقى لديها بعض المقاومة ، ومن بين هذه القلاع تأتى على وجه التحديد هيئة أركان حرب الجيش ، والقيادة العامة التى هى رمز التقاليد والهيبة الكبرى التى يتمتع بها السلاح فى جميع أرجاء هذه البلاد .

فهنا – على القمة – ضباط تربوا على النظام البروسى الصارم ، ولم يتأثروا بعد بجاذبية هتلر وسحره ، ومن ثم فإنهم لا يحبون أن تتدخل السياسة فى الجيش ، وفضلاً عن ذلك فإنهم لا يتحملون تلك العادة التى جعلت هتلر ينتهز أى فرصة لكى يبدى اهتمامه بالشئون العسكرية المجردة .

ولقد فطن الفوهرر إلى كل ذلك ، وكان يعرف أنه فى اليوم الذى يمكنه فيه أن يثق ثقة عمياء فى هؤلاء الجنرالات مثلما يثق فى الضباط الذين رفعهم الحزب إلى أعلى الرتب – فإن الالتحام بين القادة العسكريين والقادة السياسيين سوف يكون كاملا .

غير أنه كان بعيدا تماما عن التفكير فى أن بعض هؤلاء الجنرالات يتآمرون عليه ، أو أن يكون لديهم الشجاعة أن يعترضوا صراحة على ما ينادى به من نظريات .

* * *

وبرغم أن النقد الموجه إلى هتلر كان يدور همساً فى دهاليز هيئة أركان الحرب ، فإنه بدأ يرتفع حتى وصل إلى الأسماع فى الأيام التى سبقت مباشرة تعيين هالدر نتيجة لما تردد عن قرب الشروع فى غزو تشيكوسلوفاكيا .

وكان هناك ضابط عظيم ظهر فى دور البطولة خلال صدام مكشوف مع هتلر . هو بالذات الجنرال (بيك) . ذلك الرجل الذى يرأس مجموعة من الضباط المثقفين داخل وخارج هيئة الأركان العامة الذين لم يكونوا فقط يخشون السيطرة المطلقة لهتلر ، وإنما كانوا يفكرون كذلك فى وضعه سياسيا خارج اللعبة .

وحاول الجنرال (بيك) الذى كان مقتنعاً بأن مشروع غزو تشيكوسلوفاكيا قد يترتب عليه

دخول كل من فرنسا وإنجلترا الحرب ضد ألمانيا التى يعرف هو تماماً أنها لم تستعد بعد لمواجهة أوربا كلها – حاول أن يجعل هتلر يتراجع عن تنفيذ هذا المشروع ، فلما أدرك أن ما يحاوله أمر مستحيل ، راح يقنع زملاءه لكى يقدموا استقالة جماعية .

غير أنه كان واهماً ، إذ إن موقفه هذا جعل الغضب يستولى على هتلر . وفى يوم ٢٧ من أغسطس ألقى (بيك) خطابا حاسماً على زملائه ومعاونيه ، ركز حديثه فيه على الاستقلال التاريخى لهيئة الأركان ، وقدم بعده مباشرة استقالته . وذهب هذا الرجل فى صمت تاركاً وراءه ميراثا عسيرا لجنرال هالدر الذى ماكاد يستقر على مقعده فى مكتبه حتى وجد نفسه إزاء مهام عسكرية جسيمة ، بالإضافة إلى المؤامرة التى أشعل جذوتها (بيك) .

وكان هالدر فى تلك الفترة – وهو الجندى بغريزته وبتقاليد أسرته – قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ، وأصبح واحداً من ألمع الضباط العظام فى الجيش الألمانى ، ولم يكن مظهره يملأ العين كما وصفه المؤرخ البريطانى تيلفورد تايلور فى كتابه «السيف والصليب المعقوف» : فقد كان يضع عوينات ، وشعر رأسه كأنه الفرشاة ، وله جسم ضئيل . إلا أن تاريخه العسكرى كان حافلاً ببعث الحسد فى القلوب ، وينطوى على عبقرية حربية فذة .

فلقد شب فى ظل عدة هيئات لأركان الحرب ، فاستطاع متابعة تطورات الأحداث التى مرت بها بلاده ، ودرسها عن مراقبين كبار ، كما أنه فضلاً عن قدراته العسكرية الفائقة – كانت له حساسية سياسية مرهفة ، وفوق كل ذلك فقد كان ينحدر من أسرة ظلت ثلاثة قرون تقدم أبناءها ضباطاً للجيش ، بما فى ذلك والده الذى كان جنرالاً له شهرته .

* * *

وتقع مدينة (فور تسبورج) حيث ولد هالدر يوم ٣٠ يونية ١٨٨٤ ، فى قلب بافاريا ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره – وكان قد أتم دراسته الثانوية – التحق باللواء الثالث مدفعية المرابط فى ميونيخ ، ثم التحق قبل عام ١٩١٥ بالكلية الحربية بها .

وانتقل بعد تخرجه فيها إلى أركان حرب الأمير (روبيرت) أمير بافاريا ، وبرغم محاولاته خلال الحرب العالمية الأولى لكى ينتقل إلى الجبهة ، فإنه أمضى خدمته العسكرية فى القيادات المختلفة ، ولكنه كان جالساً دائماً خلف أحد المكاتب ، وهو الأمر الذى جعل هتلر فيما بعد يعايره به .

وأصبح هالدر فى عام ١٩٣١ كولونيلاً ، وبعدها بثلاث سنوات حصل على رتبة ميجور

جنرال . وقد عين قائدا للفرقة السابعة فى عام ١٩٣٥ . ولم تكد تمضى بضعة أشهر حتى رقى إلى رتبة الجنرال . وانضم عام ١٩٣٦ إلى هيئة أركان حرب الجيش فى برلين ، وشغل منصب مدير العمليات ، ثم رئيساً لأركان الجنرال براوشتس .

وعلى ذلك فإن هالدر – برغم ذكائه وحيويته – لم يكن رجل حركة ميدانية ، وإنما كان عسكريّ تقليديّا من ضباط المكاتب .

وخلال عمله هذا كان زميلاً لضباط ذوى شهرة كبيرة مثل فون لوسوف . وصديقاً حميما لروهم قائد فرق الهجوم الذى قتلوه ليلة (السكاكين الطويلة) ، ثم عمل تحت إمرة فون رايشناو النازى المتطرف . ولكنه الجندى العبقرى .

ثم إن هالدر كان نتاجا أصيلاً لطبقة أو لصفوة إلى جانب أنها تتمتع فى ألمانيا بمكانة عظيمة ، فإن الكثير من الألمان الذين كانوا فى ذلك الوقت يشعرون بالقلق على مستقبل بلادهم ، كانوا يضعون فيها كل ثقتهم .

وعلى غرار الجنرال (بيك) لم يتحمل هالدر تدخل هتلر فى شئون هيئة أركان الحرب . إنه كان على معرفة قديمة بالفوهرر . ويكن له فى الوقت نفسه شعوراً شديدا بالإعجاب والحذر . وفى هذا الصدد يقول ريتشارد بريت – سميث فى كتابه (جنرالات هتلر) :

إن شخصية الفوهرر بدت لهالدر غير عادية منذ البداية ، فهو فى رأيه عبقرى ومخبول فى الوقت نفسه » ! .

أما هتلر فإنه لم يتردد من جانبه فى أن يضعه على قمة القيادة .

* * *

كانت المهمة الخطيرة الأولى التى تلقاها هالدر من هتلر ، هى أن ينقح الخطط النهائية للعملية « الخضراء » ، ومعناها غزو تشيكوسلوفاكيا . وعند ذلك فإنه وجد نفسه إزاء اختيار رهيب بين الأمرين .

والواقع أنه بالرجوع إلى الوثائق والمذكرات ، وإلى شهادة الشهود فى محاكمة نورمبرج عام ١٩٤٦ حيث أدلى المنهزمون بكل ما فى جعبتهم إلى المنتصرين ، وظهرت على السطح أساطير كثيرة عن « مقاومة » الجنرالات لهتلر . وكذلك بالرجوع إلى (يوميات) هالدر نفسه وفيها تفاصيل دقيقة عن أحداث كثيرة مما جعل منها مصدراً ثميناً للمؤرخين – بهذا الرجوع يتضح أن رئيس هيئة الأركان الألمانية الجديد قد قطع على نفسه وعداً للجنرال (بيك) بأن يمضى قدما

فى تنفيذ الاتفاق الخاص بإبعاد هتلر عن التدخل فى شئون هذه الهيئة .

على أن العقدة الأخلاقية التى وجد هالدر نفسه إزاءها فى ذلك الوقت ، هى أنه كان عليه أن يختار بين ولائه لزملائه المنشقين على سلطة هتلر ، وبين الولاء للرايخ الألمانى ، أى بين التمسك بما اقتنع به وبين احترامه لواجبه كجندى .

ووفقاً لما أدلى به هالدر فى نورمبرج ، فإنه قرر أن يفى بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وأن يمضى مع زملائه فى المؤامرة .

من هنا فإن هالدر ماكاد يستقر به المقام فى منصبه الجديد حتى راح يتعجل الأمور ، ويوثق الاتصال بالضباط الآخرين الضالعين فى المؤامرة ، ومن هؤلاء رجال مثل الجنرالات (شاشت) ، و (أوستر) ، و (جيزيفيوش) ، و (فيتزليبن) ، وهذا الأخير هو الجنرال الذى يتولى قيادة قوات المشاة المرابطة فى برلين ، ومن هؤلاء أيضاً (هويبنر) و (بروكدوروف) قائد قوات بوتسدام ، و (شولنبورج) و (هلدورب) قائد بوليس برلين .

ولم يكن لهؤلاء المتآمرون يفكرون فى اغتيال هتلر ، وإنما فى وقفه بأى طريقة ، ومحاكمته ، وإبعاده عن السلطة ، وذلك لإمكان تجنب نشوب الحرب .

وقد تطلبت المؤامرة أن يكون هتلر فى برلين ؛ كما أنه كان يجب الشروع فى تنفيذها فى اللحظة التى يخرج فيها من دار المستشارية الأمر بالهجوم على تشيكوسلوفاكية . ونظرا إلى أن هالدر كان يحكم منصبه فى القيادة أكثر الضباط علماً بتطورات الموقف — فإنه كان الرجل المناسب لاتخاذ القرار الأخير .

ومن وراء الكواليس كان يقف كل من (بيك) و (جويردنر) و (بوبيتس) و (فون هامر شتاين) الذين كانوا سيقومون فى حالة نجاح الانقلاب بالاستيلاء على السلطة الحكومية ، ثم يتولون بعد ذلك قيادة الرايخ .

* * *

ووقع الصدام الأول بين هالدر وهتلر يوم ٩ من سبتمبر ١٩٣٨ فى نورمبرج ، خلال اجتماع استمر منعقداً من الساعة العاشرة مساء حتى الرابعة من الصباح التالى :

فلقد وقف هالدر إلى جانب رئيسه فى القيادة فون براوتشيتش ، يشرح الخطة النهائية لغزو تشيكوسلوفاكيا ، فقال : إن فى الإمكان إحراز نصر سريع بإجبار «العدو» على الانسحاب إلى سلوفاكية . إلا أن هذا الانسحاب يجب أن نجيء نتيجة له «حركة كماشة» تقوم بها قوات

الجنرال رونشتت فى الشمال . وقوات الجنرالين ليت وليست فى الجنوب . وعلى أن يقوم الجنرال رونشتت بعد يومين من الهجوم بالاندفاع حتى (أومونيتز) .

ولكن هتلر اعترض على هذه الخطة . لقد وافق فقط على «حركة الكماشة» ، إلا أنه قال إنها لا ينبغى أن تكون هى المفتاح الإستراتيجى الوحيد لإنزال الهزيمة بالقوات التشيكية . وكما اعتاد قبل ذلك ، فإنه تناول قلماً . وراح يخطط به ويعدل فى التصميمات المرسومة على الخرائط . ويغير خطط الهجوم . ومن بين ما فعله فى هذا الشأن أنه انتزع فرقتين محمولتين من قوات رونشتت وليت ، لكى يدعم قوات ريشناو المقرب إليه ، والذى كان عليه أن يتقدم إلى الشرق نحو براغ .

ويقول تيلفورد تايلور «إن هذا الاجتماع كان بداية لأول تدخل خطير من جانب هتلر فى دائرة التكتيك العسكرى . وبقدر ما حافظ هالدر على هدوئه ، فإنه خرج منه وقد بدا عليه الغضب .

وفى آخر ذلك الشهر بدأ يعد اجتماعات أخرى بين القيادات المختلفة فى هيئة الأركان . تمت خلالها تعديلات جديدة . إذ بدا مر الغزو يوشك أن يصدر .

وتكاثفت بين لندن وباريس وبرلين النداءات والمبادلات الدبلوماسية . وحاول شمبرلين ودلاديه وروزفلت ثنى هتلر عن اعتزامه .

أما هالدر فقد كان من جانبه مستعداً للبدء فى تنفيذ المؤامرة . لولا أن حدث فجأة يوم ٢٩ من سبتمبر أن أعلن عن لقاء (الأربعة الكبار) فى ميونيخ . حيث وضع هتلر على بساط البحث مشكلة السوديت بطريقة وضحت فيها رغبته فى الابتزاز . ولم تكن فرنسا ولا بريطانيا راغبتين فى دخول الحرب ، فتوصل الأربعة الكبار إلى اتفاق فجائى . خيل معه أن السلام قد اصبح مضموناً . وأن الحرب لن تنشب فى أوربا .

وتنفس هالدر وجنرالات المؤامرة الصعداء ، فقد تحقق لهم الهدف الذى كانوا يسعون إليه بغير أن يحركوا إصبعاً واحدة . ومن ثم فإنهم وضعوا داخل الأدراج خطة المؤامرة .

* * *

هذا هو ما روى بعد الحرب ، ولكن هل هذه هى الحقيقة التاريخية ؟

إن نقول بأنه كانت هناك مؤامرة فى عام ١٩٣٨ ضد هتلر . يقر به أكثر المؤرخين دقة . إلا أن أغلب هؤلاء المؤرخين يقولون : إنها كانت مؤامرة غير مدروسة جيدا . ويصعب أن

تكلل بالنجاح . ولكن ما الذى جعل «مؤامرة هالدر تفشل» ؟

هل اكتفى حقيقة بمجرد إعلان اتفاق ميونيخ لوضع خطة المؤامرة فى الأدراج ؟ وهل كان زعماء المؤامرة مستعدين لها حقا أو أنهم لم يجدوا فى أنفسهم الشجاعة لتوجيه ضربتهم ؟ .

لقد كانت هناك دلائل تدعو إلى الحذر ، كان يمكن أن تبرر مثل هذه الحركة . كما أن كثيرين قد كتبوا — مثل تاليور — يقولون : إن انقلاب عام ١٩٣٨ يدين بالكثير لعبقرية هالدر. غير أن هذا القول لا يعدو كونه واحداً من التفسيرات الكثيرة فى هذا الصدد ، أما الحقيقة المجردة الخالصة فقد دفنت إلى الأبد ، وأما ما هو مؤكد بعد اجتماع ميونيخ فهو أن هالدر قد أصبح أكثر حذراً ، وابتعد عن صفوف المتآمرين ، ولو أنه لم يستطع قط أن يضع نهاية لما يضنيه معنوياً .

وخلال تلك الفترة كانت تجرى فى ألمانيا النازية أحداث خطيرة . منها : الحملة ضد اليهود . والسباق مع الزمن لتكوين أكبر قدر من مخزون الأسلحة . وإبعاد كل ما تحوم حوله الشبهات عن مراكز السلطة .

وفى الأول من أكتوبر عام ١٩٣٨ بدأت قوات (البانزرت) أو المدرعات الألمانية هجومها ، فطوقت مورافيا وبوهيميا ، وبعد ذلك بخمسة أشهر ، إذا بالحصار الكامل مضروب حول تشيكوسلوفاكيا التى لم تلبث أن سقطت ، وأصبح إقليم السوديت جزءاً لا يتجزأ من الرايخ .

وإذ كان هالدر مدركاً تماماً من الطريق الذى شرعت ألمانيا تسير فيه أن الحرب العالمية قادمة ، فإنه بدأ يعيد تنظيم قيادته العامة ، فقسمها اثنتى عشرة منطقة . وبينما كان هتلر يعود إلى المقامرة على المستوى الخاص بالسياسة الخارجية ، فيضع على بساط البحث مشكلة دانزيج ، انصرف هالدر بكليته إلى وضع «المشروع الأبيض» أى خطة غزو بولندا . وكثيراً ما شوهد هالدر وبراوشيتش فى تلك الأيام مع هتلر ، كما أنه كان يحضر دائما الاجتماعات الهامة التى ظلت تعقد ، حتى ذلك الاجتماع الحاسم يوم ٢٢ من أغسطس ١٩٣٩ فى (أبر سالزبرج) حيث المقر الجبلى للفوهرر ، وفيه تقرر مصير بولندا . وبعد ذلك ، اندلعت الحرب العالمية الثانية .

* * *

كانت تلك بالنسبة لكل من هالدر وبراوشيتش أياماً قاتلة : فلقد كان عليهما قبل إعلان

لتعبئة العامة أن يعيدا النظر فى خطط الهجوم . وأن يتخذا قراراتهما بعد الاتصال بالقيادات المختلفة . وأن يعملا على تنسيق العمليات التى ستقوم بها كل قيادة . ومن أجل ذلك راح ينتقلان بالطائرة إلى القطاعات المختلفة من الجبهة . وبينما كانت جيوش الفوهرر توشك أن تنتهى من الحصار الكبير الذى قامت به ووضع خطته هو ونفذه براوشيتش . أخذ هالدر يوم ٧ من سبتمبر يفكر فى الطريقة التى تحكم بها إداريًا الأراضى البولندية المحتلة .

وفى يوم ١٥ من سبتمبر طلب منه الجنرال (جودل) القائد العام لجيش الألمانى ، أن يقرر مصير وارسو عاصمة بولندا التى كانت تبدى مقاومة عنيفة . وأوصى هالدر بأنه لحمل هذه المدينة على الاستسلام لا يتعين ضربها بالقنابل . وإنما يكفى تجويعها .

غير أن هتلر عرض مرة اخرى على رأى هالدر . وظل يقصف وارسو بالقنابل ويحاصرها ١٧ يوما . حتى سقطت يوم ٢٧ من سبتمبر ومعها بولندا كلها . ويقول هالدر فى يومياته التى نشرها عام ١٩٤٩ فى هذا الشأن . إن السبب الذى جعله يوصى بعدم قصف وارسو كان رغبته فى أن يتمكن من نقل القوات التى ستكلف بقصف الجبهة الغربية . فهل هذه هى الحقيقة أو أنها محاولة منه لتبرير رأى كان قد أبداه ؟

على أى حال فإنه بعد سقوط بولندا اتسع نطاق الحرب فى الجبهة الغربية . واخذت تشتعل بكل قوتها . وقد وجد هالدر الذى كان من رأيه ضرورة أن تقتصر ألمانيا على الحرب الدفاعية إزاء فرنسا وبريطانيا ، أن هذا الرأى لا يؤخذ به . ولم يلبث أن اضطر إلى تحمل مسئوليات هائلة : فقد راح يعمل ومعه الضباط الذين أطلقوا على أنفسهم سم الشان الأقوياء» فى هيئة الأركان ، لوضع المشروعات وتنسيق خطط الهجوم كافة .

وقد أدى الجانب الأكبر من هذه الأعمال التى استغلت فى العامين الأولين من الحرب . وإلى أن خرج هالدر من المسرح ، فى تحقيق الانتصارات التى جاءت نتيجة لرؤيته ، ولو أن هذه الرؤية منذ البداية كانت تصطدم هى ورأى هتلر .

وانفجر أكبر خلاف بين الرجلين عشية الهجوم الألمانى الكبير على الجبهة الغربية . عندما رأى هالدر فى آخر لحظة أن ضابطا آخر يتخطاه . هو فون مانشتاين الذراع اليمنى لفون رونشتت الذى اقترح نقل الهجوم الرئيسى إلى منطقة (الأردين) بدلا من بلجيكا الوسطى . كما كان مقررا فى المشروع العام لهيئة الأركان .

وقد بلغ هذا الاقتراح بطريقة لا يدرى بها أحد مسامع هتلر الذى تحمس له . غير ان

براوشيتش وهالدر اللذين كانا ينظران دائما فى حذر إلى فئة الضباط الذين ظهرو على المسرح بعد الانتصارات الحربية الأولى ، عمداً إلى نقل فون مانشتاين إلى إدارة أخرى . ولكن هتلر وجه إليهما لوماً شديداً على ذلك ، وحملهما على أن يدخلا فى لاعتبار نظريته التى أسفرت بالفعل عن نجاح كبير ، ولكن بعد أن طورها هالدر بعبقريته .

* * *

وقد وقع صدام شديد آخر بين هالدر وهتلر خلال الحملة على روسيا . وهو أعنف خلاف بينهما ، أدى إلى قطيعة نهائية بينهما .

وكما فعل هالدر فى غزو فرنسا فإنه وضع فى هذه المناسبة خطة الهجوم الصيفى على الجبهة الروسية بإشراف براوشيتش ومعاونة فون باولوس . وعلى الفور لقى المشروع موافقة جماعية ، إذ كان هالدر للمرة الأولى متفائلاً بالنسبة لتقدم القوات الألمانية .

بيد أنه عاد وغير رأيه عندما تبين له خطأ التقديرات التى كانت تقول بعجز الروس عن المقاومة ، ومع ظهور شبح ستالينجراد . وقد كتب بريت سميث فى ذلك يقول :

« لقد طلب هالدر من هتلر عدم تقسيم قواته ، وأن يترك الروس يستعيدون القوقاز إلى أن يتم سقوط مدينة ستالينجراد ، وتصبح الجبهة الممتدة على نهر الدون مامونة . ولكن هتلر تجاهله منذ مطلع عام ١٩٤٢ ، بعد ذلك راح هالدر يواجه المتاعب » . وقد ثبت عسكريًا أنه لو أن هتلر قد أصغى إليه وأخذ برأيه ، لتغيرت مصاير الحرب ، واتخذ التاريخ طريقا مختلفا .

على أن هالدر الذى انتزعت سلطته بحكم الواقع قد ظل فى منصبه حتى بعد إبعاد براوشيتش عن الجيش . وكان ذلك وفقا لرغبة هتلر الذى كان يعرف جيدا أن هالدر يمثل فى نظر الجيش آخر قلعة لهيئة الأركان تصمد لعمليات التطهير المتكررة ، غير أن ضابطا آخر هو (زايتلر) عين مكانه فى سبتمبر ١٩٤٢ .

وبعد أن ظل معزولا لمدة عامين ، إذا بالجستابو تعتقله وتودعه السجن ، عقب المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر التى وقعت يوم ٢١ من يوليو ١٩٤٤ . وكان سجنه أولاً فى (فوسنبورج) وبعده فى (داشاو) مع الجنرال شاشت وآخرين .

ذلك أن الشكوك حامت حوله ، وإن كان فى الآونة الأخيرة قد انقطعت صلته بالضباط المتآمرين ، وقد ظل هالدر فى معسكرات الاعتقال حتى انتهت الحرب ، بعد أن طردوه من الجيش فى يناير ١٩٤٥ . وبعد ذلك بثلاثة أشهر – أى يوم ٢٨ من أبريل – أطلقت القوات

الأمريكية سراحه من معسكر (يندر دورف) فى التيرول ، وبذلك يكون قد نجا من الحرب ، ومات من الشيخوخة فى بلدة (آشاو) فى بافاريا عام ١٩٧٢ ، وقد بلغ السابعة والثمانين .

* * *

إن هناك أحكاماً كثيرة على هالدر (الجندى) ، وهى أحكام تلقى الإجماع . فمن قائل : إنه بعد استبعاده عن هيئة أركان الحرب لم يستطع الجيش الألمانى أن يحرز أى نصر كبير ، إلى من يقول إنه واحد من أكثر الجنرالات براعة فى عصره . أما عن هالدر (الإنسان) ، فإن هناك ظلالاً من الشك حول المبالغة فى (مقاومته) لهتلر : فلقد كتب عنه من قال : إنه « قد أثبت أنه قادر على التحرك فى الوقت نفسه فى اتجاهات متعددة ، أو بالأحرى عاجز عن السير المستقيم فى اتجاه واحد ! » .

وربما كان الأمر كذلك ، ولكن هذا يؤكد أيضاً أن هالدر كان إنساناً تعذبه الشكوك ؛ فلقد كانت مأساته موازية لمآسى الكثيرين من الألمان من جيله ، وأن كل ما هناك أنه عاشها فى غرفة مملوءة بالأزرار ، دون أن يتمكن من الضغط على زر منها يمكن أن يوقف ذلك الجهاز الجهنمى الذى أطبقه هتلر !

إذا كان هتلر قد عرف كيف يوبخ جنرالاته ، فإنه عرف أيضاً كيف يكافئهم . وهو هنا يمنح عددا منهم ، يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٣٩ ، أرفع الأوسمة ، عقب النصر الذى أحرزوه فى بولندا .

فى يناير ١٩٤٥ ، عين هتلر هيملر قائداً لمجموعة جيوش نهر الفستولا ، وذلك رغم معارضة جودريان . فحقق له بذلك حلما جميلاً .

١٧ يولية ١٩٤٤

المارشال كايتل مودل . الذى لم يتجاوز الثالثة والخمسين من عمره . وقد حصل على حبات الماس التى أضيفت إلى وسام صليب الفرسان الذى يحمله وكان هتلر يثق فيه ثقة مطلقة . ويسمح له بأن يكون ندا له .

الفصل السابع عشر

سيد الحرب العجوز

كان كارل رودولف جيردفون رونشتت ذو الزى العسكرى الرسمى الذى لا تبدو أى كسرة فيه وعلى محياه سمة السيد العظيم ، يحمل رتبة الجنرال منذ عام ١٩٢٧ .

فهو ينحدر من أسرة نبيلة ذات تقاليد عسكرية عريقة ، وكان والده بدوره جنرالاً . ولذلك فإنه يعتبر واحداً من أفضل دعائم المدرسة الحربية البروسية الذين تتلمذوا على أيدى الجنرال العظيم فون سيكت الذى هو بحق مؤسس الجيش الألمانى الحديث أيام جمهورية فيمار . . .

وهو ينتمى منذ عام ١٩٠٧ إلى هيئة أركان الجيش الألمانى . وقد أثبت فى الحرب العالمية الأولى قيمته فى الجبهة الغربية ، وفى الجبهة الشرقية على السواء . وفون رونشتت ضابط تقليدى شديد الاعتداد بمكانته فى المجتمع . وكان يرى فى مهنة السلاح نوعاً من الحملات الصليبية ، ويؤمن بأن « الجيش ينبغى أن يصبح دولة داخل الدولة . ومن حيث الوقائع يجب أن يعطى من خلال نفسه أنقى صورة عن الدولة » .

أما النازيون وعقيدتهم الفظة ، فيرى أنهم مجموعة من السوقة المبتذلين الثقلاء . وفى عام ١٩٣٨ – وكان قد بلغ الستين – انسحب من الخدمة العاملة ، على حين أنه الرجل الثانى فى الجيش الألمانى بعد فون براوشيتش . . القائد العام . غير أنهم عادوا واستدعوه فى الأول من يونية ١٩٣٩ ليتولى قيادة مجموعة جيوش الجنوب فى القطاع البولندى .

وكان تحت إمرته كل من الجيش الرابع عشر الذى يقوده الجنرال (قيلهلم ليست) والجيش العاشر الذى يقوده (فون رايشناو) ، والجيش الثامن الذى يقوده (بلازكوفيتش) ، ومجموع هذه الجيوش خمس وثلاثون فرقة .

ويطبق فون رونشتت إستراتيجية « الحرب الكاسحة » التى تقوم على المناورة الواسعة على

صورة المنجل للتوصل إلى الهدف الأولى ، ثم بعد ذلك تدمير القوات المعادية .

ومن الأمور الجوهرية فى خطط رونشتت إقامة اتصال وثيق بالأسلحة الأخرى ، وخاصة الطيران والمدرعات اللذين يتعين على سلاح المشاة أن يتحرك معهما مستغلاً المفاجأة وسرعة المناورة .

وهكذا بينما مجموعة جيوش فون بوك راحت تهاجم من الشمال ، أخذ رجال ومعدات فون رونشتت يهاجمون من الجنوب ، فأعنقوا بذلك طرق الكماشة على الجيش البولندى . وتجاسر الفرسان البولنديون بدون جدوى ، ووقفوا فى وجه الدبابات الألمانية ، غير أن هذه سحقتهم سحقاً وقضت عليهم تماماً .

وفضلاً عن ذلك ، وقع حوالى خمسمائة ألف جندى بولندى فى مصيدة نصبها لهم رونشتت ، وأخذهم أسرى بما معهم من عتاد ، وألفٍ ومائتى مدفع ، وبذلك أصبح الطريق إلى وارسو مفتوحاً ، فاندفعت فيه مدرعات الجنرال جودريان إلى قلب بولندا التى استسلمت .

وكان ذلك انتصاراً لإستراتيجية فون رونشتت الذى وضع خطة الهجوم ، وأسند فيها دوراً بالغ الأهمية إلى استخدام سلاح المشاة ، وآخذا فى الاعتبار النظريات الحديثة التى تجعل من الدبابات سلاحاً له قوة غير عادية .

وبينما كانت ألمانيا النازية تتيه فخراً بهذا النصر ، كان رونشتت فى كامل هدوء الأعصاب يوجه انتقادات إلى هتلر ، قال فيها : إن المرء لا يمكن « أن يبدأ حرباً . . ببطاقة الخبز ! » . وفى حديث أدلى به لإحدى الصحف اليومية عن القتلى الذين سقطوا خلال المعركة قال : « إن هؤلاء القتلى يجعلوننا بغير شك نفكر فى ذلك بعمق . . إلا أننا لا نبكى عليهم ! » .

لقد كانت الخطة العملية للهجوم على بولندا من وضع (هالدر) ، على حين تولى رونشتت القيادة العامة . إلا أن رونشتت وحده هو الذى تسبب بعبقريته فى إنزال أخطر هزيمة بالقوات البولندية ، وذلك بأنه حال دون الجانب الأكبر من هذا الجيش وعبور نهر (فستولا) ، وبأسره لذلك العدد الضخم من جنوده بمعداتهم .

فلما خرت بولندا صريعة ، وجاء الزعماء النازيون ليدخلوا العاصمة وارسو فى موكب النصر ، راح رونشتت يرقبهم ، ولم يتورع أن يعلق على مشهدهم بسخرية قائلاً : « إنهم يبدون كمجموعة من القرود فوق خشبة المسرح ! » . .

* * *

وجاء دور معركة فرنسا ، فبرزت عبقرية رونشتت العسكرية فيها فذة لا سبيل إلى نكرانها .

كانت الخطة العملية مستوحاة مباشرة من الجنرال رونشتت ، وعاون فيها فون مانشتاين رئيس أركان حربه ، ثم دخلت عليها تعديلات طفيفة أوصى بها هتلر ، واتضح أنها خطة ممتازة .

وسارت الخطة كما يلى : تحركت ٤٤ فرقة ومعها عدد ضخم من المدرعات ، يعاونها سلاح الطيران الألمانى ، ثم عمدت مجموعة الجيوش التى يقودها فون رونشتت إلى القيام بحركة التفاف واسعة سرعان ما أسفرت عن استسلام بلجيكا وهولندا معاً ، وبعد ذلك مرت على جوانب خط ماجينو الفرنسى الحصين ، وفتحت جبهة عريضة فى الجنوب منه محاصرة بذلك القوات البريطانية ، وعزلت الجيوش الفرنسية عزلاً تامًّا .

وفى خلال أسبوعين فقط انهزمت جيوش الحلفاء ، واتخذت القوات الألمانية طريقها نحو باريس .

وفى تعليق لفون رونشتت على هذه المعركة بعد انتهاء الحرب أدلى به للمؤرخ البريطانى ب . ليدل هارت قال : «إن اللحظة الحرجة (الوحيدة) بالنسبة لمجموعة الجيوش التى كنت أقودها ، كانت عندما بلغنا فى زحفنا حتى سواحل بحر المانش ، وفى أعقاب الهجوم البريطانى المضاد بدأ يوم ٢١ من مايو ١٩٤٠ من (آراس) فى اتجاه (كامبريه) ؛ فلقد خشيت لفترة ما أن يتم عزل قواتنا المدرعة عن مجموع الجيوش نتيجة لهذا الهجوم ، قبل أن تتمكن قوات المشاة من أن تخف لنجدتها . إلا أنه ما من هجوم فرنسى مضاد سبب لى أية مشكلة ، وسارت الخطة حتى نهايتها بهدوء تام» .

وقد رقى فون رونشتت إلى رتبة فيلدمارشال الرايخ يوم ١٩ من يوليو ١٩٤٠ ، ولو أنه وقع فى خطأ فى معركة (دنكرك) ، وذلك برفضه إصدار الأمر إلى القوات المدرعة بالتدخل ضد الحملة البريطانية ، فأتاح لبريطانيا إمكان الاستمرار فى الحرب ، إذ استطاعت أن تسحب ٣٥٠ ألف جندى وتعيدهم بوسائل بدائية إلى الجزيرة ، بعد أن كان يمكن للقوات الألمانية إفناؤهم عن آخرهم !

* * *

وبرغم أن فون رونشتت هو الأستاذ الذى ابتدع ما يسمى (البلتزكريج) أى الحرب الخاطفة ، فإنه كان معارضاً بكل قوته للهجوم على الاتحاد السوفيتى .

وقد نقل ذلك إلى الجنرال (بلومنتريت) رئيس أركان حرب الجيش الألمانى الرابع بقوله : «إن فكرة شن حرب على روسيا لا معنى لها ، وسوف تكون لها نتائج مدمرة ، حتى بالنسبة لهتلر» ولم يكتف رونشتت بذلك ، وإنما قال لهتلر عبارة سجلت فى الوثائق جاء فيها : «إننا لن نحرز نصراً على الروس لمجرد قيامنا بهجوم صيفى ؛ إذ يستحيل علينا خلال ذلك أن نهزم هذا العدو ونحتل روسيا كلها . . خلال بضعة أشهر» .

وليس ذلك هو السبب الوحيد الذى جعله يسمح لنفسه بمناقشة أوامر الفوهرر ، الذى عهد إليه بقيادة مجموعة جيوش الجنوب ، عندما بدأ تنفيذ عملية «ذو اللحية الحمراء» بالهجوم على الاتحاد السوفيتى . ولأنه كانت له سيطرة كاملة على رجاله ، ولما تميز به من قدرة عميقة على تحليل المواقف الحربية ، فإنه أحرز انتصارات عظيمة فى كل من (أومان) و (كييف) و (كاركوف) و (كورسك) و (أوديسا) .

ومع كل هذه الانتصارات ، فإنه قدم استقالته من القيادة يوم ٣٠ من نوفمبر ١٩٤١ ، لأنه اعترض على الأمر الذى أصدره هتلر بالدفاع حتى آخر رجل عن الحدود الشرقية لأوكرانيا ، دون أن يأخذ فى الاعتبار ما أشار به هو رونشتت من ضرورة سحب تلك القوات إلى (منسك) ، وعدم استئناف الهجوم إلا مع مقدم الربيع .

ولم يكن أمام الفوهرر بد من قبول هذه الاستقالة .

ولم تنته حياة فون رونشتت العسكرية بطبيعة الحال بهذه الاستقالة : ذلك أن هتلر عاد فاستدعاه يوم ١٠ من مارس ١٩٤٢ إلى الخدمة . وعهد إليه بقيادة القوات الألمانية العاملة فى الميدان الغربى ، وعلى سواحل المحيط الأطلنطى ابتداء من الساحل الهولندى حتى الساحل الفرنسى .

وراح كارل رودلف جيرد فون رونشتت ، طوال ثمانية عشر شهراً ، يعد الدفاعات التى سوف تقف فى وجه إنزال قوات الحلفاء . ووقع خلال ذلك خلاف بينه وبين (رومل) ، الذى كان يرى وضع القوات المدرعة غير بعيد عن الساحل ، على حين رأى فون رونشتت حشدها فى عدة مناطق إستراتيجية ، بحيث يمكن بعد ذلك تحريكها ؛ لتشد أزر نقاط التجمع التى تحتاج إليها بين الفينة والأخرى .

كان رونشتت قد فقد الكثير من ثقته المتعالية ، فقد شعر بالإرهاق أخيراً . وأدرك أنه يناضل بدون جدوى فى حرب لا يرى أن لألمانيا فيها فرصة للنصر النهائى .

على أنه لم يفقد ما فى نفسه من قوة على النقد ، ولا كفاءة إصدار الحكم الصحيح . فلما أنزل الحلفاء قواتهم فى نورماندى يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ ، وهو ما سمى «أطول يوم فى التاريخ» اتصل تليفونيا بالجنرال (كيتل) رئيس أركان حرب الجيش الألمانى ليبلغه بما يحدث . ولما سأله هذا بقوله : «وماذا يجب أن نصنع ؟» أجابه رونشتت بجفاء : «اعقدوا الصلح أيها الأغبياء ، فماذا تستطيعون غير ذلك ؟» .

ونقل «كيتل» ما حدث إلى هتلر . وفى اليوم التالى أعفاه الفوهرر من مهمة قيادة الجبهة الغربية . وعين مكانه (فون كلوجه) . إذ كان يدخر لرونشتت مهام أخرى لا تتعلق بالعمليات الحربية . والواقع أنه عهد إليه برياسة لجنة عالية تابعة للجيش الألمانى . مهمتها إحالة الضباط المتهمين بتلك المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر يوم ٢٠ من يوليو من ذلك العام إلى المحاكمة .

* * *

وفى هذه الأثناء سقطت فى القطاع الغربى من الجبهة مدينة (أنفرس) فى أيدى الحلفاء . الأمر الذى ترتب عليه حدوث اضطراب وفقدان الثقة فى صفوف الجيش النازى . فما كان من ضباط وجنرالات هذا القطاع إلا أن طلبوا من هتلر إعادة فون رونشتت إلى مكانه القديم فى القيادة ، باعتبار أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع مواجهة الموقف المتدهور . بما له من قدرة على السيطرة وبراعة فى الإستراتيجية .

ذلك أن فون (كلوجه) والجنرال (مودل) قد فشلا فى محاولة وقف تقدم الحلفاء الذين وصلوا إلى هولندا . بل إلى حدود ألمانيا نفسها .

وعاد رونشتت . وسرعان ما أعاد ببراعته وهدوئه النظام إلى الجيش الذى كان يوشك أن يتفكك . وأن يجعل الجبهة تتماسك من جديد . ولو أنها لم تكن بالصلابة التى كان يريدها .

وحاول هو و(روميل) . الذى كان برغم الخلاف بينهما فى وجهات النظر وفى المفاهيم التكتيكية يثق فيه ثقة كبيرة منذ كانا يعملان معاً . إقناع هتلر بأن يعيد إلى الوراء قليلاً من الحشود الألمانية بعيدا عن ضفاف نهر السين . لكى تستقر فى أماكن يمكن الدفاع عنها . . ولكن دون جدوى .

وفى يوم ١٧ من أكتوبر ١٩٤٤ كان من نصيب «سيد الحرب البروسى العجوز» أن يقوم بمهمة حزينة . هى أن يلقى كلمة التأبين فى جنازة (روميل) . الذى مات قبل ذلك بثلاثة أيام . وكانت هذه بالنسبة لرونشتت الفرصة الملائمة لتأكيد الآراء الجذرية التى اقتنع بها عن

الجيش ، وعن وظيفة العسكريين فى الدولة . . بوصفهم الأرستقراطيين الذين يرتدون الزى الرسمى . والذين يستجيبون لرغبة الثأر التى تنادى بها «ألمانيا الكبرى» .

* * *

وفى آخر هجوم كبير قام به الجيش النازى فيما يوصف بموقعة (الأردين) ، كانت القيادة فيه معقودة لفون رونشتت شكلاً فقط :

ذلك أن خطة هذا الهجوم وضعها هتلر الذى عهد بقيادة العمليات إلى المارشال (مودل) ، وإلى (سيب ديتريش) الذى تولى قيادة الجيش السادس مدرعات ، وإلى الجنرال (هاسوفون مانتوفيل) قائد الجيش الخاص المدرع . وقد عاون فى الهجوم كذلك سلاح الطيران الألمانى ، غير أنه بعد أن فقد ٢٧٠ طائرة فى معاركه مع الحلفاء انسحب من الصراع يوم الأول من يناير ١٩٤٥ .

ولقد بدأ الهجوم فى (الأردين) يوم ١٦ من ديسمبر ١٩٤٤ ، وحصل الألمان على انتصارات رائعة فى بدايته . غير أنه فى الأيام الأولى من شهر يناير التالى استعادت القوات الأمريكية كل الأرض التى فقدتها عقب الهجوم الألمانى اليائس . وكانت الخسائر من الجسامة خلال هذه الأيام ، إلى حد أصبح من المستحيل معه على الجيش الألمانى الاستمرار فى عملياته الهجومية .

وكانت الأهداف التى حددها هتلر فى خطته تتكون من مدينتى (انتويرب) و(بروكسل) . إلا أن رونشتت ومودل رأيا أن من غير الممكن استعادتهما . وحاولا دون جدوى إقناع هتلر بالاكتفاء مؤقتاً بأهداف أقل منهما يمكن تحقيقها .

وقد روى ذلك فيما بعد للمؤرخ الإنجليزى ب . ليدل هارت فقال : «لقد صعقت عندما تلقيت فى شهر نوفمبر الأوامر . إن هتلر لم يأخذ رأيى فى احتمالات نجاح هذه العملية ، وكانت القوات التى تحت تصرفى أصغر بكثير مما تحتاج إليه خطته الواسعة النطاق» .

وقد تضايق الجنرال من رؤية اسمه يقترن بهذه الخطة ، إلى درجة أنه احتج على ذلك لدى هتلر نفسه ، وطلب تصحيح الوضع : أى أن ينسبها إلى نفسه وإلى هيئة أركان حربه بكل تفاصيلها ، طالما أنه رفض إدخال أى تعديل عليها من جانبه .

ويقول رونشتت : «لقد انتهت الحرب منذ شهر سبتمبر كما توقعت ، غير أنهم لم يصدقونى عندما قلت لهم ذلك» .

وفى يوم ١٠ من مارس ١٩٤٥ أبعده هتلر للمرة الثالثة والأخيرة عن الجيش . فعاد إلى ألمانيا وهو يشعر بالارتياح ؛ لأنه أعفى من مسئولية القيام بمهام هو غير راض عنها ؛ فقد كره أن يستمر فى إرسال الجنود لكى يذبحوا بدون جدوى ؛ إذ كان يرى أن من الأمور التى ترقى إلى حد الجريمة أن يدفع إلى الموت أى جندى ، وهو يعرف أنه لن يحقق نجاحاً نهائيًا ، أو يستعيد أراضى فقدها فى نطاق إستراتيجية يتاح لها إمكان النصر .

* * *

وبالنسبة للجنرال البريطانى برنارد مونتجومرى الذى عرف رونشتت معرفة جيدة من وجهة النظر العسكرية ، نظراً لأنه كان خصمه المباشر ، فإن صفات القائد فى رونشتت رائعة وفوق العادة . وهو يقول فى ذلك : «لقد كنت أرى دائماً أن روميل قائد ممتاز ، ولكن فون رونشتت يفوقه بكثير . إنه أفضل جنرال ألمانى واجهته فى هذه الحرب» .

وكذلك الجنرال دوايت أيزنهاور الذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة ، فإنه سجل فى وثائق الحرب : «أن القيادات الأمريكية ترى فى فون رونشتت أقدر جنرال ألمانى !» .

لكن كل هذا المديح لم ينقذ رونشتت من السجن : فقد اعتقله الحلفاء يوم الأول من مايو ١٩٤٥ ، وكان رجال الجيش الأمريكى السابع هم الذين أسروه .

وقد أدلى بشهادته فى نورمبرج ، وحرص على أن يفرق بين مسئولية العسكريين وبين مسئولية السياسيين فى الحرب الخاسرة .

واتهم رونشتت بارتكاب جرائم حرب : فقد أصدر أمرا فى عام ١٩٤٤ فى مدينة (آسك) الفرنسية التى كانت القوات التى يقودها تحتلها بإعدام سبعة وسبعين رجلا رميا بالرصاص . وقد اختير هؤلاء الضحايا كيفما اتفق من بين سكان هذه المدينة الصغيرة ، انتقاماً لعمل تخريبى قامت به المقاومة الفرنسية ، نسفت فيه الخطوط الحديدية . وقال رونشتت إن سكان المدينة يتحملون مسئولية وعواقب هذا السلوك التخريبى الذى لا يمكن إلا أن أدينه بكل شدة» .

ولم يمثل أمام أى محكمة ، فقد أدخله الحلفاء إحدى المستشفيات العسكرية ، إلى أن أطلق سراحه فى مايو ١٩٤٨ ، ثم سقطت المسئولية الجنائية ضده فى أكتوبر ١٩٤٩ ، برغم احتجاج صحيفة (التايمز) التى نددت بالقرار الذى أصدرته فى هذا الشأن السلطات البريطانية والأمريكية .

* * *

المارشال فون رونشتت قائد الجبهة الغربية يتفقد التحصينات الساحلية وقد راعه لدى وصوله إلى قيادته عام ١٩٤٢ ضعف قواته (وكانت للالمان فرقة لفرنسا وبلجيكا وهولندا) . وقد ضاعفوا له هذه القوات عشية الهجوم ، ولكن بغير أى احتياطى .

وافق هتلر خلال زيارة قام بها لمقر قيادة فون رونشتت فى (شارتقيل) على قرار وقف المدرعات الألمانية أمام دنكرك . وقد صحح هذا الخطأ ، ولكن بعد فوات الأوان ، إذ استطاعت القوات البريطانية أن تجلو قبل أن تباد جميعها أو تقع فى الأسر.

هتلر يراجع بنفسه الخطة النهائية المسماة (ذو اللحية الحمراء) ، أى خطة الهجوم على روسيا . ولولا التأجيل الذى تقرر بالنسبة لتاريخ البدء فيها ، لما لحق الشتاء مبكرا بالقوات الألمانية .

وما كاد الفيلد مارشال العجوز الذى بدا غير راغب فى لقاء أحد ، ويرفض الإدلاء بأى حديث أو تصريح أو بيان ، والذى ظل مشدود القامة دائماً ولديه إحساس نادر تلوح فيه السخرية ويصعب تصوره فى جنرال بروسى ، ما كاد يستعيد حريته حتى انسحب ؛ ليعيش فى عزلة فى بيت صغير فى مدينة هانوفر .

وظل فى هذا البيت وحيداً ، وقد أخذت صحته تتدهور ، إذ لم تبق له سوى الذكريات والنياشين التى أحرزها فى ميدان القتال طوال اثنين وخمسين عاماً فى خدمة الجيش الألمانى ، تركت فى طباعه أثراً لا يمحى .

لقد كان شعاره هو « الأسلوب والنظام » ، وذلك إذا نحن استعرنا التعبيرات العسكرية : إلا أن هاتين الصيغتين اقترنتا لديه بمعرفة متعمقة فى الإستراتيجية والتكتيك العسكريين .

إن كارل رودلف جيرد فون رونشتت رجل عاش ومات عظيماً فى كرامته السامية المتعالية ، وهذا الوصف من المؤرخ البريطانى ريتشارد بريت – سميث ، وقد توفى فى بيته المتواضع بمدينة هانوفر يوم ٢٤ من فبراير ١٩٥٣ ، تحيط به الرسوم التى تصوره فى ثوب القائد الذى خاض الحرب ، على جميع جبهات أوربا .

الفصل الثامن عشر

فولفرام فون ريشتهوفن

«ابن العم الوقور . . للبارون الأحمر»

لم يكن ذلك الرجل الذى كان أكبر وأشهر «بطل» فى طائرات المطاردة فى الحرب العالمية الأولى . وأطلقوا عليه اسم «البارون الأحمر» لأنه كان يطلى طائرته بهذا اللون هو الشخصية البارزة الوحيدة فى تلك الأسرة الإرستقراطية العسكرية البروسية . أسرة ريشتهوفن ، التى تركت بصمات واضحة فى تاريخ وأسطورة الجيش الألمانى . . وبالذات سلاح الطيران .

والواقع أن سلاح الطيران الألمانى أنجب خلال الحربين العالميتين الأخيرتين ، ثلاثة من «الأبطال» خرجوا جميعاً من أسرة (ريشتهوفن) : أولهم مانفريد . وهو بالذات الذى عرف باسم «البارون الأحمر» الذى لمع فى حرب عام ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وشقيقه لوثار الذى فاقت شجاعته كل حدود ، ثم ابن عمهما (فولفرام) الذى لم يكن مثلهما طياراً ، وإنما كان إستراتيجيا متخصصا فى استخدامات السلاح الجوى ، ذلك التخصص الذى أوصله فى نهاية عام ١٩٤٣ إلى رتبة فيلد مارشال ، وجعله يقف جنباً إلى جنب مع قادة عظام آخرين مثل كيسلرنج . . وميلش . . وسبيرلى . . وفون جرايم .

ولقد ولد فولفرام ، أو البارون فون ريشتهوفن فى (بارزدورف) فى سيليزيا العليا عام ١٨٩٥ ، وعلى ذلك يكون عمره أقل ثلاث سنوات عن عمر ابن عمه (مانفريد) ، إلا أن هذه السنوات الثلاث لم تمنعه من أن يحارب معه فى سماوات أوربا خلال الحرب العالمية الأولى ، ويحرز فيها سبعة انتصارات شخصية .

وعلى ذلك يكون قد حصل على انتصارين زيادة عن العدد المطلوب من الانتصارات ، الذى يؤهل الجندى الألمانى للفوز بلقب «بطل» .

* * *

وخلع ريشتهوفن البذلة العسكرية بعد الحرب . وبدأ يدرس الهندسة فى جامعة هانوفر . ثم عين بعد ذلك ملحقا عسكريا فى السفارة الألمانية فى روما ، ليعود عام ١٩٣٢ إلى برلين ، لكى يتخصص مع كل من فون جرايم وسبيرلى وميلش فى عمليات تنظيم وتدعيم السلاح الجوى .

كان ذلك قبيل الحرب الأهلية فى إسبانيا التى جعل منها الخبراء الألمان حقل تجارب للحرب العالمية الثانية . وقد بدأ تدخل ألمانيا فى إسبانيا فى أواخر صيف عام ١٩٣٦ ، بأن قدم هتلر إلى فرانكو عشرين طائرة نقل . وعددا من الطائرات المطاردة يقودها متطوعون . وصلوا بها فى أواخر شهر أغسطس . ولكن سرعان ما أعطبتها طائرات الجمهوريين .

وعند ذلك نظم سلاح الجو الألمانى فرقة (كوندور) مساندة لفرانكو ، وهى تشكيلات من قاذفات القنابل والطائرات المقاتلة وطائرات الاستطلاع ، كان مجموعها فى البداية مائتى طائرة وضعت تحت قيادة الميجور هوجو سبيرلى ، الذى طلب أن يكون أركان حربه فون ريشتهوفن الذى حل محله فى قيادة هذه الفرقة بعد ذلك فى عام ١٩٣٨ .

وإذ كان ريشتهوفن يدعو إلى الهجوم على طائرات العدو وهى جاثمة على الأرض ، فإنه أخذ يطور خلال الحرب الإسبانية نظريته الخاصة التى تقضى فى حالة الحرب بتعاون السلاح الجوى مع الجيش . ولو أنه لم تتح له الفرصة من أجل تطبيق هذه الإستراتيجية إلا فيما بعد عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية . وفى إسبانيا جعلت طائرات ريشتهوفن من طراز (شتوكا) من عملية قذف القنابل بطريقة الانقضاض فنًا حقيقيًا قائما بذاته ، فكانت تبذر به الرعب والموت والدمار فى مناطق الموانى فى المدن الإسبانية مثل برشلونه وفالنسيا ، فقطعت الإمدادات عن القوات الجمهورية .

على أن فولفرام قد فطن إلى أن قاذفات القنابل المنقضة تنقصها تجارب معينة . هى الهجوم على أهداف تتولى الدفاع عنها وسائل فعالة . من المدفعية المضادة للطائرات ومن المقاتلات .

وفى ربيع عام ١٩٣٩ - بعد أن وضعت الحرب الأهلية فى إسبانيا أوزارها - استطاع ريشتهوفن إقناع رؤسائه بأن قوته الجوية إذا هى احتشدت فى النقطة الملائمة ، تستطيع أن تقدم مساهمة حاسمة فى أى معركة برية . وذلك بأن تهيئ فضلاً عن ذلك فتح الطرق أمام القوات المدرعة .

ولم يقترح ريشتهوفن الإقلاع عن قصف القنابل الإستراتيجى . ولكنه ساند ضرورة أنه

يتعين على جانب من القوات الجوية التى تخصص لمعركة ما فى حالة الحرب أن يتم تنظيمها وتجهيزها تمهيدا للقيام بوظيفة تكتيكية . لقد كان استخدام السلاح الجوى ليعاون فى مهاجمة الدبابات . أو لمساعدة المشاة . أمراً فكر فيه البريطانيون والفرنسيون فى الحرب العالمية الأولى . إلا أن ريشتهوفن عرف كيف يضعه موضع التطبيق ، فكانت النتيجة هى « الحرب الخاطفة » فى بولندا عام ١٩٣٩ .

وعندما كان قائدا للفيلق الجوى الثامن ، استخدام ريشتهوفن فى بولندا ثلاث فرق جوية من طراز (يونكرز) ٨٧) . ومجموعة طائرات (هنشل ١٢٣) وطائرات (مسر شميت) التى كانت تحت إمرته . بعد أن قام بتنسيق كامل بينها وبين قوات الجيش الألمانى المتقدمة فى عملية عسكرية أكبر ، لم يقم فيها أى وزن لما قد تتعرض له من خسائر .

فقد هاجم بهذه العملية المصانع وخطوط المواصلات . والمطارات ، فظل يقصفها حتى دمرها جميعا . وبينما الدخان يتصاعد من ركام الحطام الذى خلفته هذه الطائرات المنقضة وراءها ، راحت الطائرات البعيدة المدى تتغلغل فى عمق بولندا . وتضرب القوات المرابطة فى الخطوط الخلفية . وكذلك الطوابير المنسحبة من جبهات القتال . فتقضى عليها نهائيا .

وقد تبين أن معركة بولندا هى النموذج التقليدى للإستراتيجية الألمانية الجديدة ، التى كان فولفرام فون ريشتهوفن واحدا من الضباط العظام الذين ابتدعوها . . .

* * *

وفى يوم ٢٥ من أبريل ١٩٤١ أصدر هتلر أمراً يوميا قال فيه : تُجهز على الفور عملية يطلق عليها اسم « زئبق » ، تهدف إلى احتلال جزيرة كريت ، لجعلها قاعدة جوية لضرب القوات البريطانية العاملة شرق البحر الأبيض المتوسط » .

وقد عهد إلى جورنج بمهمة إنجاح العملية ، فتبين أن دفاعات الجزيرة من الهجمات الجوية تتكون من خمسين مدفعاً مضاداً للطائرات ، بالإضافة إلى ثلاثين طائرة مقاتلة قديمة .

وترتيباً على ذلك ، كلف جورنج قوات المظلات والقوات المحمولة جوًّا التابعة للفيلق الطائر الحادى عشر الذى يقوده الجنرال كورت شتودنت ، بمعاونة طائرات الهجوم للفيلق الثامن الذى يتولاه فون ريشتهوفن ، الذى كانت مهمته تأمين المجال الجوى فوق الجزيرة خلال إنزال قوات المظلات .

كانت مجموعات الهجوم التابعة للفيلق الثامن تتكون من حوالى أربعمائة قاذفة قنابل من

طراز متوسط المدى وطائرات منقضة ، وحوالى مائتين وخمسين من طائرات القتال والاستطلاع .

وفى فجر يوم ٢٠ من مايو ١٩٤١ – وكان يوماً ينتظر أن تسطع فيه الشمس – انطلقت مئات الطائرات من طراز (مسر شميت ١٠٩ و ١١٠ » قادمة من ناحية البحر ؛ لتهاجم فى موجات متتالية دفاعات جزيرة كريت ، على حين أخذت تشكيلات من طائرات (يونكرز ٨٧) و(هينكل ١١١) تغير على المطارات فيها ، وتلقى عليها طوفاناً من القنابل ذات الحجم الكبير .

وراحت هذه التشكيلات من الطائرات ذات المحركات الثلاثة تمر واحدة فى إثر الأخرى على شواطئ الجزيرة فى بطء بحمولاتها الثقيلة ، متجهة إلى الداخل ، على حين كانت تهبط على السواحل القوات المحمولة جوًّا بعتادها وأسلحتها . وفى الوقت نفسه امتلأ جو الجزيرة بالمئات من المظلات .

وعلى عكس ما كان يتوقع الألمان ، استقبلت الجزيرة الغزاة بنيران كثيفة ، مما جعل الكثيرين من القوات المهاجمة تتمزق جثثهم وهم مازالوا فى الهواء ، وقبل أن تطأ أقدامهم الأرض .

وعند الغروب وجد الجنرال شتودنت نفسه فى موقف حرج : ذلك أن القوات الألمانية ظلت واقفة فى النقطة التى هبطت فيها أمام نيران الدفاع البريطانى ، التى اتضح أنها أكثر كثافة مما كان متوقعاً . وعندما حاولت قافلة من السفن الألمانية إنزال حمولتها من القوات على أماكن متفرقة من الجزيرة إذا بوحدات بريطانية تحصدها حصداً ، وسقط للألمان نتيجة لذلك ١٥٠٠ قتيل !

وفى يوم ٢٢ من مايو سقط أحد مطارات الجزيرة ، وهو مطار (مالم) فى أيدى الألمان ، غير أنه كان معرضاً لنيران البريطانيين الصادرة عن مدفعيتهم الكثيفة ، فلم يتمكنوا من استخدامه لهبوط طائراتهم فيه .

وعند ذلك جن جنون برلين ، وقررت أن تدفع بفيلق كامل من قوات الجبال لكى يهبط جوًّا فوق المطار ، بغير عمل أى حساب لنيران المدفعية البريطانية . ولما كانت تعلم أنها تبعث بهؤلاء الرجال إلى حتفهم ، فإنها أصدرت أمراً إلى فون ريشتهوفن لكى يتولى مهمة تأمين هذه العملية ، بالفيلق الجوى الثامن الذى تحت قيادته .

ونجح ريشتهوفن فى مهمته .

وفى اليوم نفسه استطاعت طائرات النقل الألمانية من طراز (يونكرز) أن تعود إلى الظهور فى سماء مطار (ماليم) ونجحت فى الهبوط واحدة وراء الأخرى ، فيخرج من كل منها أربعون جنديًا مدججون بأسلحتهم ، لكى تقلع من جديد لتجلب غيرهم .

أما القوات والطائرات البريطانية فلم تفلح فى الوقوف فى وجه فيلق ريشتهوفن الطائر .

* * *

وعندما بدأت معركة روسيا تولى ريشتهوفن مرة أخرى قيادة الفيلق الثامن الطائر ، بعد أن أصبح تابعاً للأسطول الجوى الثامن الذى يتولى قيادته كيسلرنج . وإذ تخلص ريشتهوفن من الدفاعات المضادة للطائرات السوفيتية ، فإنه فتح بذلك الطريق أمام غزو واحتلال كييف وأومان ، الأمر الذى رقى من أجله إلى رتبة ميجور جنرال .

وبعد ذلك ببضعة أشهر – أى فى شهر يونية التالى – استطاع بسبع مجموعات من قاذفات القنابل ، وثلاث من طائرات الانقضاض ، وأربع من طائرات القتال - بالإضافة إلى ١٧ بطارية من المدافع المضادة للطائرات – أن يقدم العون إلى الحصار الذى فرضه فون مانشتاين على مدينة سيباستبول . وفى تلك الحقبة قام فيلق ريشتهوفن بمايتراوح بين ألف ومائتين وألفى طلعة جوية فى اليوم الواحد .

ورقوه فى الصيف التالى إلى منصب قائد الأسطول الجوى الألمانى الرابع ، ومنحوه رتبة كولونيل جنرال ؛ لكى يتولى قيادة مجموعة الأسراب التى يتكون منها الفيلقان الجويان الرابع والثامن . ليساند بهما الجيوش التى يقودها فون بوك . وكانت هذه المجموعة تضم طائرات قتالية ذات مدى بعيد ، وقاذفات قنابل جديدة ، وأعدادا ضخمة من طائرات الانقضاض .

وجاء بعد ذلك دور ستالينجراد ، فعُهد إلى ريشتهوفن بمهمة تنظيم الجسر الجوى الميئوس منه ، لكى يمد بالمؤن والذخائر الجيش السادس الذى يقوده فون باولوس الذى وقع فى الحصار .

وكان فون ريشتهوفن يعرف تماماً أنه ليس هناك أى إمكان لنجاح هذا الجسر الجوى : فقد كان الشتاء الروسى الرهيب ، والمسافات الطويلة من الطيران ، والتفوق الجوى المحلى للسوفيت ، كل ذلك كان من شأنه أن يقضى على أى أمل يراود الخيال .

وعند ذلك اتجه إلى جورنج ، وأبلغه صراحة أنه ليس فى وضع يتيح له تأمين عملية تموين

٣٠٠ ٠٠٠ رجل هم الذين يتكون منهم جيش فون باولوس . إلا أن جورنج اتصل مع ذلك بهتلر ، ليقول له : إن المؤن والذخائر سوف تصل إلى الجيش المحاصر ، وإن الذى سيقوم بذلك هو فون ريشتهوفن الذى سينقل يوميا ثلثمائة طن من هذه المؤن !

وعلى ذلك أصدر هتلر يوم ٢٤ من نوفمبر ١٩٤٢ الأمر التالى : «يتعين الاحتفاظ بمدينة ستالينجراد . . أو إزالتها من الوجود» .

وبهذا الأمر بدأت بالنسبة للجيش الألمانى السادس ، والأسطول الجوى الرابع ، المسيرة نحو الموت ! .

* * *

كان على ريشتهوفن أن يصدع لهذا الأمر . غير أن طائراته لم تستطع على الإطلاق أن تنقل يوميا الثلثمائة طنًّا التى حددها جورنج ، وإنما كان متوسط ما تنقله مائة طن فحسب ، وهى لا تكاد تكفى الحيلولة دون الجيش الألمانى السادس من أن يموت جوعاً . .

وفى أواخر عام ١٩٤٢ اضطرت القوات الألمانية المحاصرة فى المدينة التى أصابها الخراب والدمار إلى أن تخفض حصة الطعام التى يحصل عليها كل فرد . فأصبحت شريحتين من الخبز ، وكوباً من الماء الذى به رائحة الحساء . وبدأ الجيش الأحمر يوم ١٠ من يناير ١٩٤٣ هجومه النهائى على الألمان فى مصيدة ستالينجراد ، وبذل فون ريشتهوفن قصارى جهده للإبقاء على فاعلية جسره الجوى ، ولم يبخل خلال ذلك بحياة أى عدد من رجاله . بل إنه تخلى عن حرصه القديم على طياريه ، فراح يدفع بهم إلى مهام ميئوس منها تماماً ، لكى يبلغ القدر المقرر من المؤن . وهو ثلثمائة طن يوميًّا ينقلها إلى داخل المدينة المحاصرة المعرضة لأنواع النيران كافة .

لكن المناخ الروسى الذى كان يتسبب فى عطب طائراته سريعاً . واستمرار القوات السوفيتية فى إنزال خسائر فادحة بالألمان ، جعلا مهمة ريشتهوفن بالغة الصعوبة .

وعندما تمكن الجيش الأحمر يوم ٢٤ من يناير من ذلك العام من تحطيم الحلقة الدفاعية حول ستالينجراد ، ثم احتل بعض المطارات فيها ، كان عدد طائرات ريشتهوفن قد انخفض إلى مائة فقط . ومع سقوط جميع مطارات المدينة ، ظل هو يستخدم مهبطاً احتياطيًّا عدة أيام ، وقد تحطمت آخر طائرتين محملتين بالجرحى عندما كانت تهمان بالإقلاع من هذا المهبط ، بعد أن أصبح واقعاً تحت وابل نيران الدبابات السوفيتية .

وأحاط جنود أشبه ما يكونون بالهياكل العظمية ، يغطون أجسادهم بمزق بالية هى ما تبقى

من بذلات الجيش الألمانى الفاخرة – أحاطوا بهاتين الطائرتين المحطمتين ، وراحوا يتناقشون فى يأس حول إمكان الحيلولة دون سقوط ستالينجراد.ولقد أمكن إصلاح إحدى الطائرتين على عجل ، واستطاعت الإقلاع . أما الأخرى فقد بدأت تجرى على عجلاتها ، على حين أخذ الجنود الذين تعلقوا بأجنحتها وهياكلها يسقطون-على الثلوج التى كست الأرض ! .

وعلى حين فجأة اتجه وابل من طلقات الأسلحة الأتوماتيكية السوفيتية إلى جسم الطائرة ، فانفتحت فيها فجوة هائلة ، لم تلبث على إثرها أن ارتطمت بالأرض واشتعلت فيها النار .

* * *

وفى يوم ١٧ من فبراير ١٩٤٣ أصبح فون ريشتهوفن رابع ضابط ألمانى عظيم يحمل رتبة الفيلد مارشال . أما الخامس والأخير فكان روبرت فون جرايم ، الذى رقى إلى هذه الرتبة العالية يوم ٢٦ من أبريل ١٩٤٥ .

وفى هذه المناسبة وجه جوبلز وزير الدعاية كلمة إلى ريشتهوفن قال فيها : «إن قاموس ألمانيا النازية لا يتضمن على الإطلاق كلمة «استسلام» البغيضة . . فلقد أزلنا تماماً كل ما يحيط بنا من أخطار . . وقضينا نهائيا على ما يعترضنا من أزمات» .

* * *

على أن الحرب لم تكن قد انتهت بعد بالنسبة لفون ريشتهوفن : ذلك أن هتلر اختاره يوم ١٢ من يونية ، ليعينه قائداً عاماً للأسطول الجوى الألمانى الثانى العامل فى إيطاليا ؛ لكى يقدم العون لفون كيسلرنج الذى تولى فى الوقت نفسه القيادة العليا فى المنطقة الجنوبية .

لم يكن تحت إمرة فون ريشتهوفن حينئذ سوى ثلثمائة طائرة ، كان عليه أن يواجه بها أساطيل الحلفاء التى ضمت خمسة آلاف طائرة . عند ذلك أقدم على ما سمى فى التاريخ بـ «ضربة فون ريشتهوفن» : أى أنه وضع يده على سلاح الطيران الإيطالى ، وحول كل طياريه إلى مرتزقة يعملون لحساب الرايخ الألمانى .

لكن الإيطاليين كانوا قد تعبوا من الحرب ، وبدلاً من أن يخضعوا لأوامر ريشتهوفن ، ويرتدوا الزى الألمان ، إذا بهم يشعلون النار فى عدد كبير من الطائرات التى كان عليهم قيادتها . وقد دمروا بهذا الحريق ٥٥ طائرة من طراز «فيات ج» .

وتبعت ذلك حركة تذمر بين الطيارين الإيطاليين ، فبعث بنيتو موسولينى دوتشى إيطاليا

رسالة إلى هتلر يناشده فيها ألا يطبق قوانين الحرب الألمانية الصارمة على الجنود الإيطاليين . فما كان من الفوهرر إلا أن استدعى فون ريشتهوفن إلى برلين . .

* * *

والواقع أن هذا الاستدعاء كان بمثابة نهاية الحرب بالنسبة لفون ريشتهوفن ، إذ أن الكمد الذى شعر به لغل أيديه عن تأديب الإيطاليين ليجعل منهم جنوداً حقيقيين ، أصابه بسرطان فى المخ من فرط التفكير .

وأجريت له جراحة عاجلة ، ولكن المنية عاجلته ، وتوفى فى مدينة (باد إيشل) بالنمسا يوم ١٢ من يوليو ١٩٤٥ عن خمسين عاماً .

وبهذه الوفاة نجا من شىء أكثر مرارة مما حل به ، هو عواقب الهزيمة الكبرى التى حلت بألمانيا .

الفصل التاسع عشر

أيريش فون مانشتاين

الرجل الذى اخترع «الحرب الخاطفة»

لا جدال فى أن أيريش فون مانشتاين هو أعظم إستراتيجى فى الحرب الخاطفة : ولا غرابة ولا غرو فى ذلك ، فهو على وجه التحديد الرجل الذى ابتدع هذا اللون من الحروب .

ولقد لقبه ليدل هارت المؤرخ العسكرى البريطانى بأفضل جنرال ألمانى فى الحرب العالمية الثانية ، وكان مصيباً فى ذلك إلى أبعد الحدود .

والواقع أنه بينما كانت دولة متقدمة عسكريًّا مثل فرنسا – لا تزال تؤسس دفاعها الخاص على التحصينات الكبرى على غرار «خط ماجينو» – كان هو يصنع الخطوط العريضة فى أسلوب يتجنب به السأم الذى يعترى الجنود من جراء حرب المواقع ؛ لكى يفرض حرب الحركة عن طريق استخدام مجموعات هائلة من الدبابات ، ويجعلها تسير جنباً إلى جنب فى المجال التكتيكى وقيام سلاح الطيران بعمليات قذف القنابل الانقضاضى .

أما فى المجال الاستراتيجى فإنه قرن استخدام هذه المجموعات بهجوم جوى كاسح على خطوط الأعداء الخلفية .

ومنذ ذلك الوقت أصبح تعريف «الحرب الخاطفة» مقروناً باسم رجل واحد هو : فريتس أيريش جورج إدوارد فون لوبنسكى ، الذى اشتهر بوصفه الفيلدمارشال أيريش فون مانشتاين . .

* * *

وقد ولد فون مانشتاين فى ستراسبورج يوم ٢٤ من نوفمبر ١٨٨٧ ، وكان آخر عشرة أبناء أنجبهم والده إدوارد فون لوينسكى الذى كان جنرالاً فى سلاح المدفعية ، وسليل أسرة يرجع أصلها البعيد إلى روميا ، ولكنها أصبحت بروسية منذ سبعة أجيال على الأقل .

وقد أحصيت فى أسرته اثنتا عشرة رتبة عسكرية ابتداء من عام ١٨٧٠ ، كما أن والدة أيريش هى شقيقة زوجة فون هندنبرج الذى أصبح فيما بعد رئيساً للرايخ الألمانى . وإذْ فقد الفتى والده فى سن مبكرة فإن عمه جورج فون مانشتاين قد تبناه ، وذلك هو الذى جعله يتسمى باسمه عندما بدأ حياته العسكرية .

والتحق فى عام ١٩٠٠ بفرقة الملحقين العسكريين فى (بلون) ، واجتاز بنجاح امتحان الكلية العسكرية فى (جروس) التى تعتبر مصنعاً للطبقة العسكرية للرايخ الثانى ، وانضم إلى حرس اللواء الثالث ، وأمضى مانشتاين عاماً رقى بعده إلى رتبة الملازم . فلما كانت الحرب العالمية الأولى لم يحارب خلالها سوى بضعة أشهر ؛ لأنه جرح فى شهر نوفمبر ١٩١٤ جرحاً خطيراً ؛ وعندما شفى من جراحه عين ملحقاً عسكريًّا فى عدة قيادات لوحدات كبيرة .

وبقراءة تاريخ حياته كضابط ، نرى أنه عندما وصل هتلر إلى الحكم عام ١٩٣٣ ، سجل فى أوراقه أنه وقد أصبح قائداً لكتيبة تابعة للواء الرابع مشاة الذى كان مرابطاً فى (كولبرج) ، دخل فى صدامات عنيفة مع موظفى الحزب النازى ، وعارض بقوة فى استبعاد الضباط الذين توجد أدنى شبهة فى أنهم ينحدرون من أصل يهودى عن القوات المسلحة .

على أنه لم تكد تمضى عشر سنوات على ذلك حتى غير رأيه ، فأصدر خلال معركة روسيا أمراً إلى القوات التابعة له قال فيه : إن الجندى الألمانى ليس مجرد محارب ؛ وإنما هو حامل فكرة الوطنية الاشتراكية العنصرية ، وعليه أن يدرك تماماً ضرورة التطهر من العنصر اليهودى الدنىء !

وبرغم هذا التحول الهائل من الناحية الأيديولوجية ، فإن ذلك لم يجعله يفلت من تحقيق سرى قام به هيملر عام ١٩٤٣ للتحقق من شجرة أسرة أيريش فون مانشتاين بعد أن أصبح فيلد ماريشالاً ، ليعرف : هل فيها أى فرع يهودى ؟ وكان هيملر فى ظنه هذا مخطئاً .

* * *

ونعود إلى عام ١٩٣٦ ، فنرى أن مانشتاين قد عهد إليه بمنصب نائب الجنرال (بيك) رئيس أركان حرب الجيش الألمانى .

كان يومئذ فى الخمسين من عمره ، يملؤه الطموح ، وله ثقافة عالية ، وضابطاً لامعاً يُستمع إلى رأيه بصفة خاصة فى المسائل الإستراتيجية والتنظيمية .

وعلى عكس زملائه من الضباط الشبان ، فإنه استقبل بترحاب النظام الوطنى الاشتراكى

الجديد ، إذ بدا له أنه نظام حكم جاد وفعال ، على نقيض جمهورية فيمار ، وخاصة فيما يتعلق بسياسة التسليح وبعث الجيش الألمانى .

لكنه ظل مع ذلك غيوراً على مكانة طبقة الضباط ، مما جعله يتخذ من الجنرال (سيكت) موقفاً معارضاً للمشروعات النازية التى كانت تقوم على التوسع بقوة السلاح ، وكان ذلك على وجه التحديد هو السبب فى استبعاده عام ١٩٣٨ عن هيئة أركان الحرب ، وعين قائداً للفرقة الثامنة عشرة المرابطة فى (ليجنيتز) .

والواقع أن هذا التعيين كان نفياً بمعنى الكلمة ، وكان عليه قبل أن يترك هذا المنصب المتواضع أن ينتظر حتى صيف ١٩٣٩ ، عندما قرر الفوهرر الهجوم على بولندا ، فأنشأ مجموعة جيوش الجنوب فى (سيليزيا) التى وضعها تحت قيادة فون رونشتت . وتتكون من الجيش الرابع عشر بقيادة الجنرال (ليست) ، والجيش العاشر بقيادة الجنرال (رايشناو) . والجيش الثامن بقيادة الجنرال (بلاسكوفتش) .

وهنا رقى مانشتاين إلى رتبة نائب جنرال ، فأصبح رئيساً لأركان حرب هذه المجموعة من الجيوش ، ووضع لها خطط المعارك التى ستخوضها عند نهر (فستولا) ضد قوات (لودز) البولندية ، بيد أن مفخرته الكبرى التى حققها بعد ذلك ببضعة أشهر ، كانت على الجبهة الغربية عندما وضع مشروعاً يتضمن عدة نواح ثورية طور به نظريات « الحرب الخاطفة » .

وكان من شأن هذا التطوير أن اقتحم مانشتاين الذى لم يكن قد تخطى الثانية والخمسين من عمره دائرة الضباط الألمان العظام ، مثل : فون براوشتش ، وفون بوك ، وفون ليب ، وفون كلوجه ، وجميعهم كانت أعمارهم ما بين السادسة والخمسين والرابعة والستين .

* * *

وفى يوم ١٠ من يناير ١٩٤٠ كانت هناك طائرة ألمانية تحمل عدداً من الوثائق الخطيرة ، من بينها خطة أطلق عليها اسم شفرى هو (القضية الصفراء) ، وفيها تفاصيل غزو هولندا وبلجيكا ، ومن ثم الوصول إلى قناة بحر المانش ، ولأن هذه الطائرة ضلت طريقها وسط الضباب الكثيف ، فإن قائدها وكان يدعى الميجور (راينبرجر) هبط بها بمحض الصدفة فى بلجيكا ، فاستولى عليها الحلفاء .

وكانت الخطة تقضى بأن يضطلع الجناح الأيمن للقوات الألمانية ، بالهجوم الرئيسى وذلك بأن يعبر الأراضى الهولندية والبلجيكية والجزء الشمالى من فرنسا ، لكى يجبر قوات الحلفاء على

التقهقر حتى ساحل بحر المانش ، ثم يدفعها بعد ذلك إلى الجنوب من (السوم) ، ويحتل موانى القناة والساحل الهولندى ، بحيث يؤمن القواعد الجوية والبحرية التى يمكن منها ضرب الجزر البريطانية ومحاصرتها ، وكان المتوقع فى حالة نجاح هذه الخطة ، أن تضطر بريطانيا وفرنسا إلى إبرام معاهدة الصلح ، وتتيحان بذلك الفرصة لهتلر لكى يستدير إلى روسيا ، ويقضى عليها .

ولم يرض مانشتاين عن هذه الخطة : ربما لأن الدور الذى عهد به إلى قواته فى العملية كان متواضعاً ، فانتقدها بعنف فى وثيقة قدمها إلى القيادة العليا قائلاً : إن خطة (القضية الصفراء) لا تتضمن الإشارة بوضوح إلى السير بالمعركة حتى نهاية ظافرة . . فالهدف منها إحراز نصر جزئى ، هو هزيمة القوات المتحالفة فى شمالى بلجيكا ، واحتلال الساحل لجعله قاعدة للعمليات المقبلة .

لكن براوشيتش رفض هذه الوثيقة ، وكذلك فعل هالدر ؛ إذ رأى الكثيرون من الضباط العظام فى القيادة العامة أن مانشتاين إنما يحاول شق طريقه بين القيادات العليا بقوة الكتف . وكانت نتيجة ذلك إبعاده يوم ٢٧ من يناير ١٩٤٠ مع ترقيته إلى (بوميرانيا) لكى يتولى قيادة المجموعة الثامنة والثلاثين لجيوش المشاة .

ومع ذلك فإنه كان لا يزال عنيداً واثقاً من نفسه ، حتى إنه عندما حضر بعد ذلك بشهر واحد حفل غداء فى مقر المستشارية ببرلين ، لم يتردد فى أن يعرض على هتلر انتقاداته لخطة (القضية الصفراء) ، ويقدم له فى الوقت نفسه خطة بديلة من وضعه أسماها « ضربة المنجل » .

* * *

واقتنع الفوهرر على الفور بخطة مانشتاين ، لأن فكرة مماثلة كانت تدور فى ذهنه منذ بعض الوقت ؛ إذ كان يرى أن الهجوم الألمانى يجب أن يوجه إلى (سيدان) بفرقة مدرعة وأخرى ميكانيكية ، وعند ذلك استدعى مانشتاين إلى مكتبه الخاص ، وللمرة الأولى فى حياته أخذ يصغى إلى مانشتاين الذى أوضح له بلغة عسكرية جافة ، أن خطة (القضية الصفراء) إلى جانب أنها أصبحت معروفة لدى الحلفاء ، لا تسفر إلا عن هزيمة العدو .

وقال مانشتاين : « إن هذا يا سيدى الفوهرر ليس هدفنا ، وإنما يجب علينا أن نمحو العدو محواً ، وهو شىء مختلف عن مجرد هزيمته ! » .

كانت خطة مانشتاين تقضى بأن تقوم مجموعة الجيوش التى يقودها الجنرال فون رونشتت

بالهجوم عبر (الأردين) على كلا جانبي (سيدان) ؛ لكى تنقض بعد ذلك بسرعة البرق على (الموز) ، وتصل عبر فرنسا الشمالية حتى البحر عند (آبفيل) ، بعد أن تقضى تماماً على قوات الحلفاء المتجمعة فى الفلاندر ، وبعد تدمير هذه القوات تصبح بقية الجيش الفرنسى محاصرة ، فتضربها الجيوش الألمانية من عند جناحها الأيمن ، فتتبدد نهائيًا .

كان هتلر يستمع فى صمت ، فلما انتهى مانشتاين من تلخيص خطته ، لم يطرح عليه سوى بضعة أسئلة ، ثم وافق عليها .

وفى خلال الجزء الأول من معركة (فرنسا) لم تتح الفرصة لمانشتاين لكى يظهر ما يستطيع القيام به كقائد لأكبر مجموعة من الجيوش ؛ لأن قواته اندمجت هى والقوات المدرعة . إلا أنه فى المرحلة الختامية منها كان مانشتاين هو الذى قام بعملية الاقتحام الأولى فى الشرق عند (أميان) ، فأحدث الفجوة الكبرى التى تدفقت منها دبابات روميل .

وقد كتب المؤرخ البريطانى ب . ليدل هارت فى ذلك يقول : «لقد استطاع مانشتاين أن يجارى السرعة التى تقدمت بها الدبابات ، وراح يطارد فلول الجيش الفرنسى بقوات المشاة ، كما لو أنها كانت من القوات المحمولة . ولذلك كانت قواته أول من وصل إلى نهر السين وتجاوزته يوم ١٠ من يونية ١٩٤٠ ؛ إذ قطعت فى ذلك اليوم فى زحفها ٦٥ كيلو متر» .

* * *

وهكذا فإن مانشتاين – بما لديه من إحساس إستراتيجى عظيم ومعرفة متعمقة بإمكانات الوسائل الميكانيكية – قد بدا على مسرح الحرب الأوربى بوصفه الرائد النموذجى لعمليات الاقتحام الخاطفة المنسقة مع الدبابات على الأرض وطائرات القتال فى السماء .

وربما من أجل ذلك اختير – فى فبراير ١٩٤١ بعد أن رقى إلى رتبة جنرال – لكى يتولى ضمن مجموعة جيوش الشمال التابعة للفيلدمارشال (ليب) قيادة الفرق المدرعة التى كان عليها أن تركز هجومها على لينينجراد .

وقد اقتحم مانشتاين جبهة العدو عند وادى (دوبيسا) ، ثم انطلق إلى الأمام بسرعة البرق حتى وصل إلى (دفينسك) التى تبعد ثلثمائة كيلو متر ، وذلك فى أربعة أيام ونصف اليوم فقط ، واستولى فى طريقه على جميع الجسور الرئيسية التى على نهر (دفينا) قبل أن يتمكن السوفييت من نسفها .

غير أن حرب روسيا كانت تدخر له دوراً غير متوقع : فقد استدعى فى شهر سبتمبر إلى

الجنوب ؛ لكى يتولى قيادة الجيش الحادى عشر خلفاً لفون شوبرت الذى لقى مصرعه فى حادث ، وكانت المهمة الموكولة إليه هى أن يغزو مع القرم قلعة (سيباستوبولى) البحرية الحصينة .

وهكذا تحول رائد الحرب الخاطفة إلى خبير فى العتاد ورائد فى قيادة جيوش المدرعات ، وإستراتيجى فى المدفعية . والواقع أن مانشتاين ذهب يبحث فى ترسانات الجيش الألمانى عن كل عيار استثنائى : مثل المدافع الضخمة من طرازى (تور) و(أودين) اللذين تبلغ فتحة فوهتها ٦٠ سنتيمتر ، بل عن أكبر مدفع عرف فى التاريخ وقد تم صنعه سرًّا فى مصانع (كروب) ، وذلك ؛ لكى يدك تحصينات الصلب والأسمنت المسلح فى خط ماجينو .

لقد كان هذا المدفع الذى أطلقوا عليه اسم (دورا) بطول ٣٠ مترا ، وله قاعدة فى ارتفاع منزل من طابقين ، وعياره ٨٢ سنتيمتر ويعمل عليه أربعة آلاف رجل . ولكى ينقلوه إلى القرم كان لابد من قطار به ٦٠ عربة ! .

وبدأ (دورا) فى شهر يونية يطلق على (سيباستوبولى) ثلاث قذائف كل ساعة ، وزن كل منها سبعة أطنان ، ولها قدرة على تدمير أى جدار مدرع على عمق ثلاثين متراً فى باطن الأرض .

* * *

وقد أثمر احتلال هذه القلعة الحصينة للجنرال مانشتاين رتبة فيلد ماريشال ، مع الأمر بانتقاله مع كل العتاد اللازم للحصار إلى جبهة لينينجراد . غير أن مأساة ستالينجراد كانت تظهر فى الأفق : فعندما وجد باولوس نفسه فى شهر ديسمبر١٩٤٢ محاصرا ، أمره هتلر بأن يقاوم داخل المدينة بأى ثمن ، ولكنه وافق على أن يتقدم مانشتاين – الذى استدعى مرة أخرى إلى الجنوب – ووضعه على رأس مجموعة جيوش نهر الدون على طول خط (كوتلنيكوف) الحديدى ؛ لكى يفتح طريقاً فى الحصار السوفيتى .

وفى ستالينجراد راح الجنود يتغنون بعبارات تقول : «إن مانشتاين قادم . لقد أصبح هنا . . ! » . ومع ذلك ، فإن آخر يوم فى عام ١٩٤٢ قد حل ، ولا يزال الفيلدمارشال مانشتاين على بعد مائة ميل . على أن المدينة عادت فى ربيع عام ١٩٤٣ ، وواجهت الهجوم السوفيتى بعدة هجمات مضادة ، كتلك التى وقعت فى شهر مارس ، وأتاحت للألمان استرداد (كركوف) .

لكن العلاقات بينه وبين هتلر لم تعد طيبة : والواقع أنها لم تكن قط ودية ؛ إذ إن عبقرية مانشتاين العسكرية لم تكن لتشفع له عند هتلر ، الذى كان يتطلب انتماء سياسيًّا ، فضلاً عن نوع من الطاعة العمياء من جانب أى ضابط عظيم ، وهى شىء لم يكن الفيلدمارشال الجديد يوافق عليه . وإلى جانب ذلك ، كانت تُبَاعِدُ بين الرجلين مفاهيم إستراتيجية عدة : فهتلر لا يزال يؤمن بمبدأ «عدم الانسحاب أبداً» ، فى حين أن مانشتاين يرى أن الطريقة (الوحيدة) لتبديد الضغط الروسى المتزايد هى التراجع إلى الوراء .

* * *

وقد أصبح الخلاف بينهما حادًّا فى مارس ١٩٤٤ : ففى اليوم الثلاثين من هذا الشهر استدعى هتلر كلاًّ من مانشتاين وكليست إلى (أوبرسالزبرج) ، وقلدهما صليب الفرسان مع أوراق الغار ، ثم انتزع منهما القيادة التى أسندها إلى اثنين آخرين من الفيلدمارشالات . وُصِفا بعد ذلك بأنهما من أخلص الرجال له ، وهما (شورنر) و(مودل) .

ونقل مانشتاين الذى قيل رسميًّا إنه يعانى من مرض فى عينيه إلى (سيل) فى سكسونيا السفلى بحجة أن يتاح له علاج طويل ، وهناك أمضى وقته فى تأليف كتاب طبع بعد الحرب ، وأصبح من أكثر الكتب التى تناولت النواحى العسكرية فى العالم ، وكان اسم الكتاب : «الانتصارات الضائعة» .

وانتهت حياته العملية عند هذا الحد ، ولم يعد أحد يسمع اسم الجنرال مانشتاين حتى بين الضباط الذين حامت حولهم الشبهات بأنهم دبروا المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر فى شهر يوليو ١٩٤٤ .

وقد اعتقله الإنجليز بعد الحرب ، وحوكم بعد أربع سنوات فى (هامبورج) ، بوصفه مجرم حرب . وكانت تهمته أنه فى عام ١٩٤٢ استقبل بعثة ألمانية ذهبت إلى القرم ، لكى تتولى تطهير المنطقة من اليهود ، بغير أن يعترض هو على ذلك . وكان الاتهام يتضمن تسعة عشر بنداً . رأت المحكمة أنْ لا دليل ينهض على سبعة عشر منها ، ولكن بقى بندان ملخصهما أنه لم يتدخل على حين كان آخرون يقومون ببعض الفظائع . ومن أجل ذلك حكم عليه بالسجن ثمانية عشر عاماً ، يتعين أن يقضيها فى سجون (فيرل) .

غير أنه لم يمض منها سوى أربعة أعوام ، وحصل على العفو لأسباب صحية فى مايو عام ١٩٥٣ ، ثم انسحب من الحياة العامة ، ليعيش مع رفيقة حياته (الوحيدة) فى بافاريا . وفى

اليوم الذى غادر فيه السجن وعاد إلى بيته أقام أهالى الحى الذى يسكنه احتفالاً تحت نوافذ البيت ، عزفت له فيه الأبواق ودقت الطبول ، وجاءت هيئات رسمية لتشارك فى الاحتفال ، الأمر الذى ترتبت عليه فضيحة فى برلمان بون .

* * *

إن هذا العبقرى الإستراتيجى فى الحرب الخاطفة الذى عاش بعد ذلك عشرين عاماً أخرى وتوفى وهو نائم عشية إتمامه السادسة والثمانين من عمره ، لم يكن بكل تأكيد واحداً من أتباع هتلر ، ومع ذلك ، فإنه عندما ووجه بالفواجع الكبرى التى وقعت فى عصره ، وبالجرائم التى ارتكبها نظام الحكم النازى الذى كان هو فى خدمته – لم يزد على أن قال : إنه رجل حرب لا يعنيه إلا أن ينتصر فيها !

وعلى عكس من كانوا يدعون الإخلاص لهتلر ، فإنه تحمل بشجاعة مسئولية القرار الذى أصدره الفوهور يوم ١٧ من مارس ١٩٤١ لقواد القوات المسلحة ، وأمرهم فيه بتصفية المندوبين السياسيين الملحقين بالجيش السوفيتى ، وفسره هو على أنه قضاء نهائى على العقيدة البلشفية .

وقد بدأ مانشتاين يتخلى عن هتلر ، فقط عندما أدرك أنه ليس على مستوى كسب الحرب ، ولهذا السبب وحده دخل فى اتصالات مع مجموعة الضباط الذين تآمروا على الفوهرر . ويوم أن اتصل به هؤلاء للمرة الأولى فى ربيع عام ١٩٤٢ ؛ لكى يشاركهم فى (إضراب) الجنرالات – أبلغهم أنه لا يمانع فى ذلك ، ولكنه اشترط شيئاً واحداً يظهر مدى إخلاصه لمهنته كما يقول (آلن و . دالس) وهو أنه يريد أولاً أن يستولى على قلعة سيبا ستوبولى الحصينة .

وكائناً ما كان الأمر ، فإن مانشتاين كان جنديًّا (لا شأن له بالسياسة) ، وقد استغرقته مهنته والانتصارات التى أحرزها تماما ، ولو أنه كان لا يفتأ ينتقد أوامر هتلر الخاطئة . لكنه لم يسمح لنفسه قط أن يخالفها ، فلقد كان رجلاً بروسيًّا حقًّا ، يدين بالطاعة للحاكم الذى تضعه المقادير فى مقعد الحكم .

هتلر يستمع إلى تقارير عدد من جنرالاته عن سير المعارك فى روسيا ، وما طرأ من انسحابات لقواته وقد وجه إليهم اللوم الشديد على أنهم لم ينفذوا تعليماته بالصمود مهما كان الثمن

اجتماع هيئة الأركان مع الفوهرر وقد وضع هتلر بنفسه خطط عدة عمليات ناجحة ، منها غزو النرويج ، وأصبح بعدها يشترك على نطاق واسع فى التخطيط الإستراتيجى لكافة المعارك وقد أشرك معه فى ذلك الجنرال فون مانشتاين

obeikandl.com

الفصل العشرون

هانس جودريان

هجوم . . بقوات البانزر

من المعروف أن « الإستراتيجية » . . . هى ذلك الجزء من فن الحرب الذى يختص بالخطة العامة للعمليات بتصميمها ووضعها ، وجعلها مطابقة للقواعد والقوانين ، وأن « التكتيك » . . . هو الجزء الآخر من فن الحرب الذى يدرس استخدام القوات فى ميدان المعركة .

وعلى ذلك فإن هناك فرعين منفصلين لنفس « الفن » ، هما – وإن كانا غير متعارضين – من المقطوع به أنهما مختلفان من حيث الوسائل التى يستخدمانها ، وأساليب عملها ، والأهداف النهائية التى ترمى إليها كل من الإستراتيجية والتكتيك .

وكما أن هذين القطاعين لا يمكن أن يختلطا معاً ، فكذلك الشخصيات التى تلمع فى أحدهما تتميز عن الأخرى ، ونادراً ما تكون فيها صفات مشتركة . والإستراتيجى البارع ليس بالضرورة رجل تكتيك جيد ، والعكس صحيح ، إذ يندر أن يصبح هذا الأخير – وإن كان لامعاً – عبقريًا فى الإستراتيجية .

ولقد كان هذا المبدأ صحيحاً تماماً بالنسبة لهانس جودريان (المولود فى كولم عام ١٨٨٨ والمتوفى فى شفانجن عام ١٩٥٤) الذى استحق بجدارة أن يسجل اسمه فى التاريخ بوصفه واحداً من أفضل قواد الجيوش فى « ميدان المعارك » خلال الحرب العالمية الثانية ، وصانع عدد كبير من الانتصارات الأساسية التى جعلت ألمانيا النازية تنتصر فى معركة الدبابات ضد كلٍّ من بولندا وفرنسا ، والمرحلة الأولى من الحرب ضد الاتحاد السوفيتى .

أما اللبس الذى يجعل الكثيرين ينظرون إلى جودريان بوصفه رجل إستراتيجية أيضاً فإنما يرجع إلى الغموض الذى يحيط بمعارك الدبابات السريعة : أى الحرب التى لا تستغرق سوى

لحظة ، وتكون نتيجة لمعركة واحدة ، أو على الأكثر لبضع معارك قليلة . وهكذا فإن القائد الذى له قدرة على انتزاع النصر فى الصدام الذى يجرى على أرض المعركة – (وكان جودريان أبرع هؤلاء) – يعتبرونه كذلك رجل إستراتيجية عظيماً

ولقد ظل الجدل مستمرًّا طوال ثمانية أشهر فيما بين شهرى يوليو ١٩٤٤ ومارس ١٩٤٥ ، حول احتمال أن جودريان رجل «تكتيك» فقط ، أو أنه كذلك رجل «إستراتيجية» . . . عندما عينه هتلر رئيساً للقيادة العليا للجيش الألمانى ، وهى أعلى جهاز إستراتيجى حربى .

حقًّا إن جودريان فيه صفات تبرر هذا التعيين : فى مقدوره قيادة وتوجيه كل آلة الحرب فى بلاده ، ولكن فقط فى المرحلة التى تكون فيها مصاير الحرب مضمونة فى أى اتجاه . وقد فعل هو ذلك عن طريق نقله لأوامر هتلر قبل أوامره الخاصة . والمعروف أن الفوهرر قد هبط خلال المرحلة الأخيرة من الحرب بالسمعة العظيمة التى كانت لهذا الجهاز ، بإستراتيجيته الخاطئة .

وهكذا فإن الفترة التى قضاها إخصائى المدرعات على أعلى قمة عسكرية فى ألمانيا . تميزت بوقوع كوارث حربية أكبر على جميع الجبهات . وعندما فر هتلر فى منتصف يناير عام ١٩٤٥ نقل مقر قيادته العامة من (عش النسر) فى الجبال إلى برلين- وكان جودريان لا يزال فى منصبه هذا – جرت على ألسنة الألمان «نكتة» مؤداها أنه أراد بهذا النقل أن يكون فى منتصف المسافة تماماً بين القوات الروسية من ناحية ، والقوات البريطانية الأمريكية من ناحية أخرى فى اقترابها من العاصمة .

* * *

كان جودريان إذن رجل «تكتيك» عبقريًّا ، ورجل «إستراتيجية» أقل من العادى . والحق أن التقليل من صورة هاينس جودريان – وهو الشخصية التى أضفت عليها تهويلات الحرب وجانب من التاريخ رؤية ضخمة - تفترض معه إعادة النظر فى ناحيتين جرت العادة على أخذهما فى الأعتبار عند تقويمه :

الأولى أنه كان مبتدع «المدرعات» واستخدامها التكتيكى .

والأخرى أن حجم الانتصارات التى حققها جودريان فى ميدان المعركة كان له قيمة وأبعاد «مطلقة» .

والواقع أنه لم يكن هو مبتدع المدرعات ؛ كما أن انتصاراته بالرغم من ضخامتها وقيمتها

الفنية البارزة إنما كانت انتصارات «مؤقتة». وسنحاول هنا إيضاح هاتين النقطتين اللتين لا تقللان من الجدارة التى يستحقها هذا القائد، ولكنهما تضعانه فى حجمه الصحيح على ضوء الحقائق التاريخية التى باتت معروفة الآن.

إن الرجل الذى ابتدع المدرعات فى ألمانيا كان (أوزفالد لوتز) الذى عين عام ١٩٢٨ برتبة الكولونيل رئيساً لأركان الحرب فى القوات المحمولة، ثم أصبح بعد ذلك جنرالاً. وقد نقل لوتز بدوره جانباً كبيراً من أفكاره عن الجنرال الإنجليزى سير (بيرسى هوبارت) الذى كان أول من تنبأ بإمكان تحريك القوات المدرعة... ولو أن المؤسسة العسكرية البريطانية القديمة قد عاقبته على هذه الهرطقة، وطردته من هيئة أركان الحرب، وخاصة لأنه تجرأ منذ العشرينيات على القول بأن «فى استطاعة مجموعة متماسكة من الدبابات أن تقتحم وتمر من أى تكتل للعدو؛ حتى بدون المساعدة التى يمكن هذه المجموعة أن تتلقاها من المشاة!».

* * *

وقد طبق (لوتز) عند إعداد سلاح المدرعات الألمانى التجديدات التى أدخلها هوبارت على نظرياته؛ كما أنه زاد على ذلك أن طوربطريقة ثورية هذا السلاح، فلم يجعله مقتصرا على حماية المشاة؛ كما كان الأمر من قبل؛ وإنما حول المدرعات إلى وحدات تعمل بمفردها تناسب إلى أقصى الحدود التسليح المخفض الذى كان مفروضاً على ألمانيا:

ذلك أن بنود معاهدة الصلح التى وقعت بعد الحرب العالمية الأولى، كانت تحظر على ألمانيا صنع أى مدفعية ثقيلة، أو بناء وحدات بحرية كبيرة، أو أن يكون لها عدد ضخم من الجنود. غير أنه فيما يتعلق بالمدرعات فإن بنود السلام كانت غامضة نتيجة لما ينطوى عليه هذا السلاح من جدة. وكان (لوتز) يعرف كيف يظل فى نطاق التعهدات الدبلوماسية، على الأقل من الناحية الرسمية؛ كما أنه كان يعرف كذلك كيف يبعث الحياة فى سلاح يمكن أن يمثل «قوة صدام» فى مستوى أرفع بكثير مما تقضى به معاهدة الصلح، التى اقتصرت على أن تأخذ فى الاعتبار مجرد قطر فتحات المدافع، وعدد الرجال الذين يضمهم الجيش الألمانى.

وجودريان هو تلميذ لوتز وربيبه الذى أعطاه عام ١٩٢٩ قيادة الكتيبة الثالثة الراكبة، ثم عينه بعدها نائباً للكولونيل عام ١٩٣١، وألحقه بهيئة أركان حربه.

ولقد كان لوتز بدوره رجل فون فريتش الذى تولى منصب القائد العام للجيش عام ١٩٣٣، وفتح الطريق أمام تعزيز القوات المحمولة، وأنشأ ثلاث فرق للمدرعات، عهد

بقيادة إحداها وهى الفرقة الثانية المرابطة فى (فورزبورج) إلى جودريان .

ثم توالت بعد ذلك الأحداث المعروفة ، فاصطدم فون فريتش وهتلر مطالباً باستبعاد فون بلومبرج الذى كان وقتئذ وزيراً للدفاع . متذرعاً إلى ذلك بحجة أنه تزوج إحدى الراقصات التى تتداول الأيدى بعض صورها وهى عارية . أما الحقيقة فهى أن بلومبرج كان يمثل الجناح العسكرى الذى لديه استعداد للتمشى مع هتلر .

ووافق الفوهرر على ذلك تجنباً لحدوث فضيحة . غير أنه انتهز الفرصة . لكى يجرى عملية تطهير واسعة فى دوائر العسكريين ، فحمل ستة عشر جنرالاً وثمانية وأربعين ضابطاً آخرين على الاستقالة ، واستخدم اللعبة نفسها مع فون فريتش التى كان هذا قد استخدمها مع فون بلومبرج ؛ إذ أشاع أنه مصاب بالشذوذ الجنسى .

وهكذا أصبح جودريان الضابط العظيم الوحيد الذى لا تحوم الشكوك حوله من الناحية السياسية ، والذى يؤيد الإستراتيجية الجديدة للمدرعات ، وهى الإستراتيجية التى أعلن هتلر صراحة أنه يأخذ بها .

* * *

وجاء عام ١٩٣٨ ، وقد تم جزئياً تطهير الجيش الألمانى من الضباط «البروسيين» ومن الجنرالات الذين لا يريدون الخلط بين السياسة والفن العسكرى ، وأصبح هتلر متأهباً للانطلاق فى عمليات التوسع . وإن كانت فى ذلك مجازفة بدخول الحرب .

ودخل حربين خاطفتين ظافرتين فى بولندا وفرنسا ، ثم بدأ حرباً خاطفة ثالثة فى روسيا سرعان ما اتخذت طابعاً مختلفاً . ولا جدوى من أن نكرر هنا تفاصيل الأعمال التى جعلت اسم هاينس جودريان تقترن هى وصورة «الذراع المسلح» الذى أزاح به جهاز الحرب النازى من فوق مائدة اللعب دولاً بأكملها . على نقيض الحسابات التى وضعها الخبراء وتنبؤاتهم .

ولكى نقدم تحليلاً يكون بمثابة المقدمة لمناقشة القيمة الحقيقية للتكتيكات التى وضعها جودريان . نلخص عمليات التدخل التى قام بها «هاينس السريع» كما أطلق عليه الخبراء العسكريون العالميون فى هذه المعارك الثلاث :

فى معركة بولندا عام ١٩٣٩ ، كان جودريان قائداً للفيلق التاسع عشر مدرعات . وكانت خطة الهجوم المسماة (القضية البيضاء) تلقى على كاهله بمهمة «السباق إلى الشرق» على طول الممر البولندى . وبدأت المعركة يوم ٥ من سبتمبر . وفى يوم ٦ منه سقطت كراكوفيا .

وفى يوم ٨ منه أصبحت المدرعات الألمانية فى ضواحى العاصمة البولندية ، وفى الأيام التالية وصل الفيلق التاسع عشر مدرعات إلى برست – ليتوفسك ، واستولى عليها .

وهنا وقعت مذبحة لواء «بومورسكا» ، حيث راح الفرسان البولنديون يتدفقون بجيادهم فى موجات متتالية ، وفى أيديهم رماحهم الطويلة ؛ ليهاجموا الدبابات الألمانية التى برزت منها مدافع رشاشة أخذت تحصدهم جماعات جماعات ، فأفنتهم جميعاً ، ومع أن هذه كانت نهاية عصر بأكمله ، فإن الجيوش الأخرى لم تفطن إليها على الفور ، وكان ذلك من حسن حظ جودريان .

* * *

أما معركة فرنسا فى العام نفسه ١٩٣٩ فقد تجاهل فيها الألمان خط (ماجينو) الذى توفرت له دفاعات جيدة ، وراحوا يهاجمون عبر بلجيكا على حدود (الأردين) ، التى قال الخبراء فى باريس باستحالة مرور الدبابات منها ، لكن مدرعات جودريان الذى أصبح الآن يقود فرقتين هما الأولى والعاشرة اجتاحت الأردين فى يومين ، ولم تمض سوى ثمان وأربعين ساعة أخرى حتى غزت (سيدان) ، وإذا بالألمان يرون أمامهم نهر الموز الذى عبروه فى اليوم التالى . وكان ذلك يوم ١٣ من مايو .

وبعد ذلك بأسبوع واحد قام جودريان ومدرعاته بإنجاز تلك المعجزة الفنية العسكرية ، بل تلك الأسطورة الإنسانية التى أصبحت تسمى السباق نحو البحر» !

ولقد أفزع هذا السباق هتلر والقيادة العليا للسرعة الهائلة التى ينطلق بها جودريان بغير أن يكون تحت حماية أى غطاء من المشاة . وعند ذلك أصدر إليه الأمر بأن يتوقف ، لكن جودريان هدد بالاستقالة ، واستطاع أن يقوم بما يعتبر «انفجاراً فى القوات» : ذلك أنه ترك على نهر الموز قيادته العامة ، وتقدم رجاله على أول دبابة ، وأعطى الجميع الأمر بالانطلاق فى «اتجاه البحر» ، حتى آخر قطرة من الوقود .

وفى يومى ١٥ ، ١٦ من مايو دك العقبة الكبرى التى أمامه ، وهى الجيش الفرنسى التاسع الذى يقوده الجنرال (كوراب) ، ثم عبر يوم ١٨ منطقة (سامبرواز) ، واحتل (سان كانتان) ، وسحق فى طريقه قائداً مجهولاً برتبة الكولونيل كان يتولى قيادة فرقة من الدبابات الفرنسية يدعى شارل ديجول !

فلما كان يوم ١٩ أصبح جودريان عند (السوم) ، وفى فجر يوم ٢٠ احتل (أميان) ، وفى

عصر اليوم نفسه توقفت جنازير مدرعاته فوق بساط ممتد من الرمال ، وإذا بالمياه أمامها : إنه بحر المانش !

أما الجيب الذى أغلقه فقد ضم أفضل الجيوش الفرنسية وقوات الحملة البريطانية . وقد اتخذ الإنجليز طريق النجاة من البحر ، فى حين استسلم الفرنسيون على بكرة أبيهم !

* * *

ونجىء الآن معركة روسيا ، عام ١٩٤١ .

فى يوم ٢٢ يونية ، بدأت المجموعة الثانية لفرق المدرعات بقيادة جودريان التابعة لمجموعة جيوش الوسط التى تحت إمرة الفيلدمارشال فون بوك تقدمها وذلك فيما وراء (نيمن) فى اتجاه (بيريزينا) ، فى طريقها إلى مدن (كوبرين) و (سلونيم) و (مينسك) .

ودخل جودريان فى عدة صدامات دمرفيها الدفاعات السوفيتية التى تراجعت فلولها ، غير أنه كثيراً ما وجد نفسه فى مواقف صعبة وخاصة أن فون كلوجه الذى يقود مجموعة أخرى من الدبابات ، لم يستطع ملاحقة مدرعات جودريان .

وفى يوم ٣ من يوليو وصل الجيش الرابع الذى انضم إليه جودريان إلى أكثر الأهداف الممكنة طموحاً ، وهو احتلال مدينة (سمولنسك) ، وبات على أهبة التوغل فى اتجاه موسكو التى لا تبعد عنها سوى مائتى كيلو متر .

وقد كتب الجنرال هالدر من القيادة الألمانية العليا فى مذكراته عن تلك الأيام يقول : « يمكن القول - بغير مبالغة - بأن الحرب ضد روسيا قد انتصرنا فيها خلال أربعة عشر يوما » .

غير أن المبالغة موجودة فعلا ، وقد دلت على ذلك بقية سير الحرب ، ولكن لنختتم هنا هذا الحديث ، ونقفز إلى مرحلة تالية عندما لا تتكرر أسطورة حرب المدرعات الخاطفة : أى بعد أن حول هتلر مدرعات جودريان إلى (أوكرانيا) وقال : إن لها الأولوية : ذلك أن الهجوم على موسكو قد توقف ، ولم يُستأنف إلا فى شهر أكتوبر التالى : أى فى فصل الشتاء . لقد استطاعت بعض الدبابات الوصول حتى عشرين كيلو متر من العاصمة السوفيتية ، وإلى نقطة كانت تبدو منها قباب الكرملين . غير أن الوحل أولاً ، والثلوج بعد ذلك ، ثم تصميم الروس وتنظيمهم الدفاعى الصلب - كل ذلك أجبر المدرعات والجيش الألمانى بأكمله على التراجع إلى الوراء .

ونتيجة لهذا الفشل طرد جودريان من الجيش ، ومعه خمسة وثلاثون جنرالاً ، فانسحب

ليعيش حياة الضابط المحال على المعاش فى (شوانجاو) ، حيث يعث هتلر فى طلبه عام ١٩٤٣ ؛ لكى يعينه مفتشاً عامًّا على القوات المدرعة . وبالاتفاق مع (سبير) قام جودريان بنشاط عظيم فى إعادة تنظيم المدرعات وزاد من فعاليتها .

وبعد محاولة اغتيال هتلر التى وقعت يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ – جرت مواجهة عنيفة بين جودريان والفوهرر الذى أمره بأن يختار مكاناً يذهب لكى يعالج نفسه فيه « لستة أسابيع على الأقل » . وعند ذلك رد جودريان عليه قائلاً : « لست أدرى : هل سأعثر على مكان لن يقع فى أيدى العدو خلال الأسبوع الأول من فترة علاجى ؟ . . »

* * *

ولن نتوقف طويلاً عند جودريان فى محنته ، وإنما سنركز على جودريان وهو منتصر . إن تكتيكه فى هذا الانتصار – مثله مثل أى صورة من صور النجاح – غاية فى البساطة : فهو يختار نقطة ما فى تكتل العدو ، ويركز فى الهجوم كل ما لديه من قوة ، ويوجه ضربة واحدة فى منتهى العنف مستخدماً فى ذلك أفضل استخدام سلاح الطيران التكتيكى ؛ لكى يشل إمكانات العدو الدفاعية ، ثم يتقدم من خلال النقطة التى اقتحم منها دون أن يترك للخصم أى هدنة ، فيتعقبه ويقطع أوصاله فى أثناء فراره ، ولا يتخلى أبدا عن عقيدة القدرة القصوى على التحرك ، ويفتح لنفسه بعد ذلك مجال الانتشار على شكل المروحة .

إن نقطة القوة فى تكتيك جودريان تتبدى على الفور : فتقدمه لا يستند أبدا على المشاة . وفى ذلك الوقت كان الخبراء الذين تخلوا عن المفهوم الذى يقضى بأن تستخدم الدبابات بمثابة « دفاع عن المشاة » – قد ظلوا متمسكين بالمبدأ الذى يقول إن « على الدبابة أن تقتحم . . . وعلى المشاة أن تتقدم » .

أما بالنسبة لجودريان فإن الدبابة هى التى تتقدم وحدها . وقد أعلن هو منذ سنوات فى كتاب بارع أصدره عام ١٩٣٦ : « أن المدرعة لا ظهر لها » . وبغير الرابطة التى تتمثل فى التحرك فى نفس الوقت الذى تتحرك فيه المشاة التى تعزز الأرض التى يتم غزوها ، فإن جودريان يستطيع القيام بعمليات تعتبر « معجزات » ، يدين بها لشهرته ، بأن يتقدم فى عمق العدو الذى تقع فى صفوفه الفوضى ، ويكون متأخراً دائماً إستراتيجيًّا « يوماً على الأقل » فى الرد الملائم .

ولابد من الاعتراف كذلك بأن هذه الانتصارات قد أحرزها جودريان بدبابات أقل عدداً ، وأبطأ سرعة ، وأضعف تسليحاً ؛ وبدروع تقل فى غلظها كثيراً عن دروع العدو :

فى عام ١٩٤٠ لم يكن لدى الألمان سوى ٦٠٠ دبابة ذات مدافع عيار ٧٥مم و ٢٠٠٠ دبابة صغيرة لها مدافع عيار ٣٠ مم ، ودروع رقيقة للغاية . أما الفرنسيون والإنجليز فكان لديهم ٣٦٠٠ دبابة من طراز أقوى وتسليح أرقى : فدبابات (ما تيلدا) البريطانية لها دروع لا تخترقها فذائف الدبابات الألمانية الأولى ، أما الدبابات الروسية طراز ت ٣٤ فقد ظلت طوال الحرب أقوى بكثير من دبابات «تايجر» و «بانتر» الشهيرة سواء من حيث التسليح أو السرعة .

وذات يوم قال فون كلوجه لجودريان خلال نقاش جرى بينهما : «إن جميع انتصاراتك كانت دائماً معلقة بخيط رفيع !» ، وهذه هى الحقيقة ، وهى فى الوقت نفسه الجدارة التى يستحقها ، والحدود التى يقف جودريان عندها : فالمدرعة لا ظهر لها طالما أن العدو يفر أمامها ، وطالما أن ما هو جديد فى هذا التكتيك الحديث للدبابات والخوف من تقدمها الذى لا قبل لأحد بصده ، يشلان الجندى فى أرض المعركة ، ويشلان رؤساءه معه على إثر الذهول الذى يصابون به وهم داخل قياداتهم .

غير أن كل ذلك كان تاريخيًّا أمراً موقوتاً ، كما أن المجد الذى يعود إلى جودريان إنما يستند على وجه الخصوص على الأيام السبعة التى أسقط فيها بولندا ، والأيام العشرة التى انهارت بعدها فرنسا ، والأسبوعين اللذين أمضاهما فى الجبهة الروسية :

ذلك أنه ماكادت المفاجأة تنقضى ، ويظهر عدو ذو تصميم عسكرى مثل العدو السوفيتى ، يخالف الجيش الفرنسى المنعم وفرسان البولنديين الرومانسيين ، حتى دار الحظ مع جودريان : فإن مدرعاته التى تتقدم بغير مشاة فتضرب حصارا حول العدو ، إذا بها يضرب حولها هى الحصار . وعندما حدث ذلك إذا بهذه المدرعات لا تجد من يزودها بالوقود كما زودت عندما دخلت الأراضى الفرنسية ، ولا من يقدم إليها قطع الغيار ، فضلا عن أنها لم تستطع أن تغير أطقمها .

وعندما زال الخوف من «الرعب» الذى كانت تثيره الدروع الألمانية ، بدأ الجيش الروسى هجماته المضادة ، وكثرت غارات المناضلين المسلحين بقنابل مولوتوف ، وانتهى الأمر بأن توقف تقدم هذه الدروع ، وأخذت تسقط فى الشراك القاتلة ، أما «الخيط الرفيع» الذى أشار إليه فون كلوجه فقد أمكن أخيراً أن ينقطع !

عين جودريان رئيساً لأركان حرب القوات البرية فى اليوم التالى لمؤامرة ٢٠ يوليو ١٩٤٤ ضد هتلر ، وقد أعلن فى ذلك اليوم قوله . «إننى سأكون جباناً إذا لم أعمل على انقاذ القوات الألمانية العاملة فى الشرق» .

إن الحرب العالمية الثانية قد أثبتت - من الناحية التاريخية - أنه ليس هناك أى سلاح يمكن اعتباره سلاحاً نهائياً ، بما فى ذلك السلاح النووى ، إلا لفترة وجيزة تبدأ فور ظهوره .

وهكذا حدث بالنسبة لمدرعات جودريان . ولو أن ذلك لا يقلل بطبيعة الحال من «القيمة» التاريخية للأعمال التى قام بها فيما بين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٤١ . ولا من المجد الذى استحقه ، ابتداء من شجاعة شخصيته ، إلى جسارته البطولية التى كانت تجعله لا يتولى قيادة دروعه الهادرة إلا من برج الدبابة الأولى فى أول طابور يخوض القتال .

obeikandl.com

الفصل الحادى والعشرون

ألبرت كيسلرنج

قائد «الهزائم الرائعة !»

من الأسئلة التى ظل الفيلد ماريشال كيسلرنج يطرحها على نفسه ، حتى يوم وفاته عام ١٩٥٥ ، سؤاله عن السبب الذى جعل الإيطاليين يحقدون عليه . . . هو الذى أنقذهم من مآزق كثيرة ، برغم تحمله لخياناتهم وأخطائهم .

وربما كان دافعه إلى هذا التساؤل أنه كغيره من الضباط النازيين الذين عملوا مع الإيطاليين جنباً إلى جنب ، قد خرج بعقيدة راسخة هى أنهم ليسوا رجال حرب ، وأنهم لم يبرعوا إلا فى الخيانة والغدر .

والواقع أن أول لقاء لألبرت فون كيسلرنج مع ضباط من الجيش الإيطالى ، لم يترك فى نفسه عنهم أثراً طيباً .

ففى ذلك اليوم – وكانت الحرب قد بدأت بانتصارات ألمانية أكبر ، وأخذت ألمانيا بعدها تتهيأ لغزو بريطانيا – وصل إلى مقر قيادة كيسلرنج الذى كان يتولى قيادة الأسطول الجوى الثانى المرابط فى بلجيكا ضابط إيطالى عظيم ، هو الجنرال (رينوكورسو فوجيبه) قائد الفيلق الجوى الفاشى الذى رأى الدوتشى ببعد نظره أن يجعله يشترك مع الألمان فى انتصارهم القادم «المؤكد» .

وكان يحضر هذا اللقاء بين القائدين الألمانى والإيطالى ، الوزير هرمان جورنج الذى بدا حماسه وسخريته عندما قال للمبعوث القادم من لدن موسولينى : «إننى أنصحكم بأن تسرعوا فى الاستعداد للاشتراك مع القوات الألمانية . . . ففى خلال ثلاثين يوماً على الأكثر سوف نقضى تماماً على سلاح الطيران الملكى البريطانى ، وتبدأ قواتنا فوراً فى الهبوط إلى الجزيرة !»

وتراخى الجهاز العسكرى الإيطالى طويلاً ، وتباطأ فى إرسال طائراته برغم أن معركة

بريطانيا قد بدأت ، فلما وصلت أسرابها الأولى إلى (كاب جريس) يوم ١٩ من أكتوبر ، كان الموقف العسكرى قد تغير بصورة جذرية : ذلك أن الإنجليز كانوا فى سبيلهم إلى كسب المعركة الجوية وخاصة بعد أن فقد الألمان ١٧٥٠ طائرة من طائراتهم هوت محترقة فى البر والبحر .

وعند ذلك قل الحديث عن هبوط قوات هتلر إلى الجزيرة ، بل كاد أن يتوقف .

* * *

وبعد ذلك خيل أن قدر كيسلرنج العسكرى يباعد بينه وبين الإيطاليين ؛ فقد أرسله الفوهرر إلى روسيا حيث عاش مرة أخرى فى جو يشبه جو الانتصارات الألمانية التى تحققت فى فرنسا ، وتعاون هو والقوات المدرعة التى خصصت للاستيلاء على موسكو .

غير أنه عندما ساءت الأمور فى روسيا وتحول مجرى الحرب فيها بعثوه إلى إيطاليا ، ومعه ٦٠٠ طائرة ؛ لكى يقوم بدور البطولة فى مهمة عسكرية جديدة ، هى غزو جزيرة مالطة .

لم تكن مفاجآت الحرب وما فيها من ارتفاع وانخفاض ، قد أثرت فى كيسلرنج أو قللت من تفاؤله ، وكان فى ذلك تفسير لاحتفاظه الدائم بعطف هتلر . فهو لم يقل (لا) قط ، ويعد دائماً بالنجاح تلو النجاح ، كما يوافق على طول الخط على أى خطة تضعها القيادة العامة .

وكان النقاش يدور منذ زمن حول إنزال قوات المحور فى مالطة ، وتحدث عن هذا الموضوع الماريشال الإيطالى (أوجو كافاليرو) مع هتلر ، وعَقَدَ فى شهر يناير ١٩٤٢ بشأنه مؤتمراً مع الجنرالات الألمان والإيطاليين واليابانيين فى (جارميش بارتنكيركن) .

وعجل وصول كيسلرنج من الاستعداد للعمل . إنه رجل عسكرى يقوم بنفسه بأخطر الأمور ، ومن أجل ذلك شرع على الفور فى عملية استطلاع جوى فوق الجزيرة الصغيرة ، ثم عاد وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن مالطة تمثل تهديداً خطيراً للقوافل التى تحمل الإمدادات إلى القوات الالمانية العاملة تحت قيادة روميل فى أفريقيا ، وخاصة بعد الهزيمة التى أنزلها الإنجليز بالقائد الإيطالى (جراتزيانى) .

ولأن الفيلدماريشال كيسلرنج مطبوع على الطاعة والتفاؤل ، فإنه بعث إلى جورنج تقريراً يقول فيه : «إن مالطة قد أصبحت فى حوزتنا بنسبة سبعين فى المائة» . بل إنه فعل ما هو أكثر من ذلك ؛ إذ ذهب إلى القيادة الألمانية العليا ؛ لكى يقنع هتلر شخصياً بالعملية . فلما فرغ من إيضاح رأيه أخذه الفوهرر من ذراعه فى ود ، وقال له : «اطمئن . . . فسوف أتصرف فور المستطاع» .

وطرأت تحولات جديدة على سير الحرب ، فتقدمت القوات الألمانية على الجبهة الروسية ، وسيطرت تماماً على البلقان . غير أن العلاقات السياسية والعسكرية بين حلفاء المحور بدأت تسوء ، وأصبح الألمان هم السادة ، والإيطاليون هم العبء الثقيل الذى يستحب التخلص منه ؛ ولم يخف كيسلرنج - خلال شهور الاستعداد لغزو مالطة - أنه لا يكن أى ثقة بالقيادات الإيطالية ، إلى جانب أنه راح يسخر من تململ روميل طلباً لمزيد من العتاد ، فبدا فى نظره هو التكنيكى الهادىء مجرد قائد يلهو ويمرح فى رمال الصحراء !

وقد نشبت بينه وبين المارشال الإيطالى (كافاليرو) كذلك عدة مشادات هدف من ورائها إلى انتزاع قيادة العملية من الجنرال أنطونيو جانديني ؛ لكى يعهد بها إلى الجنرال الألمانى (لوهر) ؛ كما أنه بعث بتقارير كثيرة إلى هتلر يطلب فيها منه أن يوقف ذلك الجواد الجامح الذى يدعى روميل .

وفى يوم ٢ من مارس بدا كأن الغزو يوشك أن يبدأ بعد ساعات ، عندما هاجم كيسلرنج مالطة بـ ١٠٨ طائرات ؛ وكانت الخطة الفنية المستخدمة هى نفسها التى استخدمت فى معركة بريطانيا : فبعد الغارات الأولى على مالطة بدأت هجمات قاذفات القنابل من ارتفاع عال ، وذلك لإجبار المقاتلات البريطانية على الطيران فى الأجواء العليا . وعندما تصل الطائرات الإنجليزية إلى آخر مداها إذ بقاذفات قنابل ألمانية أخرى تجىء ؛ لكى تضرب أهدافها من ارتفاع منخفض .

ولم يكن هتلر مقتنعاً كل الاقتناع بضرورة العملية ، فاستدعى جنرالاته فى شهر أبريل ، وأجرى معهم الحوار التالى ، الذى تركه كيسلرنج مسجلاً فى وثائقه الخاصة ، ونقتطف منه الجزء التالى :

هتلر - إن جورنج يرى أن فى الإمكان أن يحدث فى مالطة ما حدث فى جزيرة (كريت) . وفكرة وقوع خسائر كبيرة فى جنود المظلات ليست محببة إلى نفسى على الإطلاق .

كيسلرنج - لا يمكن إجراء أى مقارنة بين الحملتين : فحول مالطة حراسة من النيران لن تصمد سوى بضع ساعات وعلينا أن نقتحمها بقوة كافية وفى أكبر عدد ممكن من النقاط .

روميل - لو أن الفيلق الأفريقى استولى على طبرق فإن ذلك سوف يسهل الحملة إلى أقصى حد .

كيسلرنج – اوافق على ذلك ، على أن يكون للهجوم أهداف محدودة . والح على القول بأن الاستيلاء على مالطة شرط جوهرى لاستمرار الحرب فى البحر المتوسط

* * *

كان الفيلد ماريشال كيسلرنج على حق ، ولكن أحداث الحرب ، ونفاد الصبر الذى أبداه روميل وهتلر ، كان من شأنهما أن رجحت كفة الهجوم البرى . ولقد كان هتلر هو الذى ألغى عملية الهبوط فى مالطة ، بهذه الرسالة التى بعث بها يوم ٢٣ من يونية إلى موسوليني وجاء فيها : «إن القدر ياعزيزى الدوتشى قد أتاح لنا فرصة لن تتاح مرة أخرى على المسرح الحربى ! إن الجيش الثامن البريطانى من الناحية العملية يمكن اعتباره قد دمر : ذلك أن آلهة الحظ فى المعارك تقف إلى جانب المحاربين مرة واحدة . فإذا هم لم يعرفوا كيف يمسكون بها فى مثل هذه اللحظة فإنهم لن يتوصلوا إلى ذلك أبدا» .

وسرعان ما انضم الماريشال الإيطالى (أوجوكافاليرو) إلى هذا الرأى ؛ فقد ذهب إلى قيادة كيسلرنج فى درنه ليقول له : إن الاستيلاء على مالطة غير هام ، وإن من الأفضل أن يعمق الهجوم فى شمالى أفريقيا ؛ وامتعض كيسلرنج أشد الامتعاض برغم أن انتصارات الفيلق الأفريقى قد توالت . إلا أنه لم يستطع أن يوجه أى نقد إلى الأعمال التى يقوم بها روميل فى إبان مجده ، وبينما هو يزحف على (مرسى مطروح) فى طريقه إلى الإسكندرية . أخذ تعاونه معه يصبح أكثر صعوبة يوما بعد يوم ، كما أنه راح يتخلف عن الذهاب إلى لقياه ، وامتنع عن إخطار قيادة الطيران بالمبادرات التى ينوى اتخاذها ؛ فضلا عن أن شيئاً ما ظل فى نفسه عن ذلك الرجل ، لا يقتنع به .

ولقد حان وقت النقد العلنى بعد موقعة (العلمين) ، وبعد التحول الكبير فى الحرب فى مصر وفى ستالنجراد : ففى ذلك الوقت أصبح روميل لا يعتقد فى النصر ؛ فهو لن يكون إستراتيجيًّا عظيماً كما يقول عنه كيسلرنج ، ولكنه مجرد قائد ذكى .

وهنا كان مصير الحرب قد تحدد ، والشىء الوحيد الذى كان يمكن الجيش الألمانى أن يفعله فى رأى روميل الواقعى . إنما هو أن يخسر هذه الحرب فى كرامة !

* * *

وعندما تراجعت القوات الإيطالية والألمانية أمام الضغط الإنجليزى ، واستقرت فى تونس ، بعث روميل إلى القيادة العليا يقول : «إن البقاء فى أفريقيا طويلاً يعتبر بالنسبة

لمجموعة جيوش المحور انتحاراً حقيقيًّا . . . ونظراً لخطورة الموقف فإنى أطلب أن يُتخذ قرار سريع فيما يتعلق بالمعركة المقبلة فى تونس» .

إن مثل هذه الصراحة والاستقلال فى الرأى قد اعتبرها رجل مثل كيسلرنج أمراً غير مفهوم : ذلك أن مفهومه عن التسلسل الرياسى مختلف ؛ كما أن فكرة أن يرى رأياً غير رأى هتلر أو القيادة العليا . . لا تخطر له على بال : ففى المعلومات التى كان يبعث بها إلى قائده وحاميه الماريشال جورنج كان يختلط الحقد وسوء النية بالنسبة لزميله روميل ؛ فقد كتب عنه يقول : «لست قادراً على أن أتخلص من شكوكى فيه ، ويجب أن أعرض بوضوح رأيى ، وهو أن الفيلق الأفريقى لم يحارب بعد العلمين ، بالعزيمة نفسها التى كان يحارب بها من قبل . وقد كنت أود لو أن لى بعض قواته . . .

ولم يخف كيسلرنج ارتياحه عندما غادر روميل تونس يوم ٩ من مارس ١٩٤٣ ؛ فقد كان فى أوج السعادة لتخلصه من غريمه ، فأصبحت له قيادة الفيلق الأفريقى الذى بدا كأنه لا يعرف الوضع المأساوى الذى هو فيه . وقد بلغت به الحال أن وعد القيادة العليا بعمليات خرافية ، وبمناورات يقوم بها ، من شأنها أن تنزل الهزيمة بالإنجليز أولاً ، ثم بعد ذلك بالأمريكيين الذين نزلوا فى المغرب .

غير أن هؤلاء قد أعادوه إلى صوابه فى عنف ، فوجهوا إليه هجوماً ضارباً فى شهر أبريل التالى ، ولقنوا فرقة هرمان جورنج المدرعة التابعة له درساً مريراً ، ثم أجبروه فى شهر مايو على الجلاء عن ذلك الجزء الذى اعتبر باب أوربا ، ومنذ تلك اللحظة حتى نهاية الحرب ، اضطر كيسلرنج أن يقتصر على أمر واحد ، هو تأخير الهزيمة ، وعرقلة تقدم جيوش الحلفاء التى نزلت فى جزيرة صقلية .

* * *

وقد اجتمع كيسلرنج وروميل للمرة الأخيرة معاً عندما سقط نظام الحكم الفاشى فى إيطاليا وقبولها للهدنة ، ثم ما رأته ألمانيا من ضرورة إعادة احتلالها، ونزع سلاح ما تبقى من جيوشها ، حتى الدبابات الإيطالية كانت فى رأى كيسلرنج «خيبة أمل» كاملة ، أما مارضى عنه فهى قطع المدفعية الأربعمائة التى تكدست فى شمالى إيطاليا .

وتوقف الهجوم يوم ١٨ من فبراير ، ثم عاد واستؤنف يوم ٢٥ ، فاحترقت نتيجة لذلك احتياطيات ثمينة . عند ذلك ثار غضب هتلر ، فبعث ببرقية إلى كيسلرنج يقول له فيها : «أريد

أن أرى وجه ذلك الشخص الذى أفسد جنود» .

وقصد وفد من عشرين ضابطاً كبيراً يقودهم الجنرال (فستغال) ؛ ليقدم تقريراً إلى الفوهرر ، وظل ثلاث ساعات يعرض عليه الموقف العسكرى الصعب ، وحالة التسلح ، وعدم وجود الطيران . ومن الأمور الغريبة أن هتلر استمع إليه وتركه يتحدث . فلما انتهى التقرير أمر (كيتل) رئيس أركان حرب الجيش الألمانى إلى الجنرال (فستفال) قوله : «لو أن واحداً منا هو الذى قال له ما قلت . . . لأمر بشنقه ! » .

وكائناً ما كان الأمر فإن المعجزات ليست كثيرة فى الحرب ؛ كما أن كيسلرنج لم يحقق أى واحدة منها إلا يوم ١٥ من مارس عندما استطاع «الشياطين الخضر» التابعون لفرقة المظلات الأولى صد الهجوم الذى قام به الجنرال الأمريكى (كلارك) على مدينة (كاسينو) الإيطالية ، وحشد فيه ٣٥٠٠٠ رجل و ٤٠٠ دبابة . إلا أنه كان واضحاً أن تلك مجرد وقفة فى الحرب ، وليست تغييراً جوهرياً فى الموقف العسكرى .

وفى ربيع عام ١٩٤٤ زاد خطر رجال العصابات فى إيطاليا ، مما بعث أكبر القلق لدى الجنرال (فولف) الحاكم العسكرى الألمانى الذى سارع بإنشاء قيادة خاصة لمكافحتها ، وجعل مقرها فى مدينة (مونزا) ، وخصص لها أربع فرق كاملة يتولى قيادتها الجنرال (تنسفيد) .

ولم يكن كيسلرنج معجباً بحرب العصابات هذه ، واعتبرها واحدة من الحروب الصغرى ، وحاول التقليل من شأنها ووصمها بالأعمال الإجرامية . وقد كتب فى مذكراته يقول : «إن أعضاء هذه العصابات مخربون يعملون ضد القوانين وضد الإنسانية ! إنهم جبناء يقودهم أشخاص مثلهم ، فيسرقون ويقتلون وينهبون ، كلما لاحت لهم الفرصة ، إنهم وصمة عار تتكون من خليط من الجنود الإيطاليين . . . الذين لا يتورعون عن ارتكاب أدنأ الجرائم» .

* * *

على أنه كان هناك وراء هذا الشعور بالاشمئزاز - نوع متزايد من القلق ، عبر عنه كيسلرنج فى تقارير أخرى ، جاء فيها : إن الجندى الألمانى الذى يحارب فى إيطاليا يرى فى كل مدنى – رجلاً كان أو امرأة – مخلوقاً يتهيأ لقتله غدراً . . . ويتوقع أن تنطلق عليه من كل نافذة فى كل بيت إيطالى رصاصة ترديه !

ولقد كان هناك سبب آخر يحمل رجلاً مثل كيسلرنج على القلق والانشغال ، هو حرصه على عدم التخلى عن جزء ولو صغيراً من سلطاته بالنزول عن احتكار مكافحة الإرهاب الذى

يقوم به رجال العصابات الإيطاليون . . . لجنود العاصفة الألمان .

ومن أجل ذلك راح يرهق نفسه ؛ لكى يبرهن للقيادة العليا على أن مقاومة الثورة فى أحد مسارح الحرب مثل إيطاليا أمر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسير الحرب ، ولابد لها من قيادة واحدة مسئولة عن كل منطقة النشاط العسكرى . وهذه القيادة هى التى يتولاها ، والتى يجب أن يخضع لها كل من يعمل فى مكافحة رجال العصابات بما فيهم الضباط الكبار فى فرق العاصفة .

وقد أمكن التوصل إلى حل وسط فى ذلك يقضى بأن الذين يقومون بالحملات على رجال العصابات هم جنود العاصفة بشرط أن يتلقوا الأوامر فى ذلك من الفيلدمارشال كيسلرنج . ولما كانت هذه العمليات قد انتهت دائماً بالفشل ، فقد أطلق على كيسلرنج أنه «قائد الهزائم الرائعة» .

غير أن فشله هذا لم يحجب قدراته كقائد بعيد النظر لا يقيم وزناً للإجراءات الضخمة أو التضحيات الجسيمة ؛ كما اتضح عندما بدأ الحلفاء ينفذون عملية (ديادیم) فى غزوهم لإيطاليا ، وهى العملية التى بدأت فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١١ من مايو .

* * *

كانت خطة الحلفاء أن تنطلق قواتهم التى احتشدت جنوب روما ومعها ٢٤٠٠ مدفع من رأس جسر أقيم فى مدينة (أنزيو) ؛ لكى تهاجم القوات الألمانية التى أخذت تتقهقهر منسحبة إلى الشمال ؛ لكى تقضى عليها قبل أن تصل إلى مدينة (كاسينو) ، وكانت قوات الحلفاء هذه مكونة من الجيش الأمريكى الخامس وملحقاته : أى قوات الدول الحليفة الصغرى ؛ وكما هى العادة فإن هذه القوات الأخيرة هى التى تدفع بها القيادة أول ما تدفع إلى المذبحة . وفى هذه المرة قام بهذا الدور المغاربة والبولنديون العاملون تحت إمرة الجنرال (أندرز) فور أن أصدر القائد العام الجنرال ألكسندر أمره بالهجوم يوم ٢٣ من مايو .

وسرعان ما تحطم خط (جوستاف) الذى احتمت وراءه القوات الألمانية . إلا أن كيسلرنج قد نجا من هذا الاقتحام نتيجة لقدرة قواته الفائقة على المناورة ، وكذلك نتيجة لخطأ ارتكبه الجنرال الأمريكى كلارك الذى لم يصدع لأوامر القائد العام الجنرال ألكسندر بالتقدم نحو مدينة (فالمونتونى) ، واتجه بدلاً من ذلك مباشرة إلى روما تطلعاً منه إلى أن يرتبط اسمه بأول عاصمة معادية يدخلها الحلفاء .

ولقد دخل كلارك العاصمة الإيطالية ظافراً يوم ٢ من يوليو ، غير أن الألمان استطاعوا مرة جديدة الإفلات من الحصار ، واتجهوا تبعاً للخطة التى وضعها كيسلرنج نحو الشمال ، حيث أقاموا خطًّا دفاعيًّا جديداً يبعد ستمائة كيلو متر ، عن الخط القديم الذى انهار .

إن نقاشاً طويلاً قد دار حول سلوك كيسلرنج خلال هذا الانسحاب ، ويقول رجال العصابات والمدنيون الإيطاليون من ضحايا الإجراءات التى اتخذها : إنه كان مثل (عطيل !) . والواقع أنه إذا أخذنا بما كان يتبع فى الحرب العالمية الثانية من ارتكاب للفظائع ، فإن سلوك كيسلرنج يبدو مما يعتبر مباحاً فى أى حكم عسكرى .

ولو أنه أراد لكان ممكناً أن يكون أكثر وحشية وقسوة ، إلا أننا لا نعرف : هل اعتداله هذا راجعٌ إلى طبيعته الحذرة ، أو إلى شعور بالرحمة كامن فيه ، أو إلى اتجاه انتهازى ؟ والحقيقة هى أنه ابتداء من ربيع عام ١٩٤٥ ، أخذ جميع القادة الألمان يفكرون فى تكوين رصيد أدبى لهم لدى الحلفاء . وكانت الطريقة (الوحيدة) لذلك هى أن يعاملوا الشعب الإيطالى فى رفق ، وأن يدخلوا فى مفاوضات مع الشركات الصناعية الإيطالية التى تحولت ؛ لتصبح ممثل الحلفاء الذى يضعون فيه كل ثقتهم . . .

* * *

هذا هو السبب الذى جعل كيسلرنج لا يصر على تدمير المصانع الإيطالية ، ويتجنب تحويل المدن الإيطالية إلى ميادين معارك ، وراح ينتظر بدوره لحظة الهزيمة .

وقد كتب المؤرخ الإيطالى (فاليانى) يقول : إنه لو كان نزول الحلفاء فى جنوبى فرنسا قد حدث فى شهر سبتمبر ١٩٤٣ كما كان ينتظر ، ثم هوجم شمالى إيطاليا على الفور ، لما تردد كيسلرنج فى تدمير كل الصناعات الإيطالية . وربما كان ذلك محتملاً . . . إلا أن كلمة (لو) لا مكان لها فى كتابة التاريخ .

إن كيسلرنج فى نظر التاريخ – رجل طموح متعطش إلى السلطة ، لكنّ فيه نوعاً من التوازن . ولقد حدا به الحذر أن ينتظر حتى اليوم الأخير فى الهزيمة قبل أن يسلم الجيش الذى يقوده إلى الحلفاء الذين تدفقوا على جميع أرجاء إيطاليا فى شهر أبريل ، ولقد كان ذلك كافياً لإنقاذ حياته ، وليضمن له شيخوخة مطمئنة ومحترمة ، وفى هذا كانت آخر مناوراته الناجحة .

الفصل الثانى والعشرون

فردريش فون باولوس

آخر المراحل : ستالنجراد

كان هناك جيش يقوده فون باولوس فى روسيا ، هو الجيش الألمانى السادس الذى اعتبر فناؤه نقطة التحول الحاسمة فى الحرب العالمية الثانية .

وقصة هذا الجيش لم تبدأ عند مدينة ستالنجراد التى حوصر فيها . وإنما تقرر مصيره فى بقعة إلى ما وراء ذلك بكثير ، وهى بقعة تمتد إلى الغرب من هذه المدينة ، وعند ضفاف نهر صغير مجهول ، يقال له نهر (إكساى إيزاولوفسكى) :

فى هذه البقعة بالذات فشل الهجوم الذى قام به الجنرال الألمانى (هوث) بجيش المدرعات التابع للواء (هونرسدورف) نتيجة للمقاومة الباسلة التى لقيها من جانب كتيبة حملة البنادق السوفييت رقم ١٣٧٨ التى تتبع اللواء العشرين من المدفعية المضادة للدبابات ، ومعها اللواء المدرع الخامس والخمسون . وكان يقودهما ضابطان برتبة كولونيل هما : (دياسمنز) و (أصلانوف) . . .

كانت المنطقة سهلاً منبسطاً مترامى الأطراف تتخلله فجوات عميقة تراكمت فيها الثلوج فى تلك الأيام القارسة البرودة فى ديسمبر ١٩٤٢ ، وبسطت فوقها طبقة غليظة من الجليد كانت تنهار تحت وطأة القنابل المتساقطة عليها ، فلا تلبث أن ترتفع منها ألسنة النيران التى تمسك بالدبابات الألمانية المختبئة فيها .

ولو كان الجنرال (هوث) هذا قد استطاع أن يعبر بمدرعاته تلك البقعة لاختلف مصير معركة ستالنجراد ، وربما مصير الحرب بأكملها . لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك نظراً إلى أن عناصر كثيرة وقفت ضده : من بينها مشاعر من الخوف والحيرة استولت فى ذلك الوقت على بعض جنرالات هتلر .

ولقد وضع الفيلدمارشال فون مانشتاين الذى اتُّفِقَ عالميًّا على اعتبار أنه أكبر عقلية فى هيئة أركان الحرب الألمانية خطةً جسوراً لتخليص هذا الجيش تستند أساساً على عمليتين ، وقد عهد بالعملية الأولى التى أسماها (إعصار الشتاء) إلى الجنرال (هوث) الذى عليه أن يتقدم على رأس جيش المدرعات السابق ذكره ، فيزحف على ستالنجراد ، ويفتح لنفسه بين القوات المحاصرة فجوة تكفى مرور ثلاثة آلاف طن من المؤن والذخائر لازمة لقوات فون باولوس ، لكى يقوم بدوره بتنفيذ العملية الأخرى التى أطلق عليها اسم (دوى الرعد) عندما يلقى من مانشتاين الأمر بذلك .

وكان الهدف من هاتين العمليتين تمكين القوات المحاصرة من الخروج من المدينة ، والانضمام إلى قوات الجنرال (هوث) .

وللحصول على موافقة هتلر على هذه الخطة جعلوه يعتقد أن المقصود منها توصيل الإمدادات إلى الجيش السادس ، لكى يتمكن من الصمود داخل ستالنجراد . فإذا ما تمكن هذا الجيش من الانسحاب فإن الفوهرر سوف يستسلم للأمر الواقع ، كما فعل فى مرات أخرى سابقة .

وفى يوم ١٢ من ديسمبر تقدمت مدرعات (هوث) بأمر من مانشتاين ، واندفعت إلى الأمام ، وهاجمت الوحدات السوفيتية وبددت شملها ، ثم أخذت تزحف فى اتجاه ستالنجراد .

كانت تلك أياماً درامية فقد كانت المقامرة تقضى : إما أن يكسب الألمان كل شىء ، أو يخسروا كل شىء !

ولقى (هوث) فى طريقه اعتراضات تتزايد كثافتها باستمرار من جانب السوفييت ، فاضطر إلى التوقف ، ولكن بعد أن أصبح على بعد خمسين كيلو متر فقط من ستالنجراد . وهذه الكيلومترات الخمسون ليست بالنسبة لفون باولوس عقبة لا يمكن تخطيها ، فما زالت لديه قوات وأسلحة كافية ، لكى يواجه مسألة الخروج من المدينة .

إنها الفرصة الأخيرة : فإما نجاة الجيش السادس من الحصار ، وإما أن يفنى على بكرة أبيه ! غير أن فون باولوس طلب من فون مانشتاين أن يبعث إليه عن طريق المبرقة الكاتبة التى تربطه بمدينة ستالنجراد بسلطات كاملة للهجوم ، لكن مثل هذا الطلب كان معناه جعل مانشتاين يسجل فى وثيقة رسمية ، أنه خرج عن طاعة هتلر ، وكان ذلك حقًّا أمراً كبيراً .

وهكذا رد عليه مانشتاين بأنه لا يستطيع أن يقدم إليه ما طلب ، وتركت المشكلة لقرار تصدره القيادة العليا ، وظل فون باولوس ينتظر ، والوقت يمر ، وهو عاجز عن اتخاذ قرار إلى أن اضطر مانشتاين أن يأمر الجنرال (هوث) بالانسحاب .

* * *

وهكذا فشلت الخطة التى ما كان يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا تمت فى طى الكتمان ، وباتفاق سرى بين الجنرالات . وربما كان مانشتاين يطلب أكثر مما يجب من الرجل – أى فون باولوس – الذى قال عنه الجنرال هايم فى تقريره السرى كضابط ما يلى : «يعمل فى بطء وحذر ، ولكن مع ميل إلى التأمل العميق والطويل فى أى قرار قبل أن يصدر بشأنه الأوامر اللازمة . والخلاصة : أنه لا يقرر فى تسرع» .

إن الأسطورة التى تحيط به تنسب إليه أنه يحمل أحد الألقاب النبيلة ، وهو ما يفسر كلمة (فون) التى تسبق اسمه ، ولكن الحقيقة هى أن فردريش باولوس ما كان يستطيع الادعاء بأنه ينحدر من أصل أرستقراطى : ذلك أن أباه إرنست كان يعمل كاتباً فى أحد المعاهد ، على حين كانت والدته (مارتا نتلبيك) وهى سيدة فى غاية الجمال ، ابنة مدير ذلك المعهد نفسه .

وبفضل الترقية التى حصل عليها عشية استسلام ستالنجراد . فإن فون باولوس سوف يصبح ذات يوم – هو وروميل – أصغر ضابط عظيم ؛ إذ كان فى الثانية والخمسين يحمل رتبة فيلدمارشال . غير أن وجوه الشبه بينه وبين روميل تتوقف عند هذا الحد : فلقد ولد فى شهر سبتمبر ١٨٩٠ فى (بريتناو جرساج) وأتم دراسته الثانوية فى (كاسل) ، ثم تقدم مباشرة للالتحاق بالبحرية التى رفضت طلبه : ذلك أن البحرية سلاح تقليدى متزمت يلتزم بقواعد صارمة فى اختيار كوادره .

وعند ذلك أبلغ فون باولوس والديه أنه يريد أن يصبح محامياً ، فالتحق بالفعل فى عام ١٩٠٩ بكلية الحقوق بجامعة (ماربورج) إلا أنه ما كاد يقضى فيها ستة أشهر حتى وجد نفسه مدفوعاً إلى الجيش ، حيث التحق بكلية إعداد ضباط المدفعية التى تخرج منها فى العام التالى برتبة ملازم .

* * *

وقد تميز فون باولوس بطول القامة ورشاقتها ؛ مما جعله موضع إعجاب النساء . فأطلق عليه زملاؤه اسم «الضابط ذو السكس إبيل» . وفى خلال إجازة قضاها فى (الغابة السوداء)

التقى هو وفتاة تدعى هلينا كونستانس ، فتزوجها فى عام ١٩١١ ، وأنجب من هذا الزواج ثلاثة أبناء : فتاة أسماها (أولجا) ، وتوءمين هما (فردريش) و (إرنست) اللذين كانا ضابطين برتبة ملازم فى الحرب العالمية الثانية . وقد قتل أحدهما وهو فردريش – بينما كان يحارب فى إيطاليا ، وكان أبوه عند ذلك قد وقع فى الأسر .

وحتى زوجته (هلينا) توفيت بينما كان أسيراً فى ٩ من نوفمبر ١٩٤٩ ، بعد سبع سنوات من معركة ستالنجراد بغير أن تراه مرة أخرى ؛ حتى عندما نقله الروس سرًّا من موسكو إلى (نورمبرج) للإدلاء بشهادته ضد القادة النازيين .

ولقد ذهب فون باولوس إلى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، فى العام الذى رزق فيه بابنته (أولجا) . وقد استرعى الأنظار إليه فى أواخر هذه الحرب ، عندما رقى إلى رتبة ملازم عام ١٩١٨ ، وحصل على وسامين لشجاعته فى موقعة على الجبهة الفرنسية ، لكن ألمانيا بدأت عند ذلك تترنح ، وإذا بالحرب تسير نحو طريقها الطبيعى . إلا أن فون باولوس لم يهجر الجيش ؛ فقد اختير من بين الأربعة آلاف من الضباط الذين سمحت معاهدة (فرساى) بأن يحتفظوا برتبهم وبذلاتهم العسكرية .

ولقد كان ذلك هو الخطأ الذى وقع فيه الحلفاء المنتصرون ؛ لأن هذه المجموعة من الضباط بالذات – وجميعهم متزمتون وتملؤهم الرغبة فى الثأر – هم الذين نشأ على أكتافهم الجيش الألمانى الجديد الذى سوف يضع نفسه ذات يوم فى خدمة أدولف هتلر .

* * *

لم يكن هناك أى شىء فى تلك الأعوام يوحى بحدوث ذلك الانقلاب المثير فى الأفكار لدى فون باولوس خلال فترة الأسر .

فى عام ١٩٢٠ انضم إلى انقلاب (كاب) الرجعى ، وفى عام ١٩٢٢ دخل هيئة الأركان العامة المركز العصبى للجيش ، وفى العام التالى أرسل إلى كاسل وشتوتجارد ، وفى عام ١٩٣١ نقل إلى برلين ، وعمل فى وزارة الحربية مدرساً للتكتيك وتاريخ الحرب . وكان معنى ذلك أن عدداً كبيراً من ضباط الجيش الألمانى يمرون من بين يديه .

لقد طرأ تحول ضخم الآن على حياته العملية : فقد انتقل من بطولات الحرب العالمية الأولى لكى يجلس وراء المكاتب . فإلى جانب الإستراتيجية ، نراه يتخصص فى أساليب الإمدادات ، وأصبح خلال وقت قصير أحد ضباط أركان الحرب الممتازين قادرا على التفكير

العقلى أكثر منه على الحركة ، ولما كان رجلاً ميالاً إلى الصمت ومنضبطاً ، كان يعتقد أنه لا يستطيع قبول رئيس مثل هتلر ، بمذاقه الغوغائى ، وسلوكه المسرحى وخطاباته الهستيرية . إلا أنه ارتبط به ، وإن لم يعلن عن ذلك ، ربما بتحفظ الجندى العقلى إزاء الرؤساء السياسيين ، ولكن من غير المحتمل ألا يكون فون باولوس قد تأثر بالوعود البراقة التى كان هتلر يقطعها على نفسه فى الميادين العامة ، بقيام ألمانيا العظمى .

وفى عام ١٩٣٤ أصبح جنرالاً ؛ فلما كان عام ١٩٣٥ إذا بنا نراه رئيساً لأركان حرب القوات الميكانيكية ، وهى أحد مراكز العمليات الحساسة . وهنا أخذت شهرته كمنظم عبقرى تتسع حتى إذا اندلعت الحرب العالمية الثانية أخذه فون رايشنآو معه فى البداية رئيساً لأركان حرب الجيش العاشر الذى عمل فى بولندا عام ١٩٣٩ ، ثم بعد ذلك بعام رئيساً لأركان الجيش السادس العامل فى الميدان الغربى .

وكانت العمليتان السياسية والجغرافية اللتان قام بهما هتلر فى أوربا ، تحملان توقيع فون باولوس ، إلى جانب غيره من التوقيعات .

* * *

إن من النادر أن نرى فى تاريخ الجيوش مثل هذا الاختلاف فى الطباع ، الذى وضح فى الجيش الألمانى ؛ فلقد كان رايشنآو رجلاً سريع الغضب ، فيه حيوية تفوق كل تصور . أما فون باولوس فكان هادئ الأعصاب ، يستطيع الجلوس طويلاً ، دقيقاً ، يحيا فى خيمة للتفكير بين المبرقات الكاتبة وأجهزة التليفون والخرائط ، وكله استعداد عند اللزوم ؛ لكى يمضى الليالى على مكتبه ؛ لكى يضفى على خطط المعارك طابعاً هندسيًّا كاملاً ، لا يترك أى شىء للصدف ، وتقوم حساباته على توقع كل شىء .

وعندما أرسلوه فى مهمة للتفتيش فى شمالىّ أفريقيا عاد وكله اشمئزاز من الأعمال الارتجالية التى تميز بها (روميل) ، بل إنه ألمح إلى ضرورة أن يستبدل به قائد آخر .

وقد اختاره الجنرال (هالدر) فى أواخر صيف ١٩٤٠ ؛ ليعمل معه ؛ ثم دعاه إلى قيادة هتلر العامة فى (زوسين) ؛ ليعهد إليه بوضع خطة الهجوم على روسيا ، وهى الخطة التى أطلق عليها اسم «عملية ذى اللحية الحمراء» .

ومرة أخرى انكب فون باولوس على الخرائط ، وراح يحدد المسافات ، ويحسب المنحنيات ، ويقدر قوى الصدام ، واحتياجات تموين الجيوش ، وكل ما يمكن أن تتطلبه

أكبر عملية هجوم يقوم بها الجيش الألمانى .

ولقد سأله قضاة محكمة (نورمبرج) ذات يوم : هل كان يرى أن الهجوم الذى وقع على روسيا عمل عدوانى ؟ فقال : «كان رأيى أنا وغيرى خلال الوضع الذى كان قائماً وقتئذ - بوصفى جندياً - أن أقوم بواجبى كاملاً لوطنى ! » .

وهنا اعترض أحد القضاة بقوله : «برغم معرفتك للحقائق ؟» فأجاب : «إننى لم أدرك إلا متأخراً الطابع الإجرامى فى ذلك العدوان عندما أصبح لدى الوقت للتأمل ، والربط بين المقدمات والنتائج ، ولكن فى ذلك الوقت لم أكن أعرف سوى بعض الحقيقة» .

* * *

وقد وجهوا إلى فون باولوس سؤالاً آخر : ألم يكن قد فطن إلى العيوب الأساسية فى عملية «ذو اللحية الحمراء» وأنه نتيجة لفشل هذه العملية ، سوف يبدأ الانحدار بالنسبة لألمانيا ؟ غير أنه رد بأنه لم يكن هناك شىء جعله يفطن إلى ذلك . حتى مذكراته قد التزم فيها الصمت إزاء هذا الموضوع .

والواقع أن الخطة التى وقعها على الخرائط جاءت كما هى العادة غاية فى الكمال . غير أنها لم تأخذ فى الاعتبار - بما فيه الكفاية - رد الفعل لدى الروس .

وهكذا فإن الجيش الألمانى - بعد أن دمر جيوشاً كاملة ، واحتل كل روسيا البيضاء ، ودول البلطيق ، وثلاثة أرباع مخازن القمح الأوكرانية - إذا به يتوقف فجأة حيث لم يتصور أحد : أى أمام موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتى .

وكان هذا هو أول خطأ تقع فيه أداة العدوان الهتلرى ، أما الخطأ القاتل (الثانى) فيسمى ستالنجراد . وحتى هذا فإنه اقترن باسم فون باولوس .

على أنه كان لا يزال هناك أمر واحد ينقص هذا الرجل ؛ لكى يصعد إلى قمة المجد العسكرى الألمانى ، وهو أن يتولى قيادة جيش فى الميدان . ومع ذلك فإنه عندما مرض فون رايشنآو ، وأصبح غير قادر على مباشرة قيادة مجموعة جيوش الجنوب والجيش السادس ، ويقترح أن يتولى فون باولوس قيادة هذا الجيش ، فإنه وافق على الفور .

وجاءه أمر التعيين يوم ٥ من يناير ١٩٤٢ قبل بضعة أيام من وفاة فون رايشنآو ، وربما لم يدرك أحد فى البداية أهمية المهمة التى عهد بها إلى فون باولوس ، والأهداف الرئيسة للجهاز الحربى الهتلرى ، نظراً إلى أن كلاً من موسكو ولنتجراد فى الشمال .

ولكن فون باولوس تلقى فى شهر أغسطس أمراً بالزحف على نهر الفولجا واحتلال ستالنجراد فى الوقت الذى انطلقت فيه مجموعة أخرى من الجيوش فى الطرف الجنوبى ؛ لكى تصل إلى القوقاز ومنابع البترول السوفيتية .

وبدأ الهجوم على روسيا يوم ١٩ من أغسطس ، واندفعت القوات الألمانية كالسهام عبر الأراضى السوفيتية .

واجتازت طلائع سريعة نهر الدون ، وفى يوم ٢٣ وصل طابور ألمانى مدرع إلى نهر الفولجا ، وفى يوم ١٣ من سبتمبر دخل الجيش السادس ستالنجراد محتلا المدينة بأسرها تقريباً . وهنا أعلن هتلر على العالم أن الروس قد انتهوا ، ودالت دولتهم !

* * *

لكن الفوهرر لم يدخل فى اعتباره قدرة رد الفعل لدى العدو ، والواقع أن الروس قد دفعوا إلى أتون الحرب بقوات جديدة فى شهر نوفمبر التالى قدر عددها بمليون ونصف مليون رجل . اقتحموا الجزء الشمالى الغربى من ستالنجراد فى القطاع الذى تحتله قوات من رومانيا ، والجزء الجنوبى عند الجبهة الألمانية .

وهكذا وقع الجيش السادس فى الحصار ، وانغلقت عليه ثغرة هائلة الحجم ، ولو أنه كان لا يزال هناك ستار ضعيف من القوات تقف إلى الخلف ، وليس من المستحيل اقتحامه .

إن رجلاً فى مثل ثقافة فون باولوس واستعداده العسكرى ، لابد أن يكون قد أدرك أن الأمر الوحيد الممكن لإنقاذ جيشه هو الانسحاب السريع ، أو بمعنى آخر التراجع سريعاً إلى الوراء ، غير أنه فى هذا الوقت بالذات بدا واضحاً تماماً الفارق بين ضابط متمرس بمجرد رسم العمليات فى مكتبه على الخرائط ، وبين آخر قادر على اتخاذ القرارات الفورية فى ميدان المعركة .

ولقد كان فون باولوس من السذاجة مما جعله يطلب الإذن يوم ٢٢ من نوفمبر من هتلر قبل أن ينسحب : ذلك أن الرد الذى جاءه كان سلبيًّا ، ويتضمن الأمر بألاّ يغادر الجيش السادس نهر الفولجا ، وأن عليه أن ينغلق على نفسه داخل دائرة ، انتظاراً إلى أن يتم فك هذا الحصار من الخارج فى الربيع القادم .

ولو أن الشخصية التى تتولى القيادة هنا كانت أكثر ثباتاً من فون باولوس ما أطاع صاحبها هذا الأمر ، لكنَّ تصرفاً من هذا القبيل يمليه الدافع الداخلى الغريزى يتعارض صراحة

وشخصية فون باولوس الذى صدع للأمر ، فحكم بذلك على جيش يضم ٢٤٠٠٠٠ جندى بالفناء !

ولاحت له فرصة أخرى فى شهر ديسمبر للخروج من الحصار . إلا أنه بدلاً من أن ينتهزها راح يطلب من فون مانشتاين أمراً «مكتوباً» كان من المستحيل على هذا الأخير أن يرسله إليه .

ولقد كان الاستسلام عند هذه النقطة هو الحل الوحيد الذى يمكن به إنقاذ حياة عشرات الآلاف . إلا أن فون باولوس تمادى فى عناده ، وقرر المضى إلى النهاية فى المقاومة ، وهو يردد كلمات الولاء لهتلر ، وهى كلمات من المؤكد كان ذكاؤه يأبى الاقتناع بها . ولكنه كان لا يزال يذكر ما قاله له هتلر فى الرسالة التى رقاه بها إلى رتبة فيلدمارشال : «ليس هناك ضابط يحمل هذه الرتبة . . . قد استسلم فى الجيش الألمانى ! » .

وربما كان الفوهرر يحث بذلك فون باولوس على الانتحار ، غير أن هذا انتهى به الأمر أخيراً إلى الاستسلام يوم ٣١ يناير ١٩٤٣ ، فضمن بذلك بقاءه على قيد الحياة . . . ولكن ليس بقاء جنوده الذين تكدست جثثهم فى العراء تحت حطام تلك المدينة على نهر الفولجا !

* * *

وحتى فترة أسر فون باولوس كانت بدورها موضعاً للتناقضات تماماً كالأعوام التى تولى فيها القيادة : فقد أنشأ عدداً من ضباط الجيش السادس فى الأسر ما أسموه (الاتحاد الديمقراطى للضباط الألمان) الذى دخل فى إطار اللجنة الوطنية لألمانيا الحرة التى أسسها بعض المنشقين الشيوعيين .

فقد دعوا فون باولوس للانضمام إليه ، ولكنه لم يقبل إلا فى شهر أغسطس ١٩٤٤ عندما بلغه نبأ إعدام اثنين من الضباط الألمان العظام ، هما الفيلدمارشال (فيتزليبن) والجنرال (هوبنر) لاتهامها فى مؤامرة اغتيال هتلر . وقد أعلن انضمامه إلى «اتحاد الضباط الألمان» يوم ٨ من أغسطس مع نداء وجهه ضد الفوهرر يدعو فيه إلى السلام .

وبعد أن عاش حياة بذخ فى (داتشيا) وضعها الروس تحت تصرفه خارج موسكو ، عاد إلى ألمانيا عام ١٩٥٣ ، ليستقر فى مدينة (درزدن) فى المنطقة الشرقية ، ولم يعد أسيراً إلا لما يعتريه من حيرة وقلق .

وبينما كان ابنه (إرنست) يتحدث إليه فى رسائله عن انتقاله إلى ألمانيا الغربية بعث يسأله : «وهل تضمن لى . . أنهم لن يعتقلونى ، أو يقدمونى إلى المحاكمة ؟»

الماريشال الألماني فون بارلوس خلال انسحابه مع الجيش الخامس من روسيا

بدأت عملية (ذو اللحية الحمراء) يوم ٢٢ يونية ١٩٤١ بأكبر هجوم عرفه التاريخ. وقد اكتسحت قوات الرايخ الروس وأسرت منهم مئات الألوف وتقدم الألمان بدباباتهم مظفرين على جبهة طولها ٣٢٠٠ كيلومتر وهنا تبدو دبابات فون كليست أثناء تقدمها.

وعهد إليه السوفيت بمنصب فخرى . ولكنه لم يسجل اسمه قط فى الحزب الشيوعى . وقد توفى يوم الأول من فبراير ١٩٥٧ ، نتيجة إصابته بمرض خبيث شل حركته تدريجاً ، وهو فى السادسة والستين . . . فى يوم الذكرى الرابعة عشرة لسقوط ستالنجراد .

ولقد وجدت فى مذكراته العبارة التالية : « لو أننى انسحبت من ستالنجراد وتركتها دون مقاومة لقال الشعب الألمانى عنى : إنى مسئول عن هزيمتنا فى الحرب ، ولقامت بذلك أسطورة «طعنة ستالنجراد» . وما وعى الألمان الدرس التاريخى من هذه الحرب ! .

غير أن هذه العبارة جاءت متأخرة أكثر مما يجب ، ولذلك فإنها لم تقنع أحداً .

الفصل الثالث والعشرون

إرفن روميل

أسطورة الصحراء

إن الأسس التى قام عليها تاريخ روميل الحافل ، قد وضعت فى أفريقيا بين عامى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، فلقد أحرز هناك بقوات قليلة العدد ، انتصارات سريعة دوخت الحلفاء، حتى لو لم تكن انتصارات نهائية .

وقد أسهم تشرتشل فى جعله « أسطورة » تداعب الخيال عندما قال فى مجلس العموم البريطانى : « إن أمامنا خصماً جسوراً حاذقاً لا قبل لنا به ، ولا أجد حرجاً من القول بأنه قائد عظيم . . . برغم مذابح الحرب ! »

وعند ذلك لم تضيع أجهزة الدعاية التى يشرف عليها (جوبلز) هذه الفرصة ، فراحت تكيل المديح والثناء لروميل الذى كان يتقبل بارتياح كل ما يكتب عنه .

ولما لم يكن من طبقة العسكريين الأرستقراطيين ؛ وإنما ينتمى إلى أسرة متواضعة ، كان من اليسير وضعه فى مواجهة الجنرالات التقليديين ، وأن يجعلوا منه بطلاً شعبياً ونازياً مغرقاً فى نازيته ؛ حتى لو لم يكن كذلك .

والواقع أن روميل برغم أنه لم يوافق على بعض الأوامر التى تقع تحت طائلة القانون ، كان رجلاً بالغ الإخلاص لهتلر ، وكان يمكن أن يظل على هذا الإخلاص لو أن مصير الحرب كان فى مصلحة ألمانيا .

فهو لم يغير مشاعره إلا عندما أدرك أن هتلر قد وطد العزم على أن يسوق بلاده فى طريق الضياع الذى كان مقدراً لشخصه . وكانت هذه هى الشعبية التى اكتسبها روميل ، والتى جعلت القائمين بمؤامرة يوليو يتصلون به فى آخر لحظة ، ويدعونه للانضمام إليهم إيماناً منهم بأن مجرد ذكر اسمه كفيل بأن يجتذب موافقة الجماهير الألمانية .

وكانت هذه الشعبية نفسها هى التى حملت هتلر عندما اكتشفت المؤامرة – وكان ينتظر أن يحكم عليه بالإعدام – هى التى شفعت له ، وجعلته يعامله فى رفق .

* * *

ومعروف أن روميل لم تكن نهايته أن سلم للجلاد ، كما حدث للمتآمرين الآخرين ، كما أن أسرته لم تتعرض للاضطهاد ؛ وإنما سمح له بأن يتعاطى سماً ، ثم تنسب وفاته إلى جراح أصيب بها فى الحرب !

وقد أقيمت له جنازة ضخمة على حساب الدولة ، وظلت أرملته تتلقى حتى عام ١٩٤٥ دعوة رسمية لحضور احتفال سنوى يقام فى ذكراه . وهكذا لم يساور أحداً أىُّ شك فى أن هذا الذى يحدث مسرحية متعمدة .

وترجع أول أنباء عن الحقيقة إلى يوم ٢٧ من أبريل ١٩٤٥ على إثر تصريح أدلى به ابنه الأصغر (مانفريد) الذى كان والده قد أحاطه علماً بكل شىء قبل أن يقتل نفسه .

وليس من شأن هذه النهاية الفريدة إلا أن تزيد من الشهرة التى تدعمت بين أولئك الذين حاربوا تحت إمرة روميل ، حتى بين أعدائه فى الحرب : ذلك أن الإنجليز بصفة خاصة الذين تغلبوا فى نهاية المطاف عليه يهمهم أن يضخموا من صورته لكى تكبر من ثم صورتهم !

. على أن الكتب التى صدرت عن روميل ابتداء من الباحثين والدارسين الجادين إلى الكتّاب الساخرين لا تعد ولا تحصى . وهكذا تكونت أسطورة تدعى (روميل) تمثله للعالم رجلاً بالغ الشجاعة ، لا يشعر بالتعب أبداً ، دائماً على رأس قواته الزاحفة ، يحبه جنوده إلى حد العبادة ويخشاه أعداؤه ويعجبون به ! فهو المحارب ذو التقاليد التى وضعتها (إسبرطة) وهو النبيل الذى يحتقر النازيين فيما عدا هتلر ؛ لأنه يشعر نحوه بشىء من الضعف ، قابل للزوال !

هذه الصورة الأخلاقية قد أصبحت شعبية ؛ كصورته الأخرى فى قصته فى الصحراء التى رسمته قائداً ذا عينين زرقاوين ، وابتسامة باردة ، ووجه صارم ولكنه جميل ؛ وسترة جلدية فضفاضة ، ووشاح أصفر اللون حول عنقه ، وغطاء رأس تعلوه نظارات الميدان . ولكنه فى الساعات الحرجة يظهر بين رجاله فى قلب الرمال ، وقد ارتدى ثوب الاستعراض والصليب الحديدى على صدره !

إن من الصعوبة بمكان الكتابة عن روميل منفصلاً عن الأماكن المعروفة التى حارب فيها ، وذلك لما أضفاه عليها من صفات عسكرية رفيعة ، بل إن هذه الصفات سوف تلقى فى

المستقبل مزيداً من التقدير كلما تكشفت أمور جديدة من حرب الصحراء .

والواقع أن ما كشف عنه البريطانيون مؤخراً من أنهم كانوا يستخدمون جهازاً سرياً أتاح لهم أن يلتقطوا كل رسائل روميل وحل رموزها فكانوا يعرفون عن طريقها مسبقاً جميع تحركاته ، والقوات المحدودة التى تعمل تحت قيادته – يجعل الفشل الذى حاق بقوات الحلفاء عدة مرات أمام القوات الألمانية أمراً لا يغتفر !

* * *

ومع ذلك فإن كل هذا المديح يجب ألاّ ينسينا أن هناك بعض الأصوات التى ارتفعت فى الماضى ، والتى لا تقر فى روميل كل هذه الصفات . وفى مقدمة أصحاب هذه الأصوات ، الجنرالات الألمان التقليديون الذين يكن لهم روميل العداء ، ويعبر عن احتقاره لهم إذ يسميهم « جنرالات المكاتب » .

على أن من بين هؤلاء بعض العقول العسكرية الكبيرة ، مثل « هالدر » الذى لم يتردد فى كيل المديح لروميل خلال بعض الهجمات الخطيرة التى قادها . . . لقد اعترفوا له ببراعة التكتيك ، ولكنهم أخذوا عليه انعدام الرؤية الإستراتيجية ، وقلة اعتماده على فنون الإمدادات .

وربما لم يكن الأمر صداماً بين مفاهيم متعارضة ؛ وإنما تطلع الجنرالات المحيطين بهتلر إلى الجبهة الروسية ، وهو ما جعلهم يرون فى أفريقيا مجرد قطاع ثانوى لا يستدعى سوى الحيلولة دون انهيار الإيطاليين فيه . ثم كانت هناك انتقادات رؤساء روميل الشكليين (أمثال الجنرالات جاريبولدى وباستيكو وكافاللييرو) ، وبعض الرؤساء المساعدين مثل (جامبارا) الذين استشعروا أن روميل يتخطاهم ، بل كان يحتقرهم ويسخر منهم .

فلقد كان هؤلاء الجنرالات الإيطاليون يكرهون عادة فى روميل هى التى تجعله يحارب دائماً على رأس قواته ؛ إذ لم يكن فى ذلك مجرد مثال خطير بالنسبة لهم ؛ وإنما كانت هذه العادة سبباً يجعلهم لا يقفون له على أثر عندما يتطلب الأمر اتخاذ قرارات هامة .

وفضلاً عن ذلك كان يؤلم القواد الإيطاليين ما كان يوجهه إليهم روميل من لوم من أجل عدم كفاية العتاد الذى يقدمونه لقواته الزاحفة ، وقد وجدت هذه الانتقادات حليفاً فى (كيسلرنج) خصم روميل اللدود الذى كان دائم الذم فيه لما كان يعلنه فى البداية من تفاؤل ، ثم بعد ذلك من أجل تشاؤمه خلال المرحلة الأخيرة من معارك أفريقيا ، وهو التشاؤم الذى

رأى كيسلرنج أنه ليس له ما يبرره .

ولا شك أن وراء روح العداء لروميل لدى الجنرالات الإيطاليين الحسد الذى يكنونه له . غير أنه لا يمكن القول بأن كل انتقاداتهم له يتعين رفضها جملة وتفصيلاً .

* * *

ويتعين لكى نرسم صورة واقعية لثعلب الصحراء أن ندرس بعض الفصول من الحرب الأفريقية التى قيلت فيها أحكام متعمقة استناداً على نقد خصوم روميل ، وفى الوقت نفسه على ملاحظات موضوعية مأخوذة من محللين يقدرونه تماماً

ولنأخذ أول نصر أفريقى يحققه فى أبريل ١٩٤١ : وهو استعادة (برقة) ، حيث قضت قوات الجنرالين البريطانيين (ويفل) و (أوكونر) قبل ذلك بشهرين اثنين على جيش (جراتزيانى) الإيطالى .

كانت اندفاعة البريطانيين قد توقفت عند أبواب (طرابلس) بقرار من تشرشل الذى اقتضته ظروف الحرب فى البلقان أن يسحب بعض القوات من أفريقيا ليبعث بها إلى اليونان . وهكذا جاء شهر مارس من ذلك العام ولا شىء قد بقى من «قوات الصحراء الغربية» القديمة التى انتصرت على الإيطاليين .

فلقد جمع البريطانيون تحت قيادة الجنرال (نيم) — وهو قائد جديد على الصحراء — فرقتين اثنتين هما الفرقة الأولى مدرعات والفرقة الأسترالية التاسعة مشاة . إلا أن هذه الفرقة الأخيرة التى يقودها الجنرال (جامبير بارى) لم تكن مزودة بسوى بضع عشرات من الدبابات الخفيفة ، وبعض دبابات (م١٣) كانت قد استولت عليها من القوات الإيطالية المهزومة وكذلك الفرقة الأسترالية التاسعة ؛ فإنها لم تكن بقيادة الجنرال (مورشيد) أفضل حالاً ؛ فقد سحب لواءان من ألويتها الثلاثة وأرسلا إلى اليونان ، وحل محلهما لواءان أقل تدريباً .

والأكثر من ذلك أن قلة الوسائل الميكانيكية اضطرت لواءين أستراليين إلى عدم الابتعاد عن ميناء بنغازى ، على حين رابط اللواء الثالث فى طبرق .

والواقع أن الجنرال (ويفيل) الذى كان منهمكاً أشد الانهماك فى اليونان ، وفى أفريقيا الشرقية والعراق ، حيث كانت تطل بوادر الثورة ، قد خفض كثيراً من استعداداته العسكرية فى (برقة) ؛ إذ كانت حساباته تقوم على أن التهديد الألمانى لن يصبح شيئاً ملموساً إلا فى منتصف شهر مايو .

ولم يكن كل الخطأ فى هذا التقدير يقع على كاهله ، لأن هيئة الأركان الألمانية أمرت (روميل) بألا يتحرك قبل أن يتم تعزيز الفرقة (الوحيدة) التى يقودها ، وهى الفرقة الخامسة الخفيفة بالفرقة الخامسة عشرة مدرعات ، كان يتوقع أن ينتهى نقلها إلى ليبيا فى شهر مايو.

غير أنه لا برلين ولا القيادة البريطانية فى القاهرة قد أدخلتا فى حسابهما مزاج روميل الذى جعله لا ينتظر حتى ذلك الميعاد.

* * *

كان (روميل) قد هبط فى طرابلس فى جو من الهزيمة يوم ١٤ من فبراير ، فعمد على الفور إلى دفع وحدات صغيرة إلى الأمام ؛ لكى يجس نبض الجهاز العسكرى البريطانى ، فاقتنع بضعفه . وهكذا نراه يغزو بسهولة يوم ١٤ من مارس موقعاً متقدماً فى (العقيلة) ومن ثم يقرر ألا يتوقف ، ولم يكن لدى الألمان غير فرقة واحدة هى كما قلنا الفرقة الخامسة الخفيفة ، ومعها مجموعة استطلاع ، وكتيبتان من حملة المدافع الرشاشة المحمولة ، وفصيلتان مضادتان للدبابات ، وبعض المدافع ، و ١٣٠ دبابة نصفها خفيفة ، ثم اللواء الخامس مدرعات.

وجاء الإيطاليون من جانبهم فضلاً عن بعض وحدات مشاتهم الإستاتيكية ، بفرقة (آريت) المدرعة اسما فقط ، وباللواء الثانى والثلاثين المزود بعربات حمولة ثلاثة أطنان ، وباللواء ١٣٢ مدفعية الذى ترجع قطعه إلى حرب ١٤ - ١٩١٨ ، ثم اللواء الثامن من جنود الهجوم ، وفصيلة من راكبى الدراجات البخارية ، وأخيراً الفصيلة السابقة مدرعات المزودة بدبابات (م١٣) يقودها جنود غير مدربين.

وفيما بين يومى ٣١ مارس و ٢ من أبريل اقتحمت الفرقة الألمانية الخامسة الحصار المضروب على (مرسى البريقة) ، ففر أمامها جزء من الفرقة البريطانية الثانية مدرعات . وفى يوم ٣ من أبريل دخل روميل (أجدابية) حيث أبلغته قوات الاستطلاع الجوى وجود تحركات معادية خلفية فى أماكن كثيرة من (برقة) ، فانتهز روميل هذه الفرصة مقتنعاً - كما روى هو بعد ذلك - بأن «السرعة وحدها هى كل شىء».

وبغير أن يعبأ بالأوامر التى أصدرها القائد الإيطالى (جاريبولدى) بضرورة التزام الحذر والوقوف ساكناً فى مكانه ، قسم روميل قواته القليلة ثلاث مجموعات طوابير ، وأطلقها على شكل (مروحة) فى قلب (برقة) وحاول أن يحذو حذو المناورة التى قام بها البريطانيون فى شهر

فبراير عندما قضوا على القوات الإيطالية ، وهى أن يتجاوز طوابير العدو المتخلفة على طول الساحل الليبى ، لكن قواته لم يصل منها إلى (بنغازى) سوى الطابور الذى كان ناحية اليسار . أما الطابوران الآخران اللذان تجزآ إلى مجموعات صغيرة فقد ظلا يضربان فى الصحراء للانضمام بعضهما إلى بعض فى (مخيلى) .

ومن هناك يتم بعد ذلك قطع طريق انسحاب العدو ، بقفزة إلى (درنة) أو إلى (تميمى) التى على خليج (بمبة) على بعد ثمانين كيلو متر من درنة .

* * *

ونعرض الآن الاتجاهات العامة ، وتكوين الطوابير الألمانية والإيطالية والمختلطة . ومن المهم هنا أن نأخذ المناورة فى مجموعها وعلاقتها بالتحركات المعادية التى وقعت فى الوقت نفسه : فلقد احتلت المجموعة الاستطلاعية الألمانية بنغازى ليلتى ٣ ، ٤ من أبريل ، فأمرت القيادة البريطانية قواتها بالانسحاب على طول الطرق الجبلية ، وهذه القوات هى اللواءان المتقدمان من الفرقة الأسترالية التاسعة . وإلى جانب ذلك ، حاولت إحباط التهديد الذى تتعرض له : بأن أرسلت إلى (مخيلى) ما تبقى من الفرقة الثانية مدرعات .

غير أن دبابات الجنرال (جامبير بارى) تبددت كلها على طول الطريق ، وذلك للعطب الذى أصاب بعضها ، أو لنقص الوقود نتيجة لاحتراق المخزون منه فى (مسوس) . والواقع أن قيادة الفرقة الثانية مدرعات هى وحدها التى لحقت بالقوات فى (مخيلى) التى وصلت إليها كذلك قوات لواء الفرسان الثالث الهندى التى وصلت لتوها من مصر .

وكان هذا التحرك كافياً لجذب اهتمام روميل إلى (مخيلى) التى بدت فى نظره ليس مجرد مرحلة بسيطة فى حركة تهدف إلى عزل (برقة) ؛ وإنما النقطة التى تحتشد فيها جموع قوات العدو التى يتعين أن يوجه إليها الضربة القاصمة ، وفقاً للمبدأ المعروف عن نابليون الذى يقول : «اضرب الجموع تنهار الفروع ! »

وهكذا فإنه أبرق صبيحة يوم ٥ من أبريل إلى الكولونل (شيفرين) قائد طلائع الطابور الخلفى قائلاً : «مخيلى حرة ، اتجه إلى هناك بأقصى سرعة» . ولكنه عاد بعد بضع ساعات ، بعد أن أبلغته وحدات الاستطلاع الجوى أن «مخيلى محاصرة حصاراً قويًّا ، وأن حركة نقل كثيفة تتجه بالسيارات إلى الشق» ، فكتب فى مذكراته مايأتى : «لم يعد هناك وقت للضياع ، إذا لم نكن نريد أن نجد العش فارغاً ! »

ولكى يعجل بتحركه فإنه عمد فى الفترة بين اليومين الخامس والثامن من إبريل ، إلى الاندفاع بشخصه فى المعمعة : فأقلّته طائرته الخاصة من طراز (ستورش) ، وراح يحلق بها فوق طوابيره ، وهبط بالقرب منها لشحذ همتها ، واستقل سيارة ، ثم عاد إلى طائرته ، وراح يجمع كل قواته ؛ ليدفع بها نحو (مخيلى) ؛ وجرى شخصياً ومعه ثلاث سيارات نقل حاملة ٣٥ خزاناً مملوءة بالوقود ؛ ليمد بها القوات الإيطالية التى يقودها الكولونل (فابريس) بعد أن فرغت خزاناتها .

وطار مرة أخرى بحثاً عن طابور يقوده الجنرال (أولبريش) ضلّ فى الصحراء ومعه العدد الأكبر من الدبابات الألمانية والإيطالية ؛ وقد عثر عليه (روميل) ووجّهه مرتين إلى الطريق الصحيح . وقد تعرضت حياته للخطر عندما هبط إلى جانب طابور من السيارات اعتقد أنه من قواته ، لولا أن فطن فى آخر لحظة أن الخوذات التى يرتديها الجنود ليست من النوع الألمانى ، فتمكن من التحليق على حين كانت طلقات المدافع الرشاشة البريطانية تتابع . وفى مكان آخر أوشك أن يقع فى الأسر عندما هبط لنجدة طاقم مدفع ألمانى عزلوا فى الصحراء ، ولكنه نجا بأعجوبة .

* * *

إن تلك الطاقة الهرقلية التى بذلها روميل ليست مما لا يمكن تفسيره : ذلك أن قواته – بما فيها القوات الإيطالية – تواجه الصحراء للمرة الأولى فى حياتهم ، ويتعرضون للتيه فيها ؛ فلكى يعتادوها ويتحركوا فيها بكل نشاط كان لابد من (روميل) الذى كان مثلهم جديداً على الصحراء ، ولكنه وُهبت له غريزة خاصة ، وإحساس مرهف باتجاهات الرياح ! ولنا أن نتخيل مدى الحماس الذى كان يملأ رجاله عندما يرون قائدهم يقف بينهم ، ومقاسمته لهم المتاعب والأخطار !

وفى يوم ٧ من أبريل كانت (مخيلى) قد ضرب حولها حصار ، ولكن القوات التى قامت به كانت بالغة الضعف ، وعند ذلك عمد روميل – انتظاراً لمجىء دبابات الجنرال (أولبريش) – إلى إرسال مندوب إلى القوات البريطانية التى وقعت فى الحصار ، يدعوها إلى الاستسلام ، ولكنها رفضته .

وفى يوم ٨ من أبريل تمت المناورة كما أرادها روميل ، فقد تم احتلال (مخيلى) بقوات ألمانية وإيطالية ، وسقط فى الأسر ألفان من البريطانيين من بينهم عدد من الجنرالات .

كان انتصاراً كاملاً للقائد الألمانى أضاف إليه نصراً آخر فى (درنة) ، حيث أسر ثمانمائة جندى ، من بينهم هذه المرة جنرالان بريطانيان كبيران : هما الجنرال (نيم) والجنرال (أوكونر) الذى سبق له نفسه أن انتصر على قوات إيطاليا . وكان ويفيل قد بعث به فى آخر لحظة إلى الصحراء ، ليكون مستشاراً للجنرال نيم ولكن برغم هاتين الضربتين ، فإن الجزء الأكبر من القوات الأسترالية التى كانت فى حالة انسحاب راح يتجه عن طريق البحر إلى (طبرق) ، إلى حيث وصل لواء أسترالى آخر قادم من اليونان .

* * *

لم يتوقف (روميل) طويلاً أمام انتصار (مخيلى) ، فراح يضرب بدون جدوى يومى ١١ – ١٣ من أبريل تحصينات طبرق التى أخذت تدافع عنها أربعة ألوية أسترالية مع بقايا الفرقة المدرعة الثانية. وقد استطاعت أعداد صغيرة من القوات الإيطالية والألمانية الوصول إلى الحدود المصرية واجتيازها ، غير أنه استحال عليها التقدم أكثر من ذلك ؛ لأن طبرق ظلت حجر عثرة فى طريق مواصلاتها ، ولم يتخلص روميل منها قط .

والواقع أن (طبرق) قد عطلت تحركاته طوال ذلك الصيف ، ثم منعته الأزمة التى حدثت بعد ذلك فى إمداداته عن طريق البحر عن الإعداد لهجوم كبير عليها حتى شهر نوفمبر التالى ، وهو الهجوم الذى ضاع أثره نتيجة لهذا الانتظار الطويل الذى أتاح الفرصة لهجمة بريطانية جديدة مع ما ترتب عليها من تطورات معروفة . وقد اعترف روميل فيما بعد بأن هذا التوقف كان هو الخطأ القاتل الذى أوقعته فيه القيادة العليا فى برلين ؛ إذ إن العدو قد أفلت منه عندما لم يوجه إليه الضربة القاضية على الفور !

والواقع أن هذا الدرس كان قاسياً على رجل مثل (روميل) أعلن منذ وطئت قدماه أرض طرابلس ، أن لا هدف له سوى القاهرة والسويس . ولكنه أدرك منذ هذه اللحظة أن هدفه هذا أصبح مستحيلاً. فلقد كتب بينما كانت المعركة على أشدها يوم ٨ من أبريل يقول فى خطاب إلى زوجته : «لست واثقاً . . هل كان التاريخ الذى تحمله هذه الرسالة صحيحاً ؟ . . لأننا فقدنا كل إحساس بالزمن ، والمعركة التى كانت تجرى فى مصلحتنا . . . أوشكت أن تتحول ضدنا . . ! »

ذلك أن روميل كان يمكن بإمدادات محدودة الوصول إلى القناة ، ثم يقيم اتصالاً مع الثورة التى نشبت فى العراق ، ويضع يده على ما فيها من حقول للبترول . ولو أن ذلك قد

حدث لكانت ضربة ذات أهمية عالمية ؛ إذ إن تركيا بدورها كانت ستقع بين ذراعى المحور ، بما يترتب على ذلك من عواقب خطيرة على المعركة التى كانت ستبدأ ضد روسيا .

* * *

ولقد لاحت فرصة الاستيلاء على (طبرق) لروميل فى الفترة بين يومى ٧ ، ٨ من أبريل لو أنه كان قد حصل على الإمدادات التى طلبها ، ولو كان قد أحيط علما بالموقف وكيف تطور . لكن المعلومات التى كانت لديه وقفت عند يوم ٥ من أبريل ؛ مما جعله يستميت لثلاثة أيام فى الهجوم على الحشود الإنجليزية الهندية فى (مخيلى) بغير أن يفطن إلى أن المشكلة الحقيقية إنما هى الحيلولة دون تجمع القوات المنسحبة إلى (طبرق) بالقوات التى كانت فيها .

فلو أنه اكتفى بضرب حصار على (مخيلى) ثم أسرع إلى الطريق الساحلى كما كانت تقضى خطته الأصلية ، لاستطاع أن يقضى على اللواءين الأستراليين القادمين من بنغازى ، ثم ما كان يستحيل عليه بعد ذلك أن يقضى على اللواءين الآخرين المرابطين فى طبرق : أى أنه كان عليه أن يسحق طبرق فى البداية ، ثم يتصيد كل القوات التى كانت متجهة إليها . غير أن الألوية الأربعة تجمعت فى هذه المدينة ، واستندت إلى ما فيها من تحصينات ؛ مما جعلها « عظمة ضخمة » على طوابير روميل الخفيفة .

إن وجود روميل بين قواته المتقدمة لا يمكن التقليل من قيمته ، إلا أن انعزاله فى تقدمه هذا عن مقر القيادة الخلفية ، وانقطاع الاتصال بينهما ، جعلا ثعلب الصحراء يفقد الرؤية الإجمالية لساحة القتال ، ويغيب عنه ما قرره الخبراء العسكريون العالميون الذى درسوا هذه المعارك : من أن الاستيلاء الفورى على طبرق كان سيغير الإطار الاستراتيجى للحرب تغيراً جذريا .

إن مذكرات الفيلد.مارشال روميل لا تحتوى على أى إشارة إلى ذلك ، ولكن أعوانه المقربين قد رددوه ؛ كما أن تشرشل نفسه كان قد أدرك مدى خطورة طبرق ، وهو ما يتضح من الرسائل التى كان يبعث بها فى تلك الأيام من شهر أبريل إلى الجنرال (ويفيل) ؛ وقد تنفس الصعداء عندما فاتت الفرصة على روميل .

* * *

١٥ من يونية ١٩٤٢ .

فى ذلك اليوم كانت قمة معركة (الغزالة) ، وقد أوشك روميل أن يجنى ثمرة ثلاثة أسابيع من

القتال العنيف ، فلقد تمكن بعمليات حربية رائعة من طرد القوات الفرنسية من (بيرحكيم) ، وانتصر على البريطانيين فى (جاد الأحمر) و (جسر الفرسان) ودمر الجانب الأكبر من مدرعات الجيش الثامن . وكان عليه الآن أن يقطع طريق الانسحاب على الفرقة الأولى من قوات جنوب أفريقيا التى يقودها الجنرال (بينار) ، والتى تخلفت قليلاً فى مواقع (الغزالة) .

وفى محاولة من روميل للوصول إلى الطريق الساحلى . فإنه أطلق ما تبقى لديه من الكتيبتين المدرعتين التابعتين للفيلق الأفريقى ، وهما الكتيبة الحادية والعشرون والكتيبة الخامسة عشرة ، لكن رجال المدرعات كانوا فى غاية الإرهاق من شدة الحرارة ، ونتيجة للأيام العشرين فى قتال لايتوقف ، فقد غلب النعاس الكثيرين منه داخل دباباتهم ، فراح روميل يركض بنفسه ، لكى يوقظهم ويشجعهم .

ووصلت دورية من سبع دبابات إلى (بالباية) ولكن قضى عليها ، وتمكن الجانب الأكبر من قوات جنوب أفريقيا من الفرار قبل أن تتدعم الحلقة الألمانية المضروبة حولها ، وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً توقف روميل الذى انتصر فى (طبرق) وفى (مرسى مطروح) – توقف أمام (العلمين) ، وكانت القوات التى أوقفته هى بعينها قوات جنوب أفريقيا التى يقودها الجنرال (بينار) .

وهكذا فشل السباق الذى كان يقوم به فى طريقه إلى (الأهرام) وهو يبعد عن الإسكندرية بأقل من مائة كيلو متر !

ولو أن قوات (بينار) كانت بدلاً من مصيدة العلمين فى أحد معسكرات الأسرى الألمان ، لكان من المرجح أن يمر (روميل) منطلقاً إلى هدفه : فهل كان من الأمور المحتومة أن تتمكن هذه القوات من النجاة من الكماشة الألمانية ؟

إن الجنرال (مالنهايم) رئيس إدارة المعلومات فى قيادة روميل قد وضع كتاباً بعنوان (معركة الدبابات) قال فيه : «لقد صدر الأمر إلى الفيلق الأفريقى بعد هزيمة المدرعات البريطانية بأن يتجه شمالاً ، وأن يقطع طريق (بالباية) ، على حين أن الجيش العشرين الإيطالى الذى يتكون من فرقة (آرييت) وفرقة (تريستا) قد عهد إليه بمهام ثانوية ، هى مجرد أعمال حراسة ، ولكن لو أن الفرق المدرعة الخمس الألمانية والإيطالية قد دُفع بها للزحف على (بالباية) لحالت دون تسرب جموع القوات المعادية من (الغزالة) ، أما الفيلق الأفريقى الألمانى وحده فلم يعد قادراً على النهوض بهذا العمل» .

فهل لم يعهد روميل إلى الإيطاليين بأى مهمة جادة ، لأنه لم يكن يثق فيهم أو لأسباب أخرى ؟

* * *

وعندما نعود إلى معركة (العلمين) حيث أحرز البريطانيون نصراً حاسماً على قوات المحور بما ترتب على ذلك من شعور روميل باليأس الكامل من نجاح مخططه ، تقفز إلى السطح تلك الشائعات التى ترددت فى تلك الأيام عن تخلى الألمان عن القوات الإيطالية فى أفريقيا ، لتقع فى الأسرى ، وما قيل من أنهم استولوا على سيارات النقل الإيطالية ، وخصصوها للقوات الألمانية وحدها .

ولقد صدر فى عام ١٩٤٦ كتاب للجنرال (ميسى) الإيطالى عن هذا الموضوع ، أبرأ فيه الألمان من تهمة (السرقة) ، وقال فيه : إن ما حدث كان مجرد امتناع عن إعادة تلك السيارات . والواقع أن الإيطاليين كانوا قد أعاروا الفيلق الألمانى الذى جاء لنجدتهم فى أفريقيا مجموعة من عربات النقل ، ليستخدمها بصفة دائمة ، فلما تقرر سحب قوات المحور بصورة نهائية بعد معركة العلمين طلبوا من روميل إعادتها لهم ، ولكنه لم يفعل .

ومن هنا فإن كل ما يمكن اتهامه به هو أنه لم يرع للزمالة فى الحرب حقها : أى أنه لم يتقاسم هو والإيطاليون جميع المصادر المتاحة له . وقد ظلت هذه القضية معلقة حتى الستينيات عندما قدم الجنرال الإيطالى (مانشينللى) الذى كان ضابط اتصال بقيادة روميل . وثيقة قديمة لم يفطن إليها أحد من قبل جاء فيها : إن روميل كان قد طلب يوم ٣٠ من أكتوبر من ذلك العام - أى قبل انهيار قوات المحور بخمسة أيام - أن يقوم بأول انسحاب إلى خط ٢٨° جنوباً (أى خط فوكه) ، وأن يستعير من أجهزة الاتصال الإيطالية ١٥٠٠ سيارة ، لكى ينقل بها قوات المشاة الإيطالية بالذات

غير أن روما رفضت هذا الطلب ، وقرر كل من هتلر وموسولينى ألايكون فى (العلمين) إلا أحد أمرين إما النصر وإما الموت ! ولكن روميل كان يائساً من النصر ، فلم ترسل له نتيجة لذلك أى سيارة

وعلى ذلك لا يكون روميل مسئولاً عن النهاية المأساوية التى لقيتها القوات الإيطالية التى ضاعت بين التيه فى الصحراء والوقوع بمئات الألوف فى الأسر ، فضلاً عن أن إنقاذ هذه

القوات لم يكن شيئاً هامًّا بالنسبة له . والواقع أن كل مكاتباته فى أثناء الحرب كانت تنضح بالاحتقار للصفات العسكرية الإيطالية ؛ فليس هناك إذن مجال للدهشة إذا هو رأى بوصفه رجلاً مهنته الحرب أن من الأفضل إنقاذ الوحدات ذات الفعالية القتالية وكانت هذه بطبيعة الحال هى القوات الألمانية .

obeikandl.com

الجنرال روميل ، ثعلب الصحراء ، الذى تولى قيادة الفيلق الأفريقى الشهير ، فدوخ قوات الحلفاء .

وعندما تولى القيادة فى الجبهة الغربية بعد ذلك ، كانت نظريته فيما يختص بالنقطة التى سيم فيها غزو الحلفاء لفرنسا أقرب إلى الصواب .

وفى معركة فرنسا ، كانت الفرقة السابعة المدرعة بقيادته ، هى أول من وصل إلى الساحل الشمالى الفرنسى

الجنرال جودريان قائد القوات الألمانية المدرعة

obeikandl.com

الفصل الرابع والعشرون

كارل فون فولف

حاكم إيطاليا المفوض

ما كادت إيطاليا تتوقف عن الحرب وتعلن الهدنة يوم ٨ من سبتمبر ١٩٤٣، حتى وصل صباح اليوم التالى (كارل فولف) مندوب الفوهرر والقائد العام لقوات العاصفة الألمانية إلى الأراضى الإيطالية ؛ فقد اتصل به هتلر فى مقر قيادته فى بروسيا تليفونيًّا ، وأبلغه الأمر التالى : انتقل على الفور إلى إيطاليا ومعك هيئة القيادة . لفرض الاحتلال الألمانى عليها .

والواقع أن ضباط هيئة قيادة كارل فولف التى تشمل قوات العاصفة وقوات البوليس كانوا قد احتشدوا فى ميونيخ منذ شهر أغسطس ؛ لكى يضعوا مشروع احتلال الأراضى الإيطالية ، سواء أعلنت روما الهدنة أو لم تعلنها ، وعندما وصل هؤلاء الضباط إلى مدينة (بولزانو) كانت المدينة قد سقطت بالفعل فى أيدى الألمان . وعلى الفور فتحوا القصر الملكى فيها ، واستقروا فيه . ومن هناك راحوا يتابعون العمليات العسكرية ، وبالأحرى عملية نزع سلاح القوات الإيطالية التى تولاها (كيسلرنج فى الجنوب ، وروميل فى الشمال . وفى يوم ٩ من سبتمبر كان كارل فولف يسيطر تماماً على أكبر سلطة عسكرية ممكنة فى دولة محتلة .

وقد وصف هو نفسه منصبه هذا بأنه « القائد الأعلى لقوات العاصفة والبوليس ، والمفوض العام للجيش الألمانى فى إيطاليا ، والمستشار السياسى للدوتشى الإيطالى فى الشئون البوليسية والحربية ، وربما كان فى هذه العبارة الطويلة شىء من التهويل ، ولكن الوصف وجوهره كانا دقيقين تماماً .

ولم يكن فى استطاعة كيسلرنج أولاً ، أو فون فيتنجهوف بعد ذلك – أى قادة القوات العاملة – تجاهله أو الاستغناء عنه . ذلك أنه لم يكن هناك أمر صغر أم كبر يوجه إلى الجنود فيما يتعلق بالعمليات الحربية يمكن أن يصدر عنهم ، إلا إذا كان فولف قد أحيط علماً به

وابتداء من يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ – وهو تاريخ محاولة اغتيال هتلر – أخذت سلطة فولف تتزايد : فقد عين قائداً أعلى للجبهة الخلفية وللادارة الألمانية فى إيطاليا : أى أنه أصبح السيد المطلق لكل ما يحدث فى إيطاليا ، وراء خطوط القتال . وقد أسماه البعض «روح إيطاليا» على حين قال عنه آخرون إنه «سجان موسولينى ! »

ومع ذلك فإن هذا الجنرال الذى يعلو الجنرالات ، وهذا الرجل الذى يتبعه عملياً أكبر شخصيتين فى جيش الرايخ الألمانى ، لم يتول قط قيادة أى وحدة تخوض الحرب ، ولم يوجه أى معركة ، ولا يعرف شيئاً عن التكتيك ، ولا يفقه كثيراً أو قليلاً فى الاستراتيجية ، كما أن من المرجح أنه لم يذهب قط إلى أى خط أمامى . . . إلا للتفتيش !

إن السلطة التى كان يتمتع بها سلطة سياسية ، أو سلطة بيروقراطية خاصة من ذلك النوع الذى يعهد به إلى رجال ينتمون إلى طبقة عالية ، بل بالغة الاستعلاء . وبوصفه خلاصة الرياسات والذراع الأيسر لهملر ، فإن العمل الذى امتهنه كان يجرى فى حمى قوات العاصفة التى لا ينال منها شىء باعتبارها قوات الفوهرر الخاصة ، والضمان المسلح والبوليسى للوطنية الاشتراكية ، وكان هذا الرجل الذى يأتى على قمة هرمية عتيدة هو الذى وقع عليه اختيار هتلر ، لكى يتولى حكم إيطاليا بمن فيها من إيطاليين وألمان من عسكريين ومدنيين .

* * *

وعندما وصل كارل فولف إلى إيطاليا كان فى الثالثة والأربعين ، إذ كان مولده فى (درمشتاد) عام ١٩٠٠ . لقد كان من الناحية الجسدية نموذجاً للرجل الآرى ، كما جاء فى الأحلام العنصرية للجنس التوتونى : فقد كان طويل القامة ، له هيئة الأبطال ، أشقر الوجه والشعر ، له عينان زرقاوان وأسنان لامعة ، تبدو مطابقة لاسمه ومعبرة عنه : (إذ إن فولف بالألمانية معناه الذئب) . وبهذه الصفات التى تجمعت فى هذا المقاتل بغير قتال ، أصبح له سحر جسدى أبله ، ولكنه لا يقاوم .

أما ما كان يدور فى رأسه فقلائل هم الذين كانوا على علم به . ولا بد أن دهاءه الشديد هو الذى جعله يصل بمثل هذه السرعة إلى مركزه هذا . والى جانب الدهاء احتقاره للعرف والتقاليد والأخلاق . ولكن لا شىء أكثر من ذلك ، فقد كان معروفاً أنه أجوف كالطاووس ، يهيم بالألقاب ، وفيه ضعف شديد نحو الجميلات من النساء ، وبخاصة الأميرات الإيطاليات اللاتى كان له معهن عدة فتوح .

لم يكن لكارل فولف إذن أى ماض بطولى فى الجندية يؤهله لكى يحتل منصب القائد الأعلى للقوات الألمانية التى احتلت إيطاليا . كل ما هناك أنه كان رجل حزب بارع ، إذ انضم إلى الحزب الوطنى الاشتراكى منذ كان غلاماً ، ثم كان من أوائل الذين سجلوا أسماءهم فى صفوف قوات العاصفة ، وكان من حسن طالعه أنه راق لقائد هذه القوات وهو هملر الذى كان يناديه فى بعض الأحيان باسم «فولفشين» أى الذئب الصغير . وإذ نال إعجاب هذا السيد فإنه انطلق إلى الأمام متعجلاً . فلما اندلعت الحرب ، وكان قد أصبح رئيساً لأركان حرب هملر ، عيِّن ملحقاً لدى القيادة العامة للفوهرر فى (راستنبورج) ، ليكون همزة اتصال بين القيادة العليا لقوات العاصفة ، وقيادة القوات المسلحة . وكان هذا المنصب واحداً من التى تضفى على شاغلها مكانة عالية ، ويدخل فى نطاق أكبر وأهم عشر شخصيات فى الرايخ الألمانى .

* * *

وأحب (فولف) قوات العاصفة وأخلص لها ، لكن ليس بالقدر الذى أحب به ربيبه وحاميه . ولقد كان بارعاً فى التعرف على أفكار رئيسه السرية ، وفطن إلى أنه إذا كان هناك بعض كبار الزعماء المتعصبين فى الرايخ الثالث يعدون أنفسهم لما سوف تاتى به الأيام . فى محاولة لإنقاذ أنفسهم من الضياع الهتلرى ، فإن هملر على رأسهم وفى مقدمتهم .

والواقع أن هملر بدأ قبل محاولة اغتيال هتلر ، يجس النبض سواء لدى الحلفاء الغربيين أو لدى المقاومة . وكان (فولف) بوصفه مستودع أسرار سيده هو الذى أتى يوم ٢٦ من أغسطس ١٩٤٣ بوزير مالية بروسيا ، وهو جوهانس بوبيتس ؛ لكى يلتقى سرا وهملر . وكان بوبيتس هذا ضالعاً فى المؤامرة التى تستهدف حياة الفوهرر . هذا الجانب من شخصية (فولف) سوف يكون فيه الرد على الدهشة التى اعترت أولئك الذين تساءلوا فى سذاجة عن السبب الذى جعل حامى الوطنية الاشتراكية الألمانية فى إيطاليا ، يقرر التخلى عن الرايخ وعن سيده ويتركهما لمصيرهما . ثم يوقع صلحاً منفرداً مع العدو ! والحقيقة هى أن المتطرفين هم دائماً أول من يسارع الى عقد المواثيق مع العدو المنتصر .

وكان (فولف) يعرف إيطاليا جيداً ، ولذلك اختاره هتلر ليحكمها بعد يوم ٨ من سبتمبر الذى وقعت فيه روما الهدنة : فلقد زارها للمرة الأولى عام ١٩٣٠ ، ثم استقبله موسولينى عام ١٩٣٦ فى قصر (البندقية) فأحدث لديه انطباعاً قوياً . وعندما قام الدوتشى برحلته المظفرة إلى

ألمانيا عام ١٩٣٧ ، كان (فولف) رئيساً لبعثة الشرف التى رافقته خلال هذه الزيارة ؛ مما وطد العلاقة بين الرجلين ؛ كما زاد منها أن هتلر اصطحبه معه فى زيارته الرسمية لإيطاليا بعد ذلك . ثم إنه هو الذى تولى الإشراف على الاستفتاء الذى جرى بين سكان التيرول عام ١٩٤٠ ، فاختاروا ألمانيا وطناً لهم .

من هنا فإن (فولف) يعرف الكثير من الشئون الإيطالية ، وله فى روما عدد كبير من المعارف والأصدقاء الذين يحتلون مناصب هامة ، ومن بينهم (بوفارينى جويدى) وزير البوليس الإيطالى .

* * *

هذا هو الرجل الذى ظل عشرين شهراً يمسك وحده بزمام الأمور ، ليس بالنسبة لمصير إيطاليا التى تحت الاحتلال الألمانى فحسب ، وإنما كذلك بالنسبة لمصير كل إيطالى . ولقد قيل : إنه لم يكن حاكماً شرساً ؛ ربما لأن روحه لم تكن كذلك ، وربما لأن دهاءه جعله يترك للآخرين الأعمال الشائنة ، وربما لأن علاقته مع النظام الفاشى الجديد كانت سياسية أكثر منها عسكرية . وقد يكون السبب كذلك أن الشراسة تجرده مما كان يجتذب إليه أجمل نساء إيطاليا ، ويصرف عنه أهل الملق والرياء من الأثرياء الذين كانوا يتقربون إليه لما يعرفون من أن فى يده بالنسبة لهم حق الموت وحق الحياة .

ولقد تفاخر – فيما بعد – بأنه لم يكن شرساً ، بل لقد كتب يقول : إنه كان دائم التدخل لإلغاء الأوامر القاسية ، ويحول دون القيام بأى عمل انتقامى ضد رجال المقاومة الإيطاليين ، ويحرم مجرد استخدام كلمة « رهائن » . ولكنه عندما يقول ذلك ، فإنه إما لا يقول الحقيقة ، وإما أنه يحاول أن يبعد عن نفسه الأوزار التى تقع عادة على عاتق المنهزمين .

والواقع أنه لم يبرأ من عدد من المسئوليات الخطيرة ، أهمها ما ثبت فى محاكمته عام ١٩٤٦ من أنه أعد مشروعاً لترحيل اليهود الإيطاليين فى أثناء الحرب فى الوقت الذى كانت فيه ألمانيا تعمل بكل طاقتها فى هذا المجال . أما الفضل فى عدم نقل شركة فيات لصناعة السيارات بعمالها الذين كان عددهم يبلغ سبعين ألفا فى ذلك الوقت ، وكل آلاتها وأجهزتها وإداراتها من إيطاليا إلى ألمانيا ، فإنما يعود إلى السفير (راهن) ، وليس إلى (فولف) .

وهناك يوم من الشهور العشرين التى حكم فيها إيطاليا هو الذى حدد مصيره ومصير البلاد التى سيطر عليها ، وذلك هو يوم ١٠ من مايو ١٩٤٤ عندما استقبله البابا (باتشيللى) فى

الفاتيكان ؛ ويروى هذا اللقاء ضابط فى قوات العاصفة برتبة كولونيل يدعى إيوجين دولمان كان وزيراً مفوضاً من قبل هملر فى روما ، وكان قد رافق فولف حتى باب القاعة التى جرى فيها اللقاء مع البابا ، ودبرته أميرة إيطالية حسناء هى (فيرجينيا بوربون ديل مونتى) فى محاولة منها لإنقاذ العاصمة روما من ويلات الحرب : ففى هذا اليوم عملت دبلوماسية الفاتيكان على إقناع (فولف) بالدخول فى اتصالات مع الحلفاء . وكان البابا هو الذى وعده بعدم توجيه أى اتهام إليه بعد الحرب ، ورتب اللقاءات التى جرت فى سويسرا ، ومهدت لاتفاقه مع (آلن دالس) ، وتوقيع صلح (كازرتا) .

وكان ذلك تحولاً عجيباً من رجل كان يعد من طبقة النازيين الكبار .

° ° °

وفى إيطاليا اختار (فولف) مقر قيادته بالقرب من موسولينى ؛ إذ كان مسئولاً عن حراسته ، وعن القرارات التى يتخذها . وقد ظلت العلاقة بين الرجلين طيبة إلى أن قطعها الدوتشى عندما اكتشف أن (فولف) قد دخل فى مفاوضات مع الحلفاء بدون أن يبلغه شيئا من ذلك . ولقد كان موسولينى على بعد بضع خطوات منه ، وكذلك الوزراء الإيطاليون الرئيسيون ، ومساعده (كابلر) ، والسفير الألمانى (راهن) . وكان (فولف) ينقل إلى الدوتشى أوامر هتلر بصفة دورية ، فيتلقاها بالاحتجاج لما يناله من جرائها من مهانة ، ولعجزه عن عمل شىء إزاء ذلك .

وقد تظاهر (فولف) بالاستقامة فى تصرفاته إزاء الرئيس الإيطالى ، غير أنه كان يعرف تماماً أنه هو وحده السلطة التى يحسب لها حساب . وقد حدث أن رغب موسولينى فى عزل وزير البوليس (جويدى) إلا أن (فولف) عارض فى ذلك ؛ لأنه كان يعتبره سنداً له فى إيطاليا ، فلما احتج الدوتشى على هذا الاعتراض وبعث اثنين من كبار معاونيه لبحث الأمر مع الحاكم الألمانى ، إذا به يعتقلها ، ويرسلها إلى معسكر (داخاو) .

والتقى الرجلان مرة أخرى عندما قرر موسولينى الانتقال إلى (ميلانو) ، وهى الرحلة التى اعتقله خلالها رجال المقاومة ، وحاكموه ثم أعدموه . وفى هذا اللقاء كانت المعاملة بينهما فاترة ؛ فقد زال الإعجاب الذى كان (فولف) يكنه للدوتشى الذى أبلغه أنه ينتوى مغادرة (جاردا) فاعترض الألمانى على ذلك بصورة شكلية .

والواقع أن (فولف) كان فى أعماق قلبه يريد له أن يذهب إلى حيث كانت نهايته ،

وبالطريقة التى انتهى بها . وقد تبين ذلك فيما بعد من اللامبالاة التامة ، وربما جاز القول من النذالة التامة التى بدت من فرقة الحراسة المكونة من قوات من جنود العاصفة يرأسها الملازم (بيرزر) الذى كان يتلقى أوامره من (فولف) شخصيا : فعندما كان على هذه الفرقة أن تقاتل وتموت فى (دونجو) دفاعاً عن موسولينى الذى اعترض طريقه رجال المقاومة واعتقلوه ، إذا بها تتركه لهم ، وتفر طلباً للنجاة ، وعلى رأسها قائدها !

* * *

ولقد كان إيوجين دولمان الذى سبقت الإشارة إليه أكثر من عاش بالقرب من (فولف) خلال فترة حكمه لإيطاليا ؛ وقد يجوز وصف هذا الرجل بأى شىء فيما عدا أنه متعصب : ذلك أنه كان ذكيًّا ورقيقاً ، مثقفاً كثير الشكوك ، يحتقر الأغبياء والحمقى ، واختار طريق قوات العاصفة ، لأنه وجد أن مصلحته فى ذلك . وقد كان دولمان هو الذى أدخل (فولف) إلى المجتمع الراقى فى روما ، وجعله يتعرف إلى الشخصيات التى يعتد بها ، ويتصل بكبار المتعاونين مع ألمانيا ، وأقنعه قليلاً قليلاً بأن بلاده قد خسرت الحرب ، وأن من البلاهة عدم الخروج منها فى الوقت المناسب بأقصى ما يمكن من الفائدة ، وخاصة فى دولة مثل إيطاليا .

ويذكر دولمان جيداً عبارة قالها له ذات يوم أمير يدعى (بولوف) اشتهر بالحكمة والواقعية تعرف به فى شبابه فى روما ، قال له : «إذا أردت ياعزيزى دولمان أن تشق طريقك جيداً فى الحياة فانتبه إلى ما يفعله الإيطاليون ، ثم افعل مثلهم . إنهم أناس يعرفون دائماً كيف يخرجون سالمين فى جميع الظروف» . وكان هو يكرر هذه العبارة أمام (فولف) ، فيضحك منها هذا مسروراً ، ولكنه فى أعماق نفسه وعى هذا الدرس .

ولقد كان دولمان هو الذى أخذه من يده تقريباً نحو الاتفاقيات التى عقدها مع آلن دالس ، ونحو اللقاءات التى جرت فى سويسرا . وكان دولمان هو الذى جاء له بجياد (كيسلرنج) خلال هذه المفاوضات إن لم يكن بموافقته ، ثم بعد ذلك باشتراك خليفته (فيتينجهوف) ، وأيضا باشتراك حاكم التيرول القوى (هوفر) .

وكذلك فإن دولمان هو الذى رافقه إلى لقاء (البابا) يوم ١٠ من مايو ١٩٤٤ ، وأعاره حلة مدنية بدلاً من ثوبه العسكرى .

* * *

وقد جاءت نهاية الحرب ، على حين كان (فولف) وزوجته الثانية (فريدا) وصديقه

المخلص دولمان فى مدينة بولزانو الإيطالية ، حيث وصلت فى شهر مايو قوات الحلفاء ، لكى تنقلهم إلى معسكر الاعتقال . كان ذلك فى أحد أيام الربيع الرائعة ، فراحوا يتناولون الشاى فى إحدى الشرفات ، وبدا كأن الحياة قد استأنفت من جديد مسيرتها المزهرة . وقد أقلتهم بعد ذلك إحدى سيارات الجيب فى رفقة ضابط أمريكى . وبعد أن تنقل (فولف) فى عدة أماكن فى إيطاليا ، وأدلى بشهادته خمس مرات فى محاكمات نورمبرج ، أطلق سراحه وأصبح حرًّا ، وهكذا سدد الحلفاء ما عليهم له من ديون !

وحاكمه الألمان بصورة شكلية ، وكان ذلك فى نطاق عملية تصفية النازية فى همبورج عام ١٩٤٩ . وقد صدر الحكم على (فولف) بوصفه واحداً من قادة قوات العاصفة بالسجن أربع سنوات ، ثم أطلقوا سراحه على الفور باعتبار أنه قضى هذه المدة فى الاعتقال لدى القوات الأمريكية .

وكان كارل فولف عند ذلك فى التاسعة والأربعين من عمره ، ووراء ظهره ماض كاد يدخل فى ذمة التاريخ . وربما كان هو الوحيد من بين الكثيرين الذين تولوا القيادة فى إيطاليا فيما بين عامى ١٩٤٣ ، ١٩٤٥ الذى لا يزال على قيد الحياة . وقد أصبح اليوم فى الثامنة والسبعين ، وتحول إلى حطام إنسان من قسوة الذكريات . أما الذى أضاعه فى شيخوخته فهو جنون العظمة ، والتطلعات التى اعترته فى آخر أيامه إلى أن يترك وراءه مذكرات ضخمة يدافع فيها عن نفسه

فلقد عاد (فولف) إلى بيته ، وسرعان ما أصبح ثرياً : فقد افتتح وكالة للنشر فى مدينة كولونيا حقق من ورائها أرباحاً كبيرة ، فهيأ لنفسه سكناً فاخراً ، وأقام فيلا عند بحيرة (ستارنبرج) بالقرب من ميونيخ ، وأعد بيتاً ملائماً لزوجته الأولى التى أنجبت له أربعة أبناء ، وجعل من ابنه الأكبر مساعداً له فى أعماله ، وأخذ كل شىء يسير على ما يرام ، إلى أن كان ذات يوم سيطرت عليه فيه رغبة جامحة فى كتابة مذكراته .

كان هدفه الأول أن يبرئ ذمته لدى الشعب الإيطالى ، فكتب عشر مقالات نشرتها له مجلة إيطالية أسفرت عن نجاح باهر ، ولو أن مضمون مذكراته كان مديحاً فى نفسه ، وذكراً لأعمال معروفة للجميع . ويبدو أن هذا النجاح قد ازدهاه ، فأعاد الكرة بمجموعة أخرى من المقالات وجهها هذه المرة إلى الشعب الألمانى ، وكان ذلك من سوء طالعه : ذلك أنه تناول فيها المشكلة اليهودية ، فتحدث عن عمليات ترحيل اليهود من ألمانيا وغيرها من الدول التى

خضعت للنظام النازى . و أورد مبررات لهذه العمليات ، ودوره فيها ، ولو أنه كان أميل إلى الاعتذار عما بدر منه .

غير أن الحلقة الأخيرة ما كادت تذهب إلى المطبعة حتى صدر أمر بمصادرتها وحظر نشرها ، ثم ألقى القبض على (فولف) ، ولم يمض أسبوع إلا كان قد صدر عليه حكم بالسجن ، وكان هذا عام ١٩٦٢ . عندما لم يكن باقياً إلا قليل على انتهاء العمل بالقانون الخاص بقضايا تصفية النازية التى كان منتظراً أن يتم التصرف فيها جميعاً عام ١٩٦٢ .

وجرت محاكمته بناء على الاتهام الوحيد الذى كان لا يزال ساريا وهو الاتهام باضطهاد اليهود . وجاء الحكم : السجن ١٥ عاماً .

وكان طبيعياً ألا يظل طويلاً فى السجن ، فقد حمل على الاعتذار وطلب المغفرة ، كما أنه صدرت عدة قوانين بالعفو استفاد منها . فأطلق سراحه بعد حين . غير أنه خرج هذه المرة وقد أصبح إنساناً انتهى أمره .

وهو يعيش الآن على هامش الحياة بعد أن بات شيخاً فانياً . وكما هى طبيعة الشيوخ فإنه لا يتحدث إلا عن الماضى .

ومن الغريب أن ماضيه يتفق تمام الاتفاق مع ذكرى ترتبط بطريقة (فرويد) بزهوه القديم ، وبنزعته إلى مالا يدوم ، إنها «وشاح النسر الرومانى» بصليبه الضخم الذى رفعه فى الماضى إلى مرتبة الفرسان الوهمية ، وهو الوشاح الذى ابتدعه موسولينى عام ١٩٤٤ ، ولم يُمنَحْهُ لرجلٌ آخر سوى (فولف)

وهو يكتفى الآن بهذا الفخر .

الفصل الخامس والعشرون

فردیناند شیرنر

آخر من استسلم . . .

التاريخ هو ٢٩ من أبريل ١٩٤٥ ، والساعة الرابعة صباحاً . وفى داخل المخبأ المدرع تحت دار المستشارية فى برلين كان هتلر يجعل كلاً من جوزيف جوبلز ، ومارتن بورمان ، وفيلهلم بورجدورف . وهانز كريبس ، يوقعون بوصفهم شهوداً على وصيته السياسية . وبينما هو يفعل ذلك ، كانت أصوات المدافع السوفيتية المروعة تزداد اقتراباً !

وفى هذه الوثيقة التاريخية ، يصم هتلر بالخيانة كلاً من هرمان جورنج وهنريتش هملر ، ويعدد أعضاء الحكومة التى يتعين أن تخلفه ، ويعهد بها إلى الأميرال (كارل دونيتز) ، ويولى القيادة العليا للجيش الجنرال فرديناند شيرنر .

وهكذا فإنه من بين ذلك العدد الكبير من الجنرالات العظام الذين احتضنهم نظام الحكم الهتلرى وخاضوا الحرب خمس سنوات ، يبقى على رأس الجيش الألمانى جندى بافارى أصبح شهيراً بفضل الحيوية التى بذلها فى مهنته ، والأساليب (التوتونية) فى علاقاته مع معاونيه المباشرين والجنود

وقد حصل (شيرنر) على عصا الفيلدمارشال يوم ٥ من أبريل ١٩٤٥ : أى قبل فون جرايم بعشرين يوماً ، وذلك بعد أن استحق مجموعة ضخمة من الأوسمة والنياشين العسكرية الكبرى .

ويدخل فرديناند شيرنر التاريخ بوصفه الجنرال الألمانى الذى كان آخر من استسلم للحلفاء فى الأيام المأساوية فى حياة الرايخ الثالث ، ثم أصبح الشخصية الرمزية لما خلفه النظام الهتلرى والحرب الباردة ، وهمزة الوصل بين ألمانيا الأمس وألمانيا اليوم .

وقد ظل مختفياً عشر سنوات بعد أن اعتقله الأمريكيون وسلموه إلى السوفييت شيراً آراء

متضاربة حول مصيره ، ثم عاد وظهر فى الوقت الذى أخذت فيه ألمانيا تتهيأ لإعادة تسليحها .

وعلى أى حال فإنه شخصية مزعجة ، وربما كان ذلك هو السبب فى الحكم الذى أصدرته عليه إحدى المحاكم الفيدرالية بالسجن مدة طويلة ، ثم خفف بعد ذلك .

* * *

ولد فرديناند شيرنر فى ميونيخ يوم ١٢ من يونية ١٨٩٢ لأسرة ثرية أتاحت له دراسة أدبية ، فحصل على شهادة الثانوية فى شهر يولية ١٩١١ غير أنه فى اليوم التالى لحصوله عليها تطوع فى لواء المشاة البافارى المرابط فى ميونيخ وعاد بعد ذلك لإتمام دراسته بجامعة المدينة ، ثم فى جامعتى لوزان وجرينوبل ، فتخصص فى اللغات الأجنبية ، وهو التخصص الذى جعله يقيم بعض الوقت فى إيطاليا .

ومع بداية الحرب العالمية الأولى نراه يسرع للانضمام إلى لواء المشاة البافارى ، وخاض معه جانباً من معارك الحرب . وقد حارب طويلاً على الحدود الإيطالية ، حيث جرح ثلاث مرات ، فحصل على وسام الجدارة نتيجة إصابة خطيرة فى ساقه اضطر بسببها أن يتوكأ فى سيره على عصا بقية أيام حياته .

ولم يلبث (شيرنر) فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى أن انضم للحزب الاشتراكى الوطنى ، واصبح عضواً فى الفرق الخاصة التى تولت إخماد الانقلاب الشيوعى الذى وقع فى ميونيخ عامى ١٩١٩ ، ١٩٢٠ . وإذ سار فى طريق عسكرى مكين يستند على إعداد دراسى ، وعلى الفرص التى أتاحها الحزب لكوادره التى كان هو واحداً منها . فإنه استطاع الالتحاق بهيئة الأركان ، ولكن بعد أن علق على ثوبه العسكرى ثلاثة أوسمة رفيعة حصل عليها باستحقاق فى أعوام ١٩٢٦ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ ، وهنا ألحقوه بإدارة (الجيوش الأجنبية) لمعرفته الجيدة باللغتين الإيطالية والفرنسية ، وأخذ يحاضر فى كلية درزدن الحربية حيث اكتسب شهرة المدرب الصلب الذى يتخرج من تحت يده ضباط كالفولاذ .

وفى الوقت نفسه راح يعمل بلا كلل للتعمق فى الفنون العسكرية يدعم بها مهنته معارضاً الاستقراطية العسكرية الألمانية وتقاليدها القديمة فى مناصب القيادة ، وعالج بحذر شديد اتصالاته بتنظيم الحزب النازى ، وجعل من نفسه داعية لضرورة حاجة الجيش ليكون بدوره تحت السيطرة السياسية . وقد أكسبه ذلك عطف هتلر الذى فتح له الباب على مصراعيه لكى يصنع مستقبلاً عسكرياً مرموقاً .

وألحق فى أكتوبر ١٩٣٧ بأحد ألوية الجبال ، ورحل معه إلى النمسا عندما تم ضمها إلى ألمانيا ، ثم إلى تشيكوسلوفاكيا خلال أزمة السوديت .

وفى الأول من أغسطس ١٩٣٩ حصل على وسام جديد ، ولما اندلعت الحرب كان من أوائل الجنود الألمان الذين دخلوا بولندا ، ثم ذهب إلى الجبهة الغربية مع الفرقة السادسة من قوات الجبال ، واشترك فى المجموعة التى درست الإعداد لعملية «سبع البحر» الغامضة .

ورقى إلى رتبة (ميجورجنرال) فى يوليو ١٩٤٠ ، ثم انتقل فى ربيع ١٩٤١ إلى الجبهة اليونانية مع الفرقة السادسة التى اقتحمت خط (متكساس) يوم ٦ من أبريل . وحصل على وسام «صليب الفرسان»

وقاد (شيرنر) خلال ٢١ يوما قواته ، فاكتسحت (لاريسا) يوم ١٩ من أبريل ، وعبر (ترموبولى) يوم ٢٢ من أبريل ، واستولى على (إكروبولى) يوم ٢٧ من أبريل . وفى تلك الأيام أصدر إلى ضباطه نداءه المشهور الذى قال فيه : «إن علينا نحن الضباط أن نعطى جنودنا تعليماً عسكرياً يدخل فى اعتباره فى المكانة الأولى قيمة حياة كل منهم . ونحن نخل بواجبنا إذا ركزنا على التدريب الفنى وحده بغير التعليم السيكولوجى» .

ويترك (شيرنر) اليونان وجزيرة كريت حيث ترابط فرقة الجبال السادسة التى يقودها ، وانتقل إلى جبهة (مورمانسك) ، فانضم إلى مجموعة الجيوش العاملة هناك .

وفى يونيو ١٩٤٢ رقى إلى رتبة الجنرال فى قوات الجبال ، وفى الفترة ما بين نوفمبر ١٩٤٣ وفبراير ١٩٤٤ كان يقود مجموعة الجيوش (نيكوبول) . ولشهرين أرسل إلى هيئة الأركان العامة عاد بعدهما ليتولى قيادة مجموعة الجيوش العاملة فى (أكرانيا) ، فحارب فى القرم وفى رومانيا ، وفى الكربات حتى خط دنيستر .

وقام يوم ٧ من أبريل ١٩٤٤ بجولة تفتيشية على الجيش السابع عشر . وعاد منها بتقرير يسوده التفاؤل ندم بعد ذلك عليه ، إذ أبرق إلى القيادة العليا يقول : إن كل شىء على مايرام ، وإن الدفاع عن منطقة القرم أصبح مؤمناً .

* * *

غير أنه سرعان ما خاب تقديره ، إذ إن الجيشين الثانى والخامس عشر السوفيتيين بقيادة المارشال (تولبوكين) أخذا يهاجمان فى عنف الجيش الألمانى السابع عشر الذى يتولى قيادته الجنرال (جاينيك) الذى قرر فى البداية أن يتحصن فى (سيباستوبول) ، ثم طلب بعد ذلك

التصريح له بتركها والجلاء عن القرم . ولم يستطع (شيرنر) إلا أن يشاركه فى هذا الطلب ، ولكن هتلر كان مصراً على تحويل (سيباستوبولى) إلى قلعة لا يختلف مصيرها ومصيرُ ستالنجراد إذا لم يحضر الجنرال البافارى إلى (برخستجادن) للتباحث مع الفوهرر ويحاول إقناعه .

وفى هذه المناسبة برهن هتلر بصورة ملموسة على ثقته فى (شيرنر) ، فقبل طلبه ، ووجه غضبه إلى قائد الجيش السابع عشر ، فعزله عن القيادة وطرده من الجيش .

وفى بداية شهر مايو ١٩٤٤ تولى (شيرنر) مسئولية تنظيم الجلاء عن (سيباستوبولى) وعن القرم ، وبصفة عملية تصفية الجيش السابع عشر . كانت تلك أياماً مرعبة بالنسبة للمسئولين عن الجبهة : فقد أعفى كل من أريك مانشتاين قائد مجموعة جيوش أوكرانيا الشمالية ، وإيفالد كلايست قائد مجموعة جيوش أوكرانيا الجنوبية .

وخلف مانشتاين فالتر مودل ، أما كلايست فقد حل محله (شيرنر) نفسه . وتراكمت الكوارث الألمانية من أسبوع لأسبوع ، ومن شهر لآخر ، حتى إذا كان يوم ٢٤ من يوليو ١٩٤٤ نقل (شيرنر) ليتولى قيادة مجموعة جيوش الشمال العاملة فى شبه جزيرة (كولاندى) مع الجيشين الثامن عشر والسادس عشر ، ومجموعها ٢٢ فرقة . لكى يقاتل على جبهة البلطيق أمام الهجوم الكاسح الذى شنته القوات السوفيتية التى انطلقت لطرد القوات الألمانية عن حدودها .

وفى وسط هذه الكوارث استطاع (شيرنر) أن يبرز ويسترعى أنظار هتلر ، الذى تأثر من أساليبه العسكرية وليس من نتائجها ، فمنحه ليلة رأس السنة لعام ١٩٤٥ أعلى وسام ألمانى وهو وشاح «الماسات» فأضيف إلى أوسمة «أوراق الغار» و «صليب الفرسان» وغيرها .

وتسلم (شيرنر) يوم ١٧ من يناير ١٩٤٥ أخيراً ، آخر قيادة يتولاها ، وهى مجموعة جيوش وسط ألمانيا التى كان عليها أن تتلقى الصدمة السوفيتية النهائية فى سيليزيا بوصفها آخر معاقل الرايخ الثالث ، وكذلك فى تشيكوسلوفاكيا حيث تعمل الجيوش التاسع والسابع عشر والأول والرابع .

وفى هذه المعركة اليائسة ، انتهج الجنرال البافارى شعاراً جديداً يقول : «القوة من خلال الخوف» وهو عكس الشعار القديم وهو : «القوة من خلال البهجة» .

* * *

لقد بنى (شيرنر) لنفسه سمعة العسكرى الصلب ، سواء بين السكان المدنيين فى المناطق

المحتلة . أو بالنسبة للجنود بصفة خاصة الذين كان يطالبهم بالنظام المطلق وفقاً لتعاليم المدرسة العسكرية الألمانية ؛ كما حددها واحد من أساتذتها هو الفيلدمارشال (جراف فون مولتكه) الذى مازالت الكلمات التى أدلى بها عام ١٨٩٢ فى الرايخستاج محفورة فى ذهن الجنرال البافارى .

هذه الكلمات تقول : « السلطة من أعلى ، والطاعة من أسفل : ذلك أن النظام هو الروح الحقيقة للجيش . فالنظام هو الذى يجعل الجيش ماينبغى أن يكون ، والجيش بغير نظام ماهو إلا مؤسسة باهظة التكاليف ، ومن ثم غير قادرة على مواجهة الحرب ، وخطيرة فى وقت السلم » .

إن الرغبة فى جعل الجيش الألمانى صورة من النظريات التى وردت فى كتاب (كفاحى) الذى وضعه هتلر تكملُ فى (شيرنر) التزمت العسكرىَّ الألمانى التقليدى . الأمر الذى صنع منه جنرالاً لا روح له . يقول الأعداء : إن نجاحاته العريضة إنما ترجع فقط إلى عنفه الوحشى ، وانعدام المثل العليا لديه ! ، ثم إنه هو نفسه يفخر بوصف شخصه بأنه « إستراتيجى سيئ . . وجندى عظيم » . فلقد كان الإرهاب هو القاعدة (الوحيدة) فى علاقته بجنوده ، لاقتناعه بأنهم لا يتأثرون إلا بالقوة . وبالوعود الرنانة . وتفسر هذه الطريقة من التفكير التى حركها فيه هتلر سر ارتقائه الخاطف فى مهنة الجندية . إلى جانب أن (شيرنر) استحق تقدير الفوهرر ؛ لأنه كان أول من أدخل تدريس النظريات الاشتراكية الوطنية بين الضباط الألمان .

وهناك أمثلة كثيرة تقيم الدليل على تشدده ، منها : أنه عندما كلفه هتلر بإعادة تنظيم مجموعة الجيوش (ا) بعد هزيمتها فى رومانيا ، رأى بالقرب من (كارشاو) مجموعة من الجنود قوامها ٤٥٠٠ جندى ، وهى تنسحب فى حالة من الفوضى بعد تلك الكارثة ، وعند ذلك قضى بأن كل جندى أو ضابط لا يحمل معه عتاده وسلاحه يعدم رمياً بالرصاص ، مالم يقدم تبريراً لذلك . وكان من بين الذين أعدموا عدد من ضباط أركان الحرب فى قيادتى جورنج وروزنبرج . وقد احتج رجال السياسة على ذلك ، ولكن (شيرنر) لم يتراجع عما قضى به !.

* * *

وأتاحت له القيادة الجديدة أن يطبق نظريات النظام بأعمق ما تكون ، وذلك فى الوقت الذى فرض فيه الجيش الأحمر عليه انسحاباً لامعدى عنه من سيليزيا .

والواقع أن السوفييت أوقعوا (شيرنر) فى كماشة من الصلب : فمن الشمال تضغط الجبهة

الأوكرانية الأولى بقيادة (كونيف)، ومن الشرق الجبهة الرابعة بقيادة (مالينوفسكى)، وحتى من الغرب كان الجيش الأمريكى الثالث الذى يقوده الجنرال (باتون) يستعد للقيام بهجومه، أو على الأقل قطع الطريق أمام الانسحاب الألمانى المحتمل.

ومع ذلك: وفى خضم الكارثة الكاملة التى يواجهها الجيش الألمانى كان على (شيرنر) بالذات أن يتولى قيادة أكبر قوة عسكرية ألمانية مازالت فى أوربا بأسرها.

وفى مطلع ربيع عام ١٩٤٥ كان (شيرنر) يأمل وفقاً لخطة نظرية بحتة أن يضع مشروعاً لإقامة «قلعة وطنية» على الحدود بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا يحارب فيها آخر معركة، وحبذا لو كان هذا بوجود الفوهرر، وجعله يفضلها على عش النسر فى جبال الألب البافارية.

غير أنه فى بداية شهر مارس كان الجنرالان السوفيتيان (كونيف) و(بتروف) قد تغلبا على مقاومة قوات (شيرنر) فى سلوفاكيا، واحتلا إقليم مورافيا بأكمله تقريباً. أما (مالينوفسكى) فقد احتل بدوره قلعة (براتيسلافا)، وأخذ يتجه مباشرة نحو (فيينا).

وفى بداية شهر أبريل كانت الأمور قد تقررت. ومع ذلك فإن (شيرنر) قد استفاد من هذه الأوضاع. ففى يوم ٥ من أبريل - وكان قد أقنع هتلر بأن مجموعة جيوشه هى الوحيدة التى يمكن أن تؤثر فى المستقبل - تلقى عصا الفيلدمارشال وقدم فى مقابلها التأكيد بأنه سيحارب حتى آخر رجل. وبينما راح رجال كثيرون من مدنيين وعسكريين يهزون رءوسهم من حوله وكلهم شك فيما يؤكده الفوهرر من ثقة فى النصر النهائى، كان (شيرنر) هو الوحيد الذى أقسم أمامه يمين الولاء.

هذا هو السبب فى أن هتلر قرر تعيينه قائداً لمقر قيادة الجبال الذى كان فى الأيام الأولى من شهر أبريل لا يزال يفكر فى الانسحاب إليه، ليقاوم فيه حتى النهاية. وعندما تلى فى مخبأ المستشارية يوم ٨ من أبريل تقرير مفصل عن الموقف العسكرى، تنبأ هتلر بالسلوك الذى يمكن أن يقدم عليه الروس، وأعلن أنه مقتنع بأنهم سوف يتجاهلون برلين؛ ليركزوا ضغطهم على تشيكوسلوفاكيا؛ لكى يدوروا حول جبال بوهيميا، ويصلوا إلى الدانوب.

وقد أقنعه ذلك بضرورة إرسال ثلاث فرق مدرعة إلى (شيرنر) بالرغم من قلة الرجال تحت تصرفه.

* * *

بيد أن فاجعة الرايخ الثالث كانت توشك أن تتم فصولاً، وبصورة محتومة. فبينما راحت

الجيوش الألمانية فى تشيكوسلوفاكيا تحاول وقف تقدم الروس فى مورافيا ، كان هتلر يتنحر فى برلين بعد أن عين دوينيتس رئيساً للحكومة ، و(شيرنر) قائداً أعلى للجيش .

وراح الأميرال الكبير ابتداء من الأول من مايو يحاول جمع بقايا الجيش الألمانى الذى تفتت بعد الهجوم البريطانى المفاجئ ، وتفرق فى مناطق لا اتصال بينها . ومن بين الثلاثة ملايين من الرجال الذين كانوا لا يزالون يحملون سلاحاً فى أيديهم ، كان حوالى المليون تحت قيادة (شيرنر) .

وقرر الأميرال دوينيتس أن يكسب بعض الوقت دون أن يخامره أى شك فى إمكان حدوث فجوة بين الحلفاء الأمريكين والبريطانيين من ناحية ، والروس من الناحية الأخرى ، يمكنه استغلالها . غير أنه أوصى جميع القادة بأن يحاولوا الاستسلام للغربيين وليس للسوفيت .

وبينما كان فون فريدبورج يتفاوض هو ومونتجومرى للتوصل الى صلح منفرد ، استدعى (دوينيتس) إلى فلنسبرج حيث يقيم جميع المسئولين عن قطاعات الجيش التى مازالت تقاتل ، فبعث (شيرنر) إلى هذا الاجتماع رئيس أركانه وهو الجنرال (اولدفيج فون ناتزمر) ؛ ليبلغ رئيس الدولة الجديد أنه لن يوافق على الاستسلام وأنه سيقاتل من القلعة البوهيمية إلى آخر رصاصة .

غير أن دوينيتس كان قد اتخذ قراره وانتهى الأمر ، فعاد مبعوث (شيرنر) سرًّا إلى مقر قيادته ، ثم وصلت ظهر يوم ٧ من مايو برقية من القيادة العليا تتضمن أمراً بالاستسلام فى الساعة صفر من يوم ٩ من مايو .

وهكذا تبدد أمل (شيرنر) فى عقد صلح منفرد مع الغربيين ، وهو ما كان يجعله قادراً على الاستمرار فى محاربة السوفييت . وعند ذلك اقترح (ناتزمر) مشروعاً للانسحاب إلى الخطوط الأمريكية يقوم به الجيش الألمانى السابع عشر والجيش الأول مدرعات ، على حين يقوم الجيش الرابع مدرعات بحماية هذا الانسحاب .

لكن (شيرنر) كان يشعر بالاضطراب من جراء أمر الاستسلام ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : إنه لن يحترمه ، فاجتمع معاونوه ونصحوه بألايفعل ، فاضطر أن يقبل مشروع (ناتزمر) . غير أن اليأس الذى ملأ قلبه دفعه إلى الرغبة فى الفرار ، فخلع ثوبه العسكرى دون أن يفكر فى أنه بذلك إنما يتخلى عن قواته ، ويتركها لمصيرها !

* * *

ومن المرجح أن المشروع قد نفذ يوم ٩ من مايو . ونقول من (المرجح) لأن التواريخ تتعارض هنا مع بعضها البعض : فقد ألقى (شيرنر) ثوبه العسكرى . وارتدى ملابس الفلاحين ، ووضع فى جيبه أوسمته ونياشينه ، وبدأ ينسحب مع أركان حربه . وقد سار فى مقدمة صف العربات الطويل . وعندما استطاع أخيراً أن يضع يده على طائرة صغيرة من طراز (ستورش) فإنها لم تلبث أن أقلته واختفى عن الأنظار . ربما على أمل أن يصل إلى مقر القيادة الجبلية ، ولا يدرى أحد هل كان ذلك لكى يقاتل حتى الموت ، أو لمجرد الاختفاء ؟

على أنه يؤخذ من كتاب وضعه (جورجن تورفائد) عن هذه النقطة أن (شيرنر) عاد إلى الظهور مساء يوم ١٤ من مايو ؛ إذ شوهد فى حانة سان جوهان فى إقليم التيرول ، وهو لا يزال مرتدياً ثياب الفلاحين ، وعليه السترة التقليدية لبافاريا التى ينحدر منها ، فتعرف عليه أحد الضباط ، وفى صباح اليوم التالى اعتقله الأمريكيون.وفى الوقت نفسه كانت جيوشه تستسلم أخيراً ، وقد أطبقت عليها قوات السوفييت والقوات الأمريكية من جميع الاتجاهات ؛ وكان ذلك يوم ١١ مايو . فكانت آخر من استسلم .

وطالب السوفييت به لأن لهم لديه حساباً يريدون أن يتقاضوه ، فنقل (شيرنر) إلى الاتحاد السوفيتى فى أواخر شهر يونية ١٩٤٥ ومنذ ذلك الوقت ، ولعشر سنوات لم يعرف شىء عنه ، ولكن تسربت بشأنه بعض الشائعات فقد قيل : إنه ألحق عام ١٩٥٠ بالقيادة العليا لقوات كوريا الشمالية ، وانهم نقلوه عام ١٩٥١ ليلقى محاضرات فى التكتيك العسكرى فى إحدى كليات المشاة السوفيتية.وفى عام ١٩٥٢ أكدت صحيفة بريطانية أن (شيرنر) فى الشرق الأوسط حيث يعمل لحساب السوفييت فى تدريب أحد الجيوش العربية . أما الحقيقة فهى أن الفيلدمارشال الألمانى الأسير الذى قضى أعواماً طويلة فى معتقل (جولاج ٢٧) السوفيتى صدر عليه حكم يوم ١١ من فبراير ١٩٥٢ من المحكمة السوفيتية العسكرية العليا يقضى بسجنه ٢٥ عاماً.غير أنه ما كادت تنقضى على ذلك سنتان ؛ حتى أطلق سراحه فجأة يوم عيد الميلاد عام ١٩٥٤ ، وبعد أن أمضى بضعة أيام فى موسكو وصل فجأة أيضا إلى برلين ، وكان ذلك يوم١٨ من يناير ١٩٥٥ ، حيث استقبله فى القطاع الشرقى منها وفد من الجنرالات الألمان القدامى ، ومندوب عن السفير السوفيتى ، وكبار المسئولين فى الحزب الشيوعى .

إن الروس لم يختاروا هذه اللحظة بالذات لظهور (شيرنر) اعتباطاً : فقد كان النقاش يدور فى ذلك الوقت فى جميع أنحاء العالم حول احتمال أنه من المناسب إعادة تسليح ألمانيا .

لم يتردد فرديناند شورنر ، وهو الوطنى الاشتراكى المتحمس ، فى أن يعصى أوامر هتلر . ولقد كان مع كل من مودل وروميل وكليسلرنج واحداً من الماريشالات الأربعة الذين يحملون وسام أوراق الغار الذهبى المرصع بالماس ، وهو أعلى وسام ألمانى .

سيب ديترخش الجنرال فى قوات العاصفة ، حكم عليه بالسجن لمدى الحياة ، لأنه أمر يوم ١٧ ديسمبر ١٩٤٤ بإعدام ٧١ أمريكياً .

ومثل هذه الشخصية من شأنها إثارة الكثير من المجادلات ، وبالفعل انطلقت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى لتكشف عن الوثائق المؤيدة والمعارضة للفيلدمارشال ، فقيل عنه : إنه واحد من أفضل من يمثلون الطبقة العسكرية الألمانية ، فى حين قال آخرون : إنه « جنرال سياسى نازى » ، شق طريقه بالإرهاب ، وإنه مجرم حرب .

وإزاء هذه الاتهامات انتقل إلى ألمانيا الاتحادية ، ولكن الاتهامات تابعته ، فقدموه للمحاكمة حيث أصدروا عليه حكماً بالسجن أربعة أعوام ونصف العام ،

ولكن فرديناند شيرنر آخر ضابط يرقيه هتلر إلى رتبة الفيلدمارشال ، وآخر جنرال يستسلم فى الحرب ، لم يمض فى السجن سوى عامين : من ٤ من أغسطس ١٩٥٨ إلى ٣ من أغسطس ١٩٦٠ .

الفصل السادس والعشرون

قادة الجيوش

فى الرايخ الألمانى الثالث

إن ذلك الضابط الألمانى العظيم الذى لقبوه باسم «الجنرال المثالى» ، قد مات منتحراً فى سجن سالسبورج ، وكان ذلك يوم ٢٤ من مايو ١٩٤٥ عندما وضعت كبسولة صغيرة من سم السيانور نهاية لحياة (روبرت فون جرايم) فيلدمارشال الرايخ الألمانى البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً .

فلقد وقع أسيراً فى أيدى الحلفاء يوم ٨ من مايو ؛ إذ كانوا قد اعتقلوه على حين كان يحاول تنفيذ آخر أمر تلقاه من الفوهرر : ذلك أنه كان ضابطاً ابن ضابط ، وأمضى حياته كلها وهو لا يرتدى غير الثوب العسكرى . وقد خاض الحرب العالمية الأولى ، فلما انتهت ظل فى الجيش ، حتى بعد أن تفككت ألمانيا فى تلك السنوات المظلمة التى جاءت بعد معاهدة الصلح ، وقيام الجمهورية ، وذهاب الإمبراطور غليوم الثانى إلى المنفى .

وكان فون جرايم من الضباط الأوائل الذين انضموا إلى صفوف السلاح الجوى الألمانى فى الثلاثينات . وفى الطيران قطع أهم خطواته فى مهنة الجندية . فلما اندلعت الحرب العالمية الثانية أرسل إلى الجبهة الشرقية قائدا للفرقة الجوية السادسة ، فقاتل السوفييت ، ودمر لهم الجانب الأكبر من طائراتهم . ويصفه زملاؤه بأنه رجل نقى صاحب مثل عليا ، لم يحاول قط أن يصطدم مع السلطة ، فإن النازية عنده تعنى سياسة . وفون جرايم يضع كل آماله فى الجيش ، فهو يشعر أنه جندى ، وليس نازيًّا .

أما ألمانيا فهى وطنه ، وهى دولة من الدول الكبرى ينبغى أن تعود إلى الدور الذى هى جديرة به ، ولكن حرباً لم يخضها الألمان جيداً فخسروها لسوء طالعهم قد جعلتها موصومة بغير مبرر .

كان فون جرايم رجلا مطيعاً للأوامر ، مكافحاً بكل مالديه من قوة ، ورجل تكتيك جيد . أحرز نجاحات ملحوظة كان من شأنها أن أثرت الشهرة التى لازمته كقائد محارب بالكثير من المجد .

وكان عليه فى النهاية أن يتراجع بدوره أمام الهجوم الكاسح الذى شنه الجيش الأحمر ؛ فقد كانت تعوزه وسائل المقاومة . وطائراته يقل عددها يوماً بعد يوم ، فاضطرته الأحداث إلى الوصول بقيادته إلى ميونيخ فى بافاريا ، وتلقى يوم ٢٦ من أبريل ١٩٤٥ أمراً عاجلاً من الفوهرر : وكان عليه أن يذهب فوراً إلى مخبأ المستشارية فى برلين حيث يعيش هتلر ساعاته الأخيرة . وكانت هناك (حنا رايتش) وهى الطيارة البارعة والمدربة الشهيرة لصواريخ ف ٢ ، فتولت قيادة الطائرة التى حملت فون جرايم . وهبطت به فى ميدان براندلبورج .

وتلقى فون جرايم من هتلر ، وهومنذهل من المفاجأة . وكله إخلاص حتى النهاية لدوره كجندى عليه أن يطيع الأوامر دون أن يناقشها – تلقى عصا الفيلدمارشال وتعيينه قائداً عاماً لسلاح الطيران الألمانى بدلاً من ذلك «المهرج» جورنج ! وكانت فى انتظاره كذلك مهمة ثقيلة . هى أن يقلع بطائرته على الفور ، ويصل إلى (بلون) ، حاملاً أمراً بإلقاء القبض على هنريش هملر .

كان فون جرايم مجروحاً فى قدمه ، فإن المدافع الرشاشة الأمريكية قد أصابته خلال رحلته الجوية . ولكن الجنرال كتم آلامه ، وبعد أن ضمد جرحه على عجل صعد إلى الطائرة ، وأقلع بها إلى (بلون) . وفشلت المهمة . وانهار الرايخ ، وأصبح كل شىء طللاً وخراباً . وإذ كان من غير المجدى البحث عن هملر واعتقاله ، فإنه هو الذى وقع أسيراً فى أيدى الأمريكيين .

وعندما أغلقوا عليه باب الزنزانة راح يتأمل فى الماضى ، ويبحث فى الحاضر . أما المستقبل فكان معتماً حافلاً بالمخاطر . فلم يسعفه شىء حتى إخلاصه للسلاح ، فلجأ إلى (السيانور) الذى زوده به هتلر ؛ لكى ينجو من هزيمة ثانية نهائية ، أحس بأنه ليس على الإطلاق مستعداً لمواجهتها ، ولم يكن هو الوحيد من بين الضباط العظام فى الجيش الألمانى الذى يفضل الموت على (العار) ، أى الاستسلام بدون قيد ولا شرط .

فقبل ذلك بشهور قليلة – أى فى يوم ١٩ من أغسطس ١٩٤٤ – قتل ضابط آخر يحمل رتبة الفيلدمارشال نفسه فى (ميتز) ، تاركاً وراءه رسالة طلب تسليمها إلى هتلر ، بمثابة وصيته الروحية . إنه هانز جونتر كلوجه الذى كتب فى هذه الرسالة يقول :

«عندما تقرأ رسالتى هذه فإننى لن أكون على قيد الحياة ، فلست بقادر على أن أتحمل اللوم بأنى قد عرضت للخطر مصير الجبهة الغربية ، باستراتيجية خاطئة » .

وفى مكان آخر من الرسالة يقول : . . ياسيدى الفوهرر . . أصدر قراراً بوقف الحرب ، فإن الشعب الألمانى قد تحمل آلاماً لا قبل لبشر بها . ويتعين أن نضع لها حداً » .

إن الكلمات الأخيرة لهانز جونتر كلوجه حافلة بالنقد للسياسة الهتلرية ، وهى على أى حال النتيجة المنطقية لتلك الأحداث التى عاشها الجنرال كجندى . فقد دخل وهو مازال شاباً صغيراً السلك العسكرى ، وتخرج ملازماً فى جيش بروسيا فى التاسعة عشرة من عمره ، وكان ذلك عام ١٩٠١ . وحارب (كلوجه) فى الفلاندر خلال الحرب العالمية الأولى ، واحتل رينانيا عام ١٩٣٦ ، وتولى بعد أربعة أعوام قيادة الجيش الرابع الذى اجتاح بولندا .

ومع بداية عملية (ذو اللحية الحمراء) كان على الجبهة السوفيتية . وفى يوم ١٦ من ديسمبر ١٩٤١ أصبح قائداً لمجموعة جيوش الوسط خلفاً للجنرال فون براوشيتش الذى أعفاه هتلر من هذا المنصب ، وحصل على رتبة فيلدمارشال فى يونية عام ١٩٤٠ ، وفتح مدينة (سمولنسك) الروسية ، وضرب حصاراً حول نصف مليون جندى من الجيش الأحمر . وقد وصل مع جيوشه المظفرة فى زحفه حتى أربعين كيلو متر من موسكو .

وفى يوم ٣ من يوليو ١٩٤٤ كان قائداً عاماً للقطاع الغربى الميدانى حيث كان يعمل قبل ذلك الجنرال فون روندشتت ، ثم حصل على قيادة مجموعة الجيوش (ب) عندما جرح روميل وعاد إلى الوطن .

لم تكن إستراتيجية الحرب الهجومية تتضمن أى أسرار بالنسبة لفون كلوجه ، ذلك الجنرال ذى الطابع القديم الذى لا شىء لديه سوى المنهج والخطط الميدانية المتقنة . غير أنه لم يرث عن قدماء الضباط فى الجيش البروسى ، ذلك الاحتقار الذى يكنونه للحياة الإنسانية . فهو يحمى رجاله ، ويحاول التنبؤ بمعرفة مكامن الخطر ، فيعد لها مقدماً الدفاعات اللازمة .

ثم إنه لايعجب بالنازيين ، ولم يكن مقتنعاً بأحقية هتلر فى قيادة القوات الألمانية المسلحة ، لأنه ليس عبقرية عسكرية . ويؤمن كلوجه بما يسمى «الحرب النظيفة » ، ويكره المذابح ، والإبادة الجماعية.وقد اشترك ولو بدور ثانوى فى مؤامرة ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ضد هتلر . وعندما راح رجال الجستابو وقوات العاصفة يحققون فى نشاطه ، كان يتولى قيادة انسحاب الجيشين الخامس والسادس اللذين تعرضا لحصار قوات الحلفاء .

وأصدر إليه هتلر الأمر بأن يقاوم مهما كان الثمن ، لكن فون كلوجه لم يأخذ كلمات الدكتاتور فى اعتباره ؛ فقد كان يضع نصب عينيه أمراً واحداً ، هو أن جيوشه وجنوده يجب أن تنجو. وعزله هتلر نتيجة لذلك ، وعين بدلاً منه الفيلدمارشال (مودل) . وكان ذلك يوم ١٧ من أغسطس ١٩٤٤ .

كان فون كلوجه قد بدأ يوقن أن بلاده قد خسرت الحرب ، ولكنه ظل يفكر فى أن فى الإمكان إنقاذ ألمانيا . وهذا هو ما دفعه إلى الكتابة إلى برلين ، وهو أيضا ما حمله على أن يقتل نفسه . فلقد كان يعتقد أنه بمثل هذا العمل المثير يمكنه أن يجعل هتلر يغير خططه ، لكنه بطبيعة الحال كان يخدع نفسه ؛ إذ إن انتحاره لم يسفر إلا عن بضع كلمات تتسم بالاحتقار تفوه بها الفوهرر . . .

* * *

وهذا المصير نفسه كان فى انتظار (فلتر مودل) الفيلد مارشال الذى تولى قيادة القطاع الغربى بدلاً من فون كلوجه : فلقد كان مودل بدوره استراتيجياً بارعاً ، وتكتيكيا جيداً ، وجندياً حتى أعماقه ، محاطاً دائماً بالتقدير المشوب بالاحترام من الضباط والجنود ، وهو يكبر فون كلوجه بعام واحد ؛ إذ ولد فى جنتين يوم ٢٤ من يناير ١٨٨١ والتحق بالجيش عام ١٩٠٩ ليتدرب فى اللواء الثانى والخمسين البروسى للمشاة . فلما جاءت النازية استطاع أن يصعد بخطوات واسعة حتى قمة مهنته العسكرية التى بدأها متأخراً .

ولم يكن (مودل) رجلاً سهلاً ، فقد دافع حتى النهاية عن القرارات التى اتخذها ، طالما أنه كان مقتنعاً بسلامتها . وما كان يخشى مواجهة هتلر ، فكان يرد على صراخه بصراخ مثله ، لكى يجعله يتقبل نظرياته وعندما ذهب يحارب فى الاتحاد السوفيتى قائداً للجيوش المدرعة اشتهر بأنه « رجل المواقف الميئوس منها » . وعندما أمره هتلر بأن يصمد فى وجه الهجوم السوفيتى الكاسح فى شهر أغسطس ١٩٤٣ فإن (مودل) أمر رجاله بالتراجع حتى خط (الدنيبر) ، لأنه رأى أن ذلك وحده فيه إنقاذ للقوات التى يقودها .

واستدعاه هتلر إلى دار المستشارية وراح يهاجمه ، ويوجه إليه اللوم ، ويهدده بأقسى أنواع العقاب ، ولكن (مودل) أخذ يدافع فى صلابة عن القرار الذى اتخذه ، وقدم الحجج الدامغة التى أقنعت الفوهرر الذى اكتفى بأن أمره بفترة راحة .

وفى بداية يناير ١٩٤٤ تولى قيادة مجموعة جيوش الشمال فى قطاع لننجراد ، وفى

أغسطس كان على رأس مجموعة الجنوب فى الكربات . وخلف فون كلوجه ، وأصبح قائداً للقطاع الغربى ، وأصدر أمراً لقواته بالتراجع حتى الحدود الغربية لألمانيا ، واشترك فى معركة (الأردين) التى كانت آخر جولة يائسة لجيش هتلر .

وشاهد فى ذهول تفكك الرايخ ، وبينما كانت تقله سيارة يوم ٢١ من إبريل ١٩٤٥ بالقرب من (راتنجن) إذا به يسمح طابوراً أمريكياً متقدماً . ولم يرض فالتر مودل فيلدمارشال الرايخ أن يقع أسيراً فى أيدى العدو ، لكنه لم ير بصيصاً من الأمل . وأدرك أن النهاية باتت قريبة

وعند ذلك حيا الضباط الذين معه . ووضع رصاصة فى مسدسه ، وأطلقها على رأسه ، فخر صريعاً وهو يحمل على صدره وسام أوراق الغار الذى حصل عليه بوصفه أفضل قائد ألمانى فى الشهور الأخيرة من الحرب .

وهكذا فإنه مثل (فون جرايم) و (فون كلوجه) رأى أن الموت أهون من الهزيمة بالنسبة لرجال تحت تصرفهم فرق وجيوش يستخدمونها كما لو كانت رقعة شطرنج ، ويحركونها بكل دقة . فهم لا يقبلون أن يمرغوا فى الوحل تلك الأعلام المظفرة ، تاركين مهمة تسليمها إلى العدو المنتصر لرجال آخرين !

* * *

ولا تقتصر الأمثلة على سلوك فون جرايم ، وكلوجه ، ومودل ، فى الجيوش الهتلرية . وإنما هناك ضباطٌ عظام كثيرون اتسموا بحسن الاستعداد ، ومنهم على سبيل المثال (فيلهلم فون ليب) الذى طلب بنفسه يوم ١٣ من يناير ١٩٤٢ أن يحال إلى الاستيداع نظراً لأنه لم يستطع التغلب على الخلاف الذى نشب بينه وبين القيادة العليا .

وقد حارب (فون ليب) كضابط مدفعية وهو فى الرابعة والعشرين من عمره فى الصين فى أثناء حرب البوكسر عام ١٩١٦ ، فأهدى له الإمبراطور غليوم الثانى وسام الفرسان . وفى يونية ١٩٤٠ اقتحم خط (ماجينو) ، ذلك الحصن الدفاعى الذى كان الفرنسيون يعتقدون أنه غير قابل للاختراق ، فأصبح فيلدمارشالاً فى العام نفسه .

إنه أحد خبراء الحرب الدفاعية ، وقد كتب فى ذلك مؤلفا بعنوان (العمل الدفاعى) ، غير أنهم عهدوا إليه عام ١٩٤١ بمهمة هجومية لغزو كل من ليتوانيا وليتونيا وأستونيا على رأس مجموعة جيوش الشمال . وقد انطفأت جذوة انطلاقة هجماته عند مدينة (لينتجراد) ، وكان

أول من أدرك أن من غير الممكن الاستيلاء على المدينة السوفيتية .

وكان من شأن بعض أحكامه فى بداية الحرب أن خلقت حوله فراغاً ؛ لأن النازيين لايسمحون لأحد بنقد الحزب وزعمائه . وقد عرف (فون ليب) أنه غير مرغوب فيه فى برلين ، وفطن إلى أن هتلر يريد كبشاً للفداء ، لتغطية الفشل أمام لننجراد . وهنا سلم علامات رتبته واستعفى من منصبه ، وأحالوه إلى الاستيداع منذ عام ١٩٤٢ . فظل بعيداً عن الحرب ، مما عجل بظهور علامات الشيخوخة عليه . ثم رثى عام ١٩٤٥ فى الثياب المدنية فى أثناء محاكمات نورمبرج ، فراح يدافع عن الكثيرين من الضباط الألمان من اتهام أنهم مجرمو حرب .

كانت نظرية (فون ليب) لنفسه ولزملائه ، أن الجندى لايمكن أن يخالف الأوامر ، والمسئولية تقع على كاهل الساسة ؛ لأن العسكريين لهم دور واحد هو التنفيذ . وقد ألف عدة كتب دعمت شهرته كجندى عظيم . ثم توفى يوم ٢٩ من أبريل ١٩٥٦ ، ودفن فى احتفال مهيب .

* * *

وعندما أدرك فى عام ١٩٤٢ أنه لن يستطيع اقناع القيادة العليا بسحب مجموعة جيوش الشمال من جحيم (داميانسك) ثم تخلى عن منصبه ، فإن رجلا آخر حل محله فى القيادة ، هو (جورج فون كوشلر) الذى يصغره بخمسة أعوام .

ومنذ بداية الحرب كانت هناك مهام يضطلع بها الجنرال كوشلر فى الجبهة الشرقية فى قيادة الجيش الثالث الذى انطلق من بروسيا الشرقية ، ثم شدد الضغط فى اتجاه (ناريف) على بولندا ،وقاد كوشلر رجاله ببراعة فى هذا الهجوم ، فوصل طبقا للمناورة العظمى التى وضعها (هالدر) – وهذا الوصف من عند المؤرخ البريطانى ب . ليدل هارت – وصل إلى الخط الدفاعى الممتد على نهر (بوج) إلى الوراء قليلا من العاصمة البولندية وارسو ، وجعله تذروه الرياح .

وكان كوشلر – مثله مثل الكثيرين من الجنرالات الألمان – يحتقر النازيين . ويقول : إن الأساليب التى تستخدمها قوات العاصفة ، وخاصة وحداتها التى تعمل فى الأراضى المحتلة ، تثير فى نفسه أعمق مشاعر الاشمئزاز ! غير أنه لم يصنع شيئاً لوقف تلك البشاعات .

وكلف فى عام ١٩٤٠ بالهجوم على هولندا بالجيش الثامن عشر ، ثم عاد إلى شرق فرنسا ، حيث قاتل إلى جانب (فون كلوجه) الذى كانت تفصل بينهما خصومات ملحوظة .

وفى نوفمبر ١٩٤٣ كان عليه وفقا لمناورة تم التنسيق لها ، أن يغزو (نيفيل) فى الاتحاد

السوفيتى مع جيوش فون كلوجه . وفى اليوم الثامن من ذلك الشهر قام فون كلوجه بتنفيذ المناورة ، ولكن بخسائر فادحة ، وحقق هدفه المرسوم ، ورفض (كوشلر) فى صبيحة اليوم التالى مساندة عملية فون كلوجه الذى اضطر إلى التراجع بعد أن ذهب القتال الذى خاضه سدى !

وعلق هتلر فى برلين على ما وقع ، فقال : إن كارثة (نيفيل) هذه إنما ترجع إلى ذلك الكبرياء الأحمق الذى يباعد بين الجنرالين .

على أن الفوهرر لم يكن ساخطاً على هذا الوضع الذى حاول استغلاله : فعندما كان يستقبل فى (عش الذئب) الفيلدمارشال مانشتاين فى شهر ديسمبر التالى قال له : إن رجال (كوشلر) هم أفضل جنود فى الجبهة الشرقية ! وكان هتلر يريد بذلك التركيز على المنافسة بين جنرالاته ، حتى يحصل على أحسن النتائج .

غير أنه لم ينجح فى ذلك ، فاستبدل كوشلر عام ١٩٤٤ بالجنرال (مودل) ووقع كوشلر فى أسر الأمريكيين ، وحكم عليه فى نورمبرج بالسجن عشرين عاما باعتباره مسئولاً عن المذابح التى تعرض لها رجال العصابات السوفييت . غير أنه لم يقض فى السجن غير مدة قصيرة ، وخرج ليقضى بقية أيامه فى بيت صغير فوق الجبال ، وتوفى فى الستينات .

* * *

وهناك عدد آخر من الجنرالات الألمان البارزين ، منهم : الفيلدمارشال البافارى ماكسيمليان فون فيكس الذى حذر هتلر من حدوث نكسة للقوات التى كانت تحارب فى البلقان ، وطلب منه الانسحاب منه نظرا لأنه لم يعد فى الإمكان الدفاع عنه إذا تعرض لهجوم بقوات كبيرة . والواقع أن وصيته لقيت أذنا مصغية لدى الفوهرر ، فوافق على الانسحاب من بلجراد ، وكان ذلك أفضل عملية عسكرية تمت خلال الحرب .

وكان (فون فيكس) يبدو بعويناته كأنه أستاذ جامعة ضل طريقه وإذا به يلقى نفسه وسط الجنود ، وقد أحاله هتلر إلى الاستيداع يوم ٢٢ من مارس ١٩٤٥ بعد أن وصفه قبل ذلك بشهرين بأنه . . . «رجل يشعر بالتعب من أى شىء ! ولم يعد قادرا على أى إمكانية جديدة» وقد جنبته هذه الإحالة التعرض للأضواء فى محاكمات الحلفاء ، وبقى فى الظل إلى أن توفى يوم ٨ من أغسطس ١٩٥٤ بالقرب من (بون) .

ومنهم كذلك (إرهارد ميلش) الذى أصبح فيلدمارشالاً وهو لا يزال فى الثانية والأربعين ، واعتبر (المهندس) الذى شيد السلاح الجوى الألمانى : فبفضل قدرته على التنظيم

والإدارة واختيار الرجال استطاع أن يبنى الطيران النازى ، وأن يضفى عليه تلك الفعالية المشهورة التى لازمته خلال أعوام الحرب الأولى .

غير أنه وقع فى خطأ هام هو أنه لم يكن يحب (جورنج) الذى تمكن من إقصائه عن هذا السلاح ، برغم أنه كما قال المؤرخ البريطانى (تلفورد تايلور) هو (العقل المدبر) فيه .

وهناك كذلك (هوجو سبيرلى) قائد فرقة (كوندور) التى ذهبت تحارب فى إسبانيا ، وحصل على رتبة الفيلد مارشال عام ١٩٤٠ ، وانتهى به الأمر إلى السجن بعد نهيار ألمانيا . وتوفى يوم ٢ من أبريل ١٩٥٣ ، وهو يشعر بالندم على أنه لم يعترض قط على الهاوية التى جر أدولف هتلر ألمانيا إليها .

بيد أن الذى اعترض بالفعل على الفوهرر بالوسائل كافة كان جنرالا آخر هو (إرفن فون فيتزليبن) الذى يجىء فى نهاية مجموعة الفيلدماشالات فى الرايخ الألمانى من حيث الترتيب الأبجدى لأسمائهم :

إنه بروسى من (بريسلاو) ، وله تاريخ عسكرى مجيد وراء ظهره ، ورجل لم يقتنع بالنازية قط ، بل إنه كان منذ عام ١٩٣٨ على اتصال بحركات مقاومتها ، وكان صديقاً لكاناريس والجنرال لودفيج بيك . ثم إنه هو القائد الذى هزم فرنسا عام ١٩٤٠ عند الجبهة الغربية ، ثم أصبح حاكماً عسكرياً لها .

لقد كان (فيتزليبن) واحداً من الذين دبروا مؤامرة ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ لتخليص ألمانيا من هتلر ، وبسبب مجموعة من الظروف المعاكسة وصل فى ذلك اليوم إلى الاجتماع الذى عقد فى وزارة الحربية ببرلين حيث كانت قيادة تلك العمليات التى تستهدف قتل الفوهرر متأخراً .

فلما تناهى إلى علمه فى الساعة العاشرة مساء فشل المؤامرة ، وتأكد أن هتلر لم يقتل بتلك القنبلة التى وضعها (فون ستاوفنبرج) فى القيادة النازية العليا ، صعد فيتزليبن إلى السيارة المرسيدس التى أتت به إلى العاصمة ، وعاد إلى بيته .

وقد اعتقلوه فى الصباح التالى . وكان أول المتآمرين الذين حكم عليهم بالإعدام ، وتم شنقه يوم ٨ من أغسطس ١٩٤٤ .

لقد حاول الوقوف فى وجه النازية بالطريقة التى استطاعها ، فلما فشل فى ذلك دفع حياته ثمناً لأمل ضئيل داعبه وهم يضعون الحبل حول عنقه ، صور له أن عهداً جديداً سوف يشرق على ألمانيا يتسم بالديمقراطية ، وتتخلص فيه من الدكتاتورية !

الجنرال فرانز هالدر :
رئيس هيئة أركان حرب القوات البرية الألمانية ومن أعظم منظمى القوات المسلحة . وقد أثار غضب هتلر لكثرة اعتراضاته فطرده الفوهرر من الجيش يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٤٢ .

الماريشال فون بوك .
كانت مهمته الاستيلاء على موسكو . ثم حل محله فون كلوجه فى آخر عام ١٩٤١ .

الجنرال أريش هوبنر :
قائد الجيش الألمانى المدرع الرابع ، الذى أقاله هتلر لأنه أصدر أمراً لقواته بالتقهقر من أمام موسكو .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع والعشرون

جنرالات الهزيمة

لكم هى قاسية ومريرة وبشعة كلمة «الهزيمة». فهى تعنى الضياع ، والانهيار ، وتبدد الآمال ، وانتهاء جميع الأحلام ، وانعدام الثقة فى النفس ، والشعور بأن كل شىء فى الحياة قد توقف ، ثم زال . وكل هذه تتضخم وتتضاعف عندما تقع الهزيمة بمن لم يكن يتوقع غير الانتصار !

ولابد أن ذلك كان شعور أدولف هتلر عندما زالت الأحلام التى داعبته عقب الانتصارات السريعة الأولى فى الشرق ، بعجز جيوشه عن اقتحام عاصمة الأعداء الألداء : موسكو . فهل كانت هذه واحدة من سخريات القدر ؟

إن الجنرال (بلومنتريت) رئيس أركان حرب الجيش الرابع الألمانى العامل على الجبهة الشرقية قد عاش كشخصية أولى ذلك التقدم الكاسح الذى أوصل الألمان فى صيف ١٩٤١ حتى مرمى حجر من العاصمة السوفيتية ، ثم بعد ذلك عاش الهزيمة المروعة التى نزلت بهم ، فتقوضت معها كل ما كان يراودهم من آمال وأحلام . فكيف كانت هذه الهزيمة الجزئية ؟ ولماذا كانت مقدمة للهزيمة النهائية ؟

* * *

لقد كان الجيش الألمانى الرابع الذى يتولى قيادته الفيلدمارشال فون كلوجه يدخل فى إطار مجموعة جيوش الوسط ، التى تتكون من الجيشين الرابع والتاسع ، ووضعت تحت قيادة الفيلدمارشال (فون بوك) وتضم ثلاثين فرقة من المشاة ، وخمس عشرة فرقة مدرعة ، وفرقة واحدة من الفرسان ، وكان يعمل مع هذه المجموعة من الجيوش فى تعاون وثيق ، الفيلق المدرع الثانى بقيادة الجنرال (جودريان) ، والفيلق المدرع الثالث بقيادة الجنرال (هوث) والفيلق مكن من قوات مدرعة ، وقوات وسيطة تعمل بين الفيلق ومجموعة الجيوش .

ولقد عهد فى الخطة الاستراتيجية لمعركة روسيا إلى مجموعة جيوش الوسط – وبصفة خاصة إلى الجيش الرابع والفيلقين المدرعين – بمهمة الاستيلاء على موسكو ، وكان التخطيط الميدانى كما يلى :

يقوم الفيلقان المدرعان ، المرابطان على جناحى مجموعة الجيوش . واللذان يقف بأحدهما (جودريان) عند برست ليتوفسك ، وبالآخر (هوث) عند سوالكى . باقتحام خطوط الأعداء والتقدم إلى (مينسك) . حيث يتعين عليهما أن يلتقيا بعد أن يغلقا بمناورة هائلة طرق الكماشة ، ويوقعا فى الحصار أكبر عدد ممكن من القوات الروسية .

وبينما تقوم القوات المدرعة بهذه العملية ، يتعين على فرق المشاة من الجيشين الرابع والتاسع أن تقوم بعمليات التفاف أقل من الأولى حجماً .

وقد تمت هذه العمليات التى بدأت يوم ٢١ من يونية ١٩٤١ وفقاً للخطط الموضوعة ، وانتهت يوم ٢ من يولية محققة نتائج باهرة للمهاجمين ، هى وقوع ١٦٠٠٠٠ أسير روسى والاستيلاء على ١٢٠٠ دبابة و ٦٠٠ قطعة مدفعية .

وقبل أن تستأنف المعركة مرة أخرى ، أعيد تنظيم مجموعة جيوش الوسط ، فأدمج الفيلقان المدرعان معاً ، لكى يندفعا من جديد نحو الشرق ، ويخوضا كتلةً واحدةً ما عرف باسم (معركة مينسك) ، التى استمرت من ٢ إلى ١١ من يولية .

وعندما تمت هذه السلسلة من العمليات ، كانت قوات (فون كلوجة) المدرعة قد أقامت اتصالا بينها وبين ما سمى «خط ستالين» ، وهو الخط الدفاعى الرئيسى الذى وراء نهرى (دفينا) و (الدنيبر) .

* * *

على أن هذا الخط لم يكن حصيناً على طول امتداده ، ولا مزوداً بوسائل دفاعية جيدة ، الأمر الذى جعل دبابات جودريان وهوث تتخطاه ، ولو أن المقاومة الروسية أخذت تزداد بعد ذلك .

والواقع أن الروس تلقوا فى ذلك الوقت بعض التعزيزات ، فراحوا يهاجمون جانبى الطوابير الألمانية المدرعة طوال الفترة من ١٢ إلى ٣٠ من يولية . وهنا توقف التقدم الخاطف الذى قام به الجيش الألمانى الرابع لأسباب منها : النقاش الذى كان يجرى فى القيادة الألمانية العليا حول الإستراتيجية التى يتعين انتهاجها .

وكما هو معروف فإن هتلر كان حريصاً على أن يضمن لنفسه المراكز الاقتصادية فى أوكرانيا ، وفى حوض الدونيتز ، وفى القوقاز ؛ وهى جميعاً فى القطاع الذى تعمل فيه مجموعة جيوش الجنوب ، أما موسكو فكان اهتمامه بها أقل ، إلى الحد الذى جعله لا يرى من الضرورى بعد النتائج التى حققها جيشه الرابع العمل بعد ذلك ضد العاصمة الروسية .

غير أن من كان يرى عكس هذا الرأى ، إلى جانب فون براوشيتش قائد الجيش وهالدر رئيس الأركان – هو (فون بوك) قائد مجموعة جيوش الوسط ، وكانوا جميعاً متفقين على ضرورة القيام بعمل ضد موسكو ، على حين كان (فون كنوجه) قائد الجيش الرابع يميل إلى مشاركة مفهوم هتلر الإستراتيجى .

ونتيجة لهذه الخلافات جرت مناقشات لانهاية لها ، مما جعل أسابيع طويلة تنقضى قبل التوصل إلى قرار . لقد رجحت فى آخر الأمر كفة أولئك الذين يقولون بمهاجمة موسكو ، لكن المشكلة الرئيسية التى فرضت نفسها هى : هل بقى وقت يسمح بالاستيلاء على العاصمة السوفيتية قبل أن يحل الشتاء الروسى الرهيب ؟

وقد قدر لتلك الأسابيع التى انقضت خلال شهر أغسطس فى المناقشات أن يكون لها نتائج مدمرة على العمليات العسكرية الألمانية التالية التى قامت بها قوات الهجوم المكونة من الجيوش الثانى والرابع والتاسع ، ومعها الفيالق المدرعة الثانى والثالث والرابع .

* * *

وبدأت معركة موسكو الكبرى يوم ٢ من أكتوبر ١٩٤١ ، وانتهت المرحلة الأولى منها يوم ١٣ من الشهر نفسه ، بذلك النصر الكبير الذى أحرزه الألمان فى (فيازما) بفضل حركة التفاف تقليدية . وعند ذلك بدا الطريق إلى العاصمة الروسية مفتوحاً ، مما حدا بهتلر إلى تشكيل قيادة خاصة من سلاح المهندسين مهمتها تدمير الكرملين !

وفى يوم ١٥ من أكتوبر تحركت جميع القوات الألمانية نحو موسكو ، غير أن المقاومة الروسية ظلت مع دهشة الألمان الكبرى كما كانت لا تضعف ولا تلين ، بل إن القتال ازداد قسوة وقد أججه استمرار وصول التعزيزات . وكان من شأن ذلك أن تزعزت ثقة الألمان الذين كان قد استقر فى روعهم أنهم كسبوا المعركة .

ولما كانت القوات الألمانية قد أرهقها الجهد الكبير الذى بذلته فى المعارك السابقة ونقص الإمدادات . فإن حالتها المعنوية قد انخفضت بصورة ملموسة . يضاف إلى ذلك أن الأوحال

التى هى قرينة بالخريف الروسى أخذت تعوق تحركات المدرعات الألمانية بتلك السرعة التى تتطلبها طبيعة الأعمال الحربية ، الأمر الذى جعل التقدم الألمانى يتوقف تدريجاً

وجرت آخر محاولة لاحتلال موسكو فى منتصف شهر نوفمبر عندما بدأ الجليد يجمد التربة . ويتيح الحركة لسائر أنواع الوسائل الميكانيكية ، فقد كان الجيش الذى عليه القيام بالهجوم الحقيقى على منطقة موسكو هو الجيش الرابع . وقد جرت العمليات القتالية الأولى لمصلحة الألمان بفضل الفيلق المدرع الرابع ، إلا أن تغييراً مفاجئاً فى المناخ ترتب عليه هبوط درجة الحرارة ٣٠ درجة دفعة واحدة . كان بمثابة الكارثة بالنسبة للجنود الألمان الذين لم يكونوا مزودين بما يقيهم فى مثل هذه الظروف .

ومع ذلك فإن مجموعات من الدبابات استطاعت بصعوبة بالغة أن تصل فى زحفها إلى الضواحى الغربية للعاصمة الروسية . وفى أعقابها طلائعها من القوات ، وذلك فى الأيام الأخيرة من نوفمبر .

غير أنه عند هذه النقطة بالذات ، إذا بالجليد والثلوج تتضافر معاً لكى تطفىء شعلة الاندفاعة الهجومية الأخيرة للمدرعات الألمانية .

وهنا اندفعت قوات المشاة فى الجيش الألمانى الرابع ، لكى تساند قوات المدرعات . وراحت تهاجم يوم ٣٠ من نوفمبر . وتمكنت من اقتحام بعض النقط فى الخط الدفاعى الروسى ، ولكنها سرعان ما تبين أنها غير قادرة على القيام بالمهمة الموكولة إليها وأنها لاتستطيع إحراز أى نصر . وعند هذا الحد ، أصدر (فون كلوجه) أوامره بوقف الهجوم الذى أصبح لا أمل من ورائه ، ولايؤدى إلا إلى خسائر لا جدوى منها .

وبهذه الهزيمة أمام أسوار موسكو ، توارى إلى الأبد ذلك الوهم فى إمكان أن يحقق الألمان نصراً حاسماً فى الشرق . . . .

* * *

وفى أفريقيا جاء (هانز جورجن فون آرنيم) ليخلف روميل فى قيادة قوات المحور ، وكان الوجود الإيطالى الألمانى فى ذلك الوقت قد تقلص إلى جزء من تونس فضلا عن أنه أصبح فى وضع حرج : ذلك أن القوات الإيطالية والألمانية كانت معرضة للهجوم من جانب جيوش الحلفاء القوية ، فباتت فى موقف الضعف الذى زاد من خطورته استحالة حصولها على أى إمدادات عن طريق قناة صقلية التى أصبحت تسيطر عليها الوسائل الجوية والبحرية للحلفاء .

ومن العتاد والمؤن التى شحنت خلال شهرى مارس وأبريل من إيطاليا وبلغ وزنها ١٣٢٠٠٠ طن . لم تصل إلى هذه القوات فى تونس سوى ٧٧٠٠٠ طن ، وهو ما يعادل ربع احتياجاتها الضرورية ؛ لكى تقيم أودها ، وتستطيع أن تقاتل . وفى مثل هذه الظروف كان الأمر الذى أصدره هتلر لها ، وبموجبه يتعين عليها أن تحتفظ بتونس بأى ثمن ، يعتبر ضرباً من الجنون .

وكان أول هجوم قوى يتعين على (فون آرنيم) أن يواجهه هو ذلك الذى قام به الجيش الثامن البريطانى الذى تقدم من الشرق متجهاً إلى (مارث) وهى مركز صغير فى تونس ، وهى بين (مطمطة) وخليج قابس .

كان الهدف من العملية البريطانية هو كسر الخط الدفاعى فى (مارث) ، ثم الاندفاع شمالاً فى اتجاه (صفاقس) (وسوسة) ثم بعد ذلك (تونس) .

وكانت المواقع التى تعرضت لهجوم البريطانيين يحتلها الجيش الأول الإيطالى ، بقيادة الجنرال (ميسيه) الذى قاوم ببسالة الهجمة البريطانية . بل قام بهجوم مضاد عنيف بفضل دعم الفرقة الألمانية الخامسة عشرة مدرعات ، واستأنف الإنجليز هجومهم يوم ١٦ من مارس بعملية اقتحام قوية على الجناح الأيمن للجيش الإيطالى الأول فى منطقة (الحامة) ، ولكن الوقت كان متأخراً بالنسبة للإنجليز لقطع انسحاب أعدائهم .

والواقع أن الجيش الإيطالى قد تمكن من الصمود على جبهة تمتد من خليج (قابس) حتى مستنقعات (شط الجريد) ، ويبلغ طولها ١١١ كيلو متر ، ويقوم فيها تلان ارتفاعهما ٢٠٠ ، ٣٠٠ متر يسيطران على السهل .

وراح الإنجليز يهاجمون هذه الجبهة ليلة ٥ من أبريل ، ولكن الفرق الثلاث التى زجوا بها فى المعركة ردت على أعقابها تماما ، ولو أنهم عاودوا الهجوم فى اليوم التالى ، مستخدمين فى ذلك عدداً كبيراً من قواتهم المدرعة .

وإزاء ذلك اضطر (فون آرنيم) أن يصدر أمراً إلى الإيطاليين بالتراجع إلى الوراء اتقاء للخطر الذى لاح إلى اليمين من جيش (ميسيه) الذى انسحب إلى خط (صفاقس – سوسة) دون أن تشعر به القوات البريطانية المتقدمة .

وفى نهاية كل هذه التحركات أصبحت مجموعة الجيوش الإيطالية الألمانية العاملة فى أفريقيا مصطفة على طول جبهة تمتد من (رأس سرات) إلى (جفنة) و (سيدى نسر)

و(الجبل) و(تاكرونة) ويبلغ طول هذه الجبهة ٢١٥ كيلو متر، وتقف فيها ١٦ فرقة، ولكن ينقصها الكثير من العتاد الأساسى والوقود. فى مقابل ٢٠ فرقة للأعداء، مزودة بكل ما تحتاج إليه من أسلحة وذخائر ومؤن ومهمات.

وتلقت الجبهة الإيطالية الألمانية الهجوم من الجنوب يوم ٢ من أبريل، غير أن الجيش البريطانى العاشر الذى قام به فشل فشلاً ذريعاً، إذ إنه برغم استيلائه على (تاكرونة) لم يستطع التقدم من حيث وقف عند (جبل جارسى) إزاء الدفاع الشرس الذى واجهه من القوات الإيطالية. إلا أن الهجوم البريطانى نجح فى مناطق أخرى تسيطر عليها القوات التى تحت قيادة (فون آرنيم) حيث تمكن الجيش الفرنسى التاسع عشر من اجتياز (جبل فقرين)، كما تمكن الجيش البريطانى الخامس من التقدم على ضفتى (مجردة) وطرد العدو من مواقع دفاعية هامة.

أما الجيش الأمريكى الثانى فقد نجح فى التقدم إلى وادى (التين)، ووصل يوم ٥ من مايو بقواته المدرعة إلى الخط الحديدى تونس – بنزرت. وجاءت فى اليوم نفسه قوات متحالفة أخرى، فاحتلت الضفة الشمالية من مستنقع (أشطل) الذى على بعد ١٥ كيلو متر من بنزرت. وعند ذلك أخذت القوات الألمانية تتراجع نحو البحر.

* * *

وفى هذه الأثناء أخذ الحلفاء يتهيئون لشن هجومهم الأخير على القوات الإيطالية الألمانية التى انحصرت الآن فى رأس جسر تونس.

وبدأ هذا الهجوم يوم ٦ من مايو بضربات عنيفة وجهها الجيش البريطانى التاسع، انطلقت من فوهات مائة بطارية مدفعية، وهجمات جوية مركزة تمهيداً لدخول القوات المدرعة فى المعركة، فلما غربت شمس ذلك اليوم كان الإنجليز قد أحرزوا تقدماً كبيراً.

وفى اليوم التالى انطلق الجيش المدرع البريطانى السابع، فدخل مدينة تونس. وفى الوقت نفسه تقريباً اقتحمت الفرقة الأمريكية التاسعة بنزرت، على حين تجاوزت الفرقة المدرعة الأمريكية الأولى (بروت فيل) حيث انضمت إلى الفرقة الأمريكية السابعة.

وكان هذا الالتقاء هو نهاية الجيش الألمانى الخامس المدرع الذى وقع بين فكى كماشة الجيشين الأمريكيين. وعند ذلك بعث الجنرال (فون فايرست) رسله إلى العدو للتفاوض، ثم استسلم بدون قيد ولا شرط يوم ٩ من مايو. وبسقوط مدينتى تونس وبنزرت واستسلام الجيش الألمانى الخامس فإن ما كان يسمى (الجبهة الشمالية) قد انهارت تماماً، وهى التى عهد بقيادتها

إلى الجنرال (فون آرنيم) ليطيل بها مقاومة قوات المحور فى أفريقيا

أما الجبهة الجنوبية التى تشمل شبه جزيرة (رأس بون)، فقد قسمتها الفرقة المدرعة البريطانية المدرعة إلى جزأين يوم ١٠ من مايو، وطوقت بذلك الجيش الإيطالى الأول، ووصلت إلى خليج الحمامات.

وعند هذا الحد لم يعد فى إمكان قوات المحور إقامة أى دفاع منظم. فأدرك الجنرال الألمانى أنه لا جدوى من التضحية بمزيد من قواته، فأعلن فى الساعة السادسة من مساء يوم ١١ من مايو ١٩٤٣ استسلامه للعدو. وهكذا نكس بصفة نهائية علم الحرب الألمانى فى أفريقيا بعد مقاومة مشرفة بين ندين غير متكافئين.

* * *

وفى فرنسا: كان على (هانز شبيدل) رئيس أركان حرب مجموعة الجيوش الألمانية (ب) أن يواجه نزول القوات البريطانية والأمريكية يوم ٦ من يونية ١٩٤٤. وكان يقود مجموعة هذه الجيوش المارشال (روميل)، الذى لم يكن يتوقع نزول الحلفاء فى ذلك اليوم.

وترتيباً على هذا التقدير بدا كأن (شبيدل) بدوره لم يصدق النبأ الذى جاء من قيادة الجيش الألمانى الخامس عشر مساء ٥ من يونية، بأن نزول قوات الأعداء سوف يتم خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة ابتداء من منتصف تلك الليلة.

وعلى ذلك فإن القوات الألمانية لم توضع فى حالة تأهب، وبصفة خاصة الجيش السابع الذى يرابط فى المنطقة التى قيل إن النزول سيكون فيها. وقد أدى هذا الإهمال إلى تسهيل مهمة الوحدات الأولى لقوات الحلفاء.

وإلى جانب ذلك ينبغى ألا ننسى أن هتلر كان مقتنعا بأن عملية الإنزال يوم ٦ من يونية ماهى إلا مناورة يقصد بها التضليل، وقد رتب كل استراتيجيته على هذا الاقتناع. ولقد كانت نتائج اقتناع الفوهرر مدمرة دائماً. ومن أجل إيقاف القوات البريطانية والأمريكية على الجبهة التى وصلت إليها يوم ١٢ من يونية، كان على القيادة الألمانية أن تلجأ إلى احتياطى الجيش الخامس عشر الذى كان فى أفضل وضع للتدخل.

لكن هتلر حال دون ذلك، مما جعل مجموعة الجيوش (ب) التى تقع المسئولية على كاهلها تظل عملياً بغير أى تعزيز. وفى هذه الظروف اضطرت المجموعة التى يرأس أركان حربها

(شبيدل) أن تحد من عملياتها، وتقصرها على مجرد أعمال تكتيكية خارج نطاق أى رؤية استراتيجية؛ فلقد كان اقتناع الفوهرر وعناده هما اللذان ساعدا على نجاح خطة الحلفاء الحربية. ولكن كما هى عادة هتلر فإنه ألقى بتبعة فشله على عاتق قائديه: فون رونشتت قائد الجبهة الغربية، وروميل قائد مجموعة الجيوش (ب) واستدعاهما ليقدما له تفسيراً عن «فشلهما».

وقد روى (شبيدل) مادار فى هذا اللقاء، فقال: إن هتلر كان ممتقع الوجه، بادى الإرهاق؛ فحياهما بعبارة موجزة ثم تحدث بمرارة عن عدم رضائه عن نجاح نزول الحلفاء، وراح يعدد الأخطاء التى وقعت فيها القيادات المحلية. وقد ضاعفت بقية الحديث من الخلاف بين هتلر والقائدين فيما يتعلق بسير العمليات فى الغرب. غير أن القائدين طالبا بإعطاء مجموعة جيوشها مزيداً من حرية العمل، وبعدم تقيدهما بالأوامر غير المعقولة التى يصدرها الفوهرر.

وبعدذلك بيومين بعث روميل بتقرير درامى إلى هتلر يوم ١٧ من يولية، يقترح فيه مباشرة إنهاء القتال فى الجبهة الغربية، ثم أصيب بجراح خطيرة من طلقات مدفع رشاش، وبعد ذلك بيومين آخرين وقعت مؤامرة اغتيال الفوهرر. وحدثت موجة من الإرهاب بعد هذه المحاولة الفاشلة تعرض لها الجيش الألمانى، فتم إعدام سبعة عشر جنرالاً، وانتحر غيرهم ومنهم (روميل)، و(فون شتولبناجل) و (بيك) إلى جانب ضحايا كثيرين انتقم منهم هتلر.

أما (شبيدل) فلم يعتقل فى البداية، وظل فى منصب رئيس أركان مجموعة الجيوش (ب) إذ كان أحد جيوشه وهو الجيش السابع منهمكاً فى صد هجوم أمريكى عنيف.

كانت القوات الألمانية تواجه للمرة الأولى التفوق الأمريكى فى العتاد وفى عدد الطائرات مما عرضها لشبح الهزيمة. وفى يوم ٣١ يوليو بعث (شبيدل) بعد أن تخلى عن منطقة (آفرانش) ذات الأهمية الاستراتيجية الكبرى برسالة إلى (فون كلوجه) يبلغه فيها أن الجناح الأيسر لمجموعة جيوشه قد انهار. وعند ذلك فقط تخلى الفوهرر عن اقتناعه القديم بأن الحلفاء سوف ينزلون قواتهم فى مكان آخر.

وقرر أن يبعث بتعزيزات لا بأس بها إلى (فون كلوجه) وهى فيلقان وأربع فرق، وفى رأيه أن تستعيد مجموعة الجيوش (ب) بها منطقة (آفرانش)، ثم تتجه بعد ذلك إلى (سان لو) ومن ثم تلتف حول الجيش الأمريكى الأول.

لقد كان هذا الأمر واضح السذاجة، نظراً إلى أنه حتى المدرعات الألمانية فقدت جانباً كبيراً

الجنرال أولبرخت الذى كان سيصبح وزير للحربية فى الحكومة الألمانية المؤقتة

الكولونل أوستر ، وهو من أعداء النازية القدامى ، ولم يتردد عامى ١٩٣٩ – ١٩٤٠ فى تسليم الحلفاء أسرار هامة ، ولكنهم لم يستخدموها . وقد أثار شكوك الجستابو . فطرد من الجيش عام ١٩٤٣

الجنرال كارل هنريش فون ستولبناجل قائد عام قوات الاحتلال فى فرنسا ، وقد انضم صراحة إلى المؤامرة . وفور إعلان أنباء وقوعها قام باعتقال جميع زعماء قوات العاصفة فى باريس . فلما فشلت المؤامرة شنقوه .

obeikandl.com

من قدرتها الهجومية . فلم يكن مثيراً للدهشة إذن أن يصاب فون كلوجه وشبيدل بالحيرة والذهول ، إلا أن أى أمر يصدره هتلر إلى الجيش يتعين وفقاً للشعار العسكرى الألمانى أن ينفذ ، وعلى ذلك بدأ الهجوم الألمانى على (آفرانش) يوم ٧ من أغسطس .

وبعد نجاح أولى تسمرت المدرعات الألمانية على الأرض ، وراحت القوات الجوية المتفوقة للعدو فى تدميرها . وإذ انحصرت القوات الألمانية فى منطقة (آفرانش) فإن الحلفاء طوروا هجومهم عليها ، وراحوا يبيدون مجموعة الجيوش (ب) ، التى حرم عليها الفوهرر الانسحاب .

وقد انتهى الهجوم الحليف الذى اتخذ شكل الكماشة طرفاها فى (أورن) و (ديف) يوم ١٨ من أغسطس . بإبادة ١٥ فرقة ألمانية .

كانت هذه هى الهزيمة الثالثة للجيوش الألمانية ، التى لم تلبث أن تعرضت لهزيمة رابعة فى إيطاليا باستسلام (فون فتنجهوف) ، واسترد الحلفاء بعد ذلك باريس يوم ٢٤ من أغسطس . وأخذت آمال الألمان تتبدد قليلاً قليلاً ، ويحل محلها اليأس الكامل ، والاقتناع بأن كل شىء قد ضاع . وكانت هذه هى بداية الهزيمة النهائية للنازية .